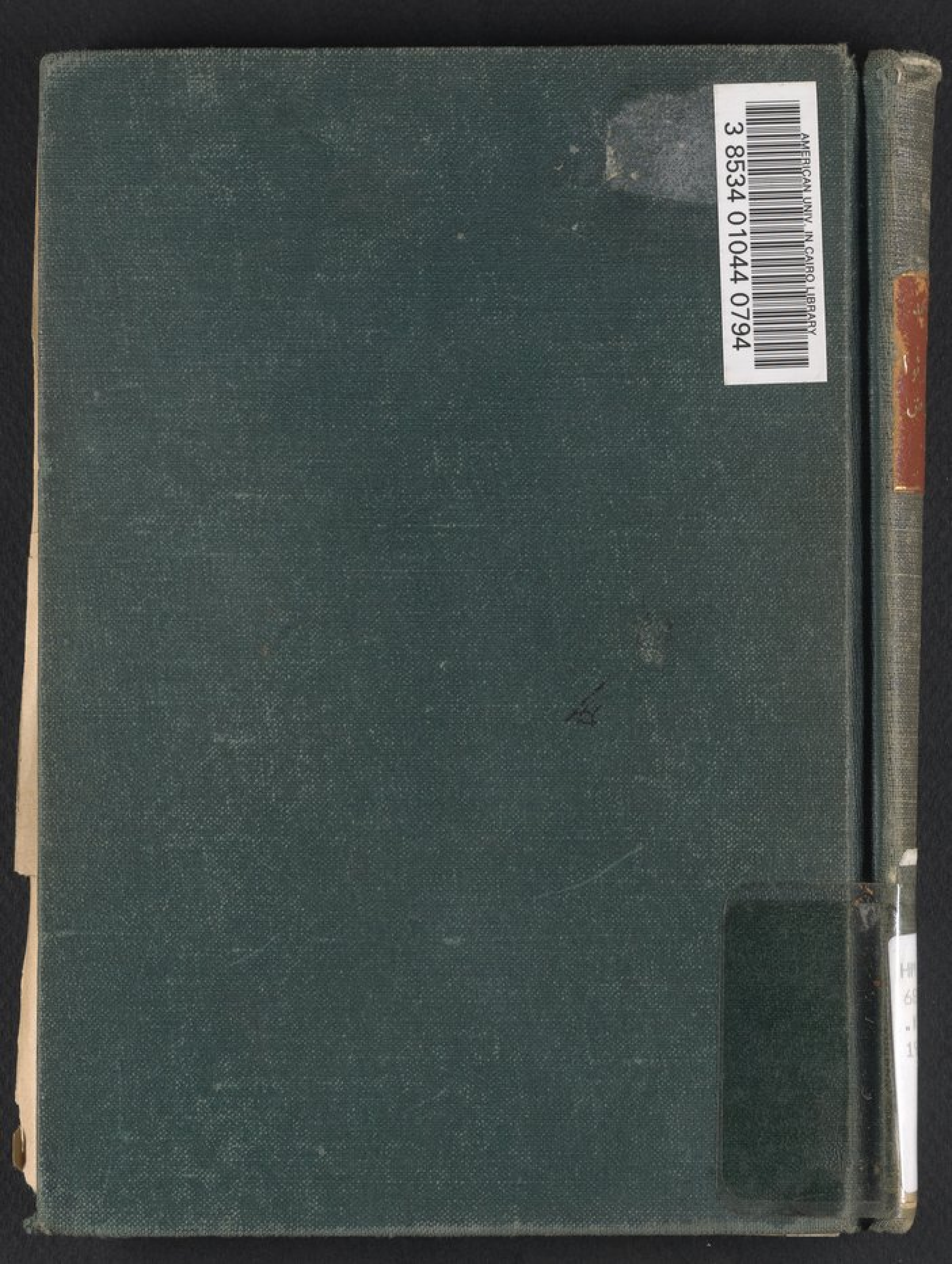
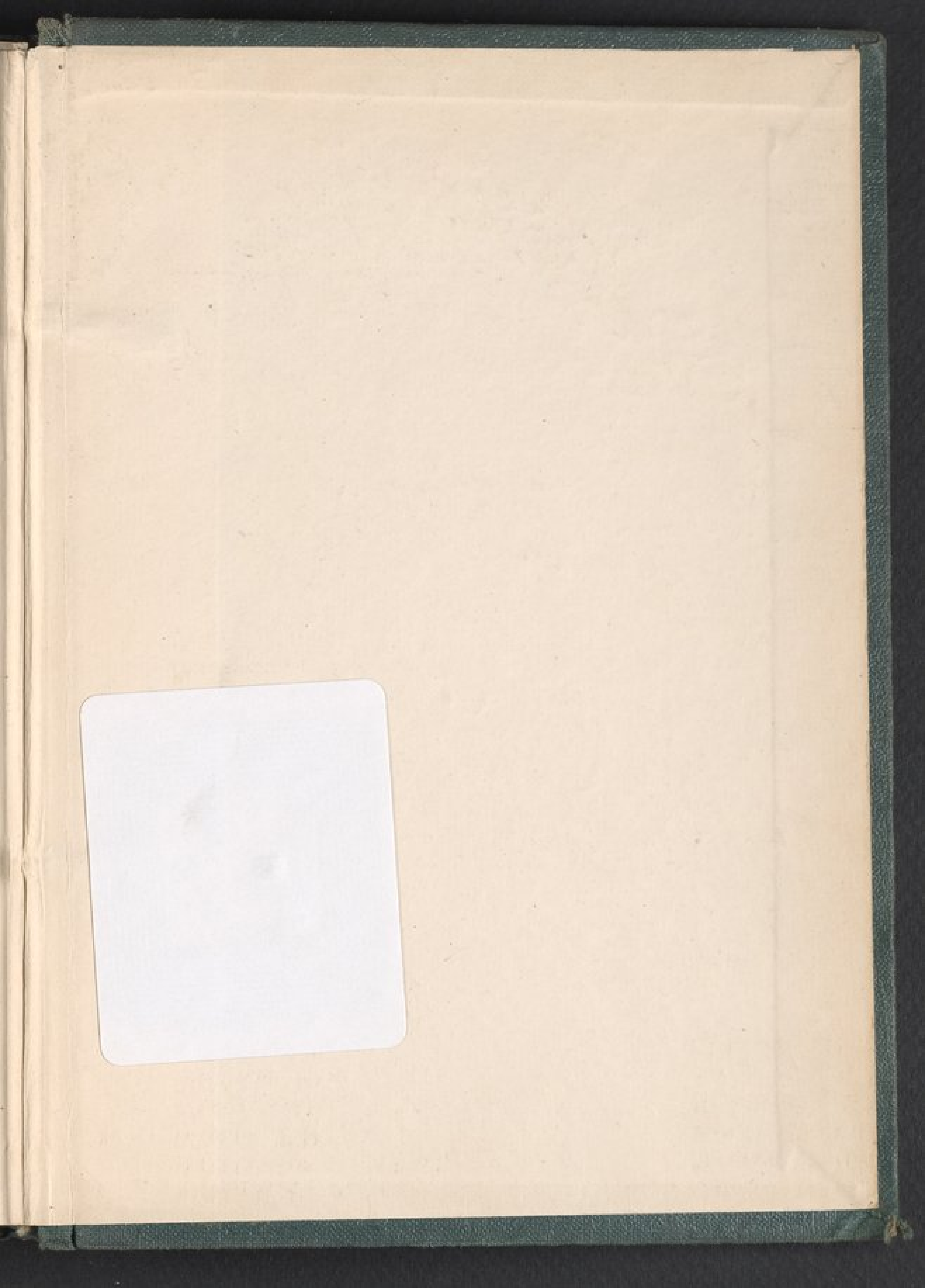
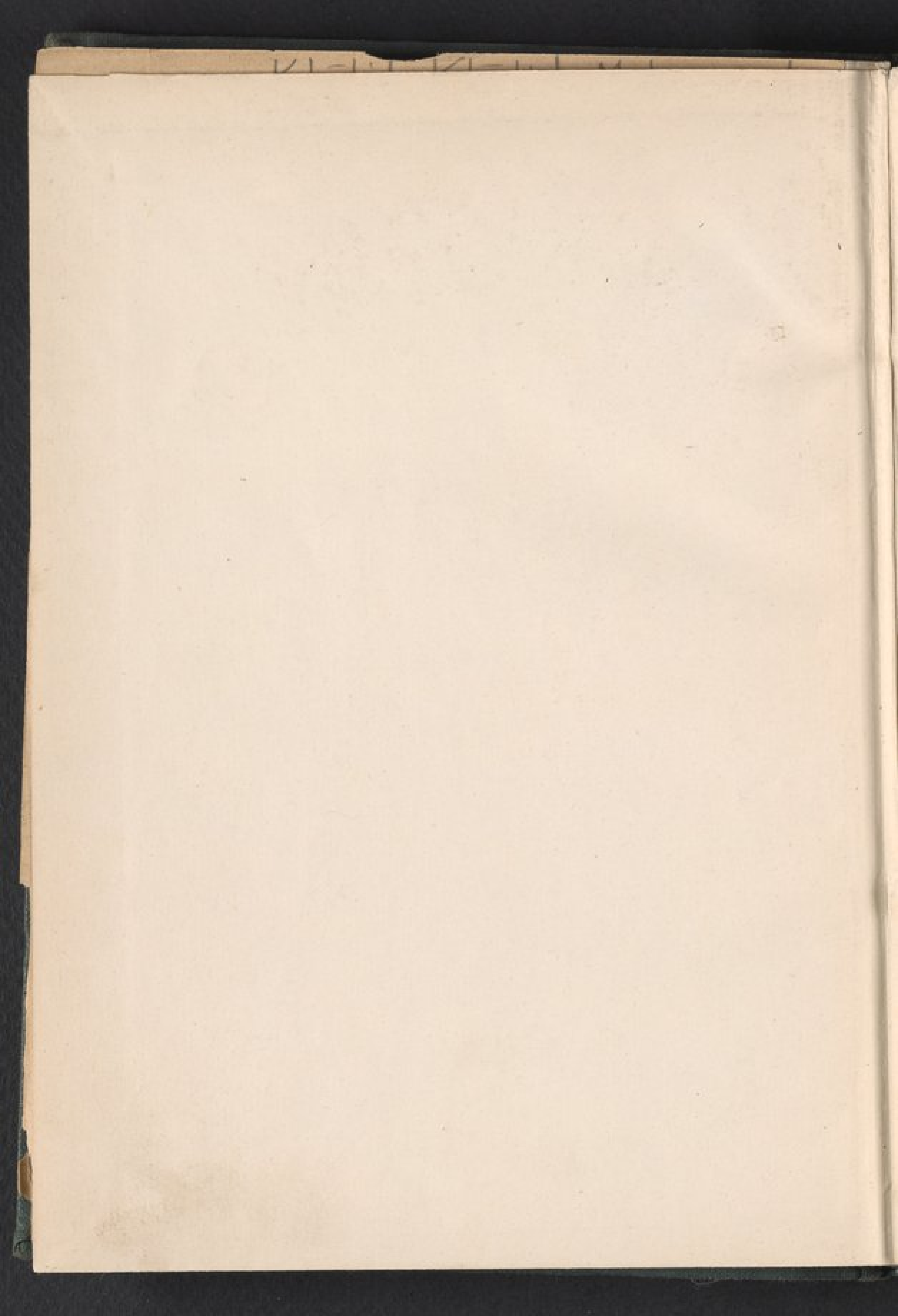

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01044 0794





خالد محمد خالد

لِكَيْ لا تَحْرُثُوا فِي البَحْرِ

" اعرفوا الحق ، ثُمَّ اتَّبِعُوهُ "
" وَسَيَجْعَلُكُمُ الحقُّ أَحْرَارًا .. "

الطبعة الثانية
ديسمبر سنة ١٩٥٥
ظهرت الطبعة الأولى فى مارس سنة ١٩٥٥

الناشران
مكتبة الانجلو المصرية — مكتبة الخانجى
القاهرة

الإهداء

الى روح أبى ..

فصول الكتاب

الفصل الأول ـ الديمقراطية ، ضرورة خلقية ..

« يتحدث عن الطغيان كمزرعة للرذيلة ، ويكشف عن مسئولية الحكم المطلق تجاه الرذائل التى يثمرها وجوده ، ويزكى الديمقراطية الراسخة ، كبداية لكل تجدد خلقى » ..

الفصل الثانى ـ الواجب ، لا القوة ..

« يكشف عن آفتنا الكبرى ، المتمثلة فى التوسل بالقوة والقسر لتقويم السلوك . ويعرض دور المنزل ، والمدرسة والقانون ، والسجن ، والرأى العام ، والصحافة فى تعويق المسلك الخلقى للمجتمع ، ويبشر بالواجب كقيمة » ..

الفصل الثالث ـ معا ، الدين والمدنية ..

« يحذر من ربط الأخلاق بالتقاليد التى استنفدت أغراضها ، ويكشف عن الدور الجليل الذى يستطيع الدين والمدنية أن ينشئا به فضائل يانعة للجماعة والفرد » ..

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هى الطبعة الثانية من الكتاب الذى تحمله بين يديك ٠ نصدرها ليلتقى به الذين فاتتهم طبعته الأولى ٠٠

والكتاب ينتظم فصولا ثلاثة ٠٠

وفى هذه الطبعة أجرينا تعديلا فى الفصل الثالث الذى كان عنوانه « أخلاق المدنية أهدى ٠٠ » فصار « معا ٠٠ المدنية والدين » ٠٠

وعلى الرغم من أننا لم نصادف حتى كتابة هذه السطور نقدا ما للكتاب ٠٠ فقد آثرنا اجراء بعض التعديل فى الفصل الأخير بحيث يبلغ غرضه فى يسر أكثر ، ودقة أوفى ٠٠

ماهذا الغرض الذى يريد الفصل الأخير بلوغه ؟؟ ٠٠

انه تحقيق الاعتماد على الدين والمدنية اعتمادا متكافئا لأدراك حياة أفضل ، وسلوك أهدى وأقوم ٠ ٠

ذلك أنه من العسير على الانسان أن يعيش فى غير عصره ٠

كما أنه من الشاق عليه أن يعيش مبتور الصلة بالله ، فارغ القلب من دين يهز رؤاه ويعصم خطاه ، ويزكى سعيه الحثيث الى الكمال الميسور ٠٠

ولكن ، مثلما يقف نمو الجماعة ويرتكس تطورها حين تعجز عن التوفيق بين الدين والمدنية ٠٠ فكذلك يرتكس نمو الفرد عندما يخفق فى الاهتداء بروح الدين والعلم ٠ وحين يضل عن النهج المشترك الذى يتعاون الدين والمدنية معا على وضعه فى خدمة الذين يريدون أن يتفوقوا على أنفسهم ٠ ويصعدوا بوجودهم العادى وسلوكهم المتعثر الى مستويات عالية من

الفضيلة والخلق .. الأمر الذى حاولنا بيانه ، ولا نزال نحاوله ..

بيد أن احترام الدين لايعنى احترام الخرافات التى ألقتها عليه الأغراض والفتن عبر القرون ..

وأيضا ، فان احترام المدنية لايعنى الافتتان بما يخالطها من زيف وزور ..

وهنا الصعوبة التى ترتطم بها حياتنا أفرادا وجماعات ..

وهنا كذلك الميدان الذى يتطلب جهود المفكرين والعاملين ليكشفوا عن أكبر مساحة ممكنة من التخوم المشتركة بين الدين والتطور حتى لا نضطر فى نوبة من نوبات الحياة وأزماتها الى تنحية أحدهما من أجل افساح مكان للآخر لكى نتبين فيما بعد ، أننا ضللنا طريقنا ، ثم نحاول البدء من جديد ..

وأيضا ليكشفوا عن جوهر الدين وجوهر المدنية ، ليستطيع الناس أن يحلقوا بهذين الجوهرين فى سماء قدرتهم البشرية . نابذين عن جهودهم كل عوامل التوقف والاخفاق ..

وهذا الكتاب مدين بالشكر لثورتنا الباسلة ..

وهو ليس شكرا شخصيا يتعلق بالكتاب ، أو بمؤلفه .. بل هو شكر نحمله باسم المجتمع كله ، ونزجيه باسم المشكلات الهامة التى أثرناها على صفحات الكتاب والتى لم تلبث حتى تحولت بعزم الثورة الرشيد الى قوانين ونظم ..

فمنذ سبعة أشهر صدرت الطبعة الاولى . وفى الفصل الثانى عرضنا للمحاكم الشرعية وللمجالس الملية ، كمؤسستين تعيشان فى غير زمانهما ، وتساهمان فى عرقلة نمونا الخلقى ، وتفرزان كل يوم عددا من الضحايا الذين يزداد بهم رصيد المجتمع من التعاسة والانحطاط ..

لعل القارئ يرى ما يلقيه المؤلف الاكبر الثورة وذويها عن حملها لها لحيف المتسع والوعي الكامل الذي يلزم المدنية والحضارة

وتحدثنا عن السجون ، وعرضنا نموذجا لما يجب اتخاذه تجاهها ..

وذات صباح فوجىء الناس بخطوة موفقة من خطوات الثورة . أعلنت توحيد القضاء ..

ولعل بعض المتسرعين قد ظن أو رأى فى هذا العمل الجليل مساسا بالدين ..

والحق الذى نعلمه جميعا أن توحيد القضاء هذا ، أجهز اجهازا كاملا على أخطر أنواع العبث بالدين ، وبالأسرة ، وبالوطن ..
فكلنا نعرف أولئك الذين كانوا يتوسلون لهدم أسرهم بتغيير الدين .. وكلنا نعرف تلك التناقضات الضارة التى كانت تقوم بين اختصاصى المحاكم الشرعية ، والمجالس الملية ، حيث يذهب ضحيتها نسوة ضعيفات ، وأطفال تعساء ..
أما السجون ، ففضلا عن تحطيم القيود التى كانت تشوه انسانية السجين ، نلمح دراسات وافية ، ومحاولات مستمرة لرفع مستوى هؤلاء الأخوة الذين أوقعهم ضعفهم تحت وطأة العقاب ..

اننا لانتخذ من هذا الثناء الواجب على الثورة ، وسيلة للثناء على أنفسنا ، وتذكيرا بما بذلنا من جهد .. فالحق أننا فى هذا ، وغيره انما نقتفى آثار كثيرين من الكتاب والمصلحين الذين مابرحوا منذ ربع قرن وأكثر ينادون بهذه المشروعات ويهتفون ..

هو اذن شكر لهم وتحية لنضالهم . وهو شكر وعرفان للثورة التى لم تشغلها مؤامرات الاستعمار المحيطة بها من كل مكان عن أن تستكمل عناصر وجودها ورسالتها بتحقيق الاصلاح المحتوم لكى تتحول فوضى المجتمع الى نظام .. ولكى يتم على يديها رصف الطريق المفضى لحريتنا ، وقوتنا ، ورخائنا ..

مقدمة الكتاب

أريد أن أعرف :

وقف انسان فوق قمة جبل « ولسن » بكاليفورنيا أمام أكبر منظار فى العالم ، ليرى عجائب السموات ، ويبصر السدم والشموس والكواكب التى تملأ رحاب الفضاء ..

وبعد أن بصر بما لا عين رأت ، واستشرف من وراء زجاج المنظار مالا يخطر بقلب بشر ، قال لرفيقه والرهبة تملأ روعه :

ـ أعتقد أنه من العسير علينا أن نرى النهاية .. ؟
فأجابه :
ـ نعم ، لأنه ليس هناك نهاية .. !!
ولقد رأيتنى أقف ونفسى هذا الموقف عندما زاملت النفس البشرية فى رحلة سريعة . نفسى .. ونفسك .. وأنفس الآخرين ..

وانبعث فى روعى همهمة سؤال يقول :
ـ أعتقد أنه من العسير علينا أن نبصر النهاية . .
وفى أعقابها رنت اجابة حاسمة :
ـ نعم ، لأنه ليس ثمة نهاية .. !

ان أنفسنا التى بين جنوبنا أكوان أخر .. تعج بالخوافى والأسرار ..
ولقد نتسمع أصداء اجرامها الهادرة ، ونلمح بريق غازاتها المتوهجة .. بيد أن ذلك لايعنى أننا عرفنا الكون العجيب وكشفناه ، فلا يزال مبلغ جهد العقل تجاهه أنه واقف على أبوابه يقرعها ..

ولقد عرفت بعد ، كنه الومضة العلوية التى التمعت فى القلوب الذكية لأنبياء الصين وحكمائها الأقدمين فقالوا كلمتهم المضيئة الجامعة :

ـ « من عرف كل شيء ، غفر كل شيء » !! ..

أولئك قوم وضعوا بصائرهم على المنظار ساعة من نهار .. فوجدوا الحقيقة التى أهلتهم لأن يتحدثوا عن الانسان ، ويتحدثوا الى الانسان ..

وكذلك عرفت بعد ، لماذا تذهب صرخات الداعين الى الفضيلة فى بلادنا مع الريح ..

ذلك أنهم ينادون الناس من مكان بعيد . ويتراءى لهم أنهم يخاطبون دمى خشبية لا أناسا يمورون مورا بانفعالات وجودهم والحياة ..

أجل .. ماذا نعرف عن اللغز الذى نحمله ، ونسميه نفسا ؟؟ ..

وماذا نعرف عن الوعاء الذى نعيش داخله ، ونسميه مجتمعا ؟
ماذا يعرف أهل الفضيلة عن الرذيلة ؟ ..
وماذا يعرف أهل الرذيلة عن الفضيلة ؟ ..

وكما قال شاعر الانجليز « كبلنج » :
ـ ماذا يعرف عن أفلاطون ، من لا يعرف غير أفلاطون ؟! ..

أريد أن أعرف :

هذا هو الهتاف المجلجل الذى كان يقرع فى نفس يسوع ، وهو هائم على روابى الجليل ..
وفى نفس محمد ، وهو ثاو فى غار حراء ..
وفى وعى بوذا ، وهو يتواثب وراء الحقيقة بين سهول الهند ونجودها ..

واذا ذهبت تفتى الناس قبل أن تعرف ، فقد ظلمتهم ولو كنت مصيبا ..
واذا أفتيتهم بعد أن تعرف ، فقد أنصفتهم ولو كنت مخطئا ..

فهل عرف الآمرون بالفضيلة ـ فى بلادنا ـ شيئا عن قساوة الفضيلة ؟ ..
وهل عرف الناهون عن الرذيلة ـ فى بلادنا ـ شيئا عن ضراوة الرذيلة ؟ ..

وقبل هذا وذاك ، هل عرفوا المفاهيم الصحيحة والصادقة للفضيلة وللرذيلة ؟ ..

الحق أن مسافة الخلف بعيدة جدا بين الآمرين بالمعروف والعازفين عن المعروف .. بين الناهين عن الشر ، والوالغين فى الشر ..
وحتى يقوم بين الفريقين جسر من المعرفة الحقة والادراك السليم سيظل المعروف فى ديارنا غريب الوجه واليد واللسان ! ..

ذلك أن النتائج الموضوعية التى نحصل عليها من تجارب واقعنا وخبراته هى وحدها التى تهبنا الثقة بما نختطه من مناهج، وما ننتهى اليه من أحكام ..

وقد قال حكيم صيني : « من غير الحكمة أن يكون الانسان حكما لم تساهم التجربة فى تكوينه ، واذا ركن انسان لحكم أنجبته المصادفة ، فمعناه أنه قد ضل سواء السبيل » ..

واذن ، فلكى نتمكن من تطوير سلوكنا وتعليته يجب أن نملك قبل البدء فى العمل معرفة وثيقة ..
أما نظرتنا الماثلة للأخلاق ، هذه التى ورثناها عن أجيال أدمنت الايمان بالماضى ، ووضعت حياة الناس وسلوكهم داخل اطار لاهوتى جامد ، وامتهنت التجربة الانسانية ، والمعرفة

العقلية ، فلم تصغ لرأيهما فى المشكلة ـ فهى نظرة غير سديدة بقدر ماهى غير مجدية ..

من أجل ذلك تخبطنا كثيرا ولا نزال .. ولم نعرف كيف نعمل ، لأننا قبل هذا لم نعرف كيف نعرف ..

اذكروا هذا جيدا ..

ان المعرفة الكاملة الناجحة ، هى سبيل العاملين لكى يظفروا بعمل كامل ناجح ..

والبرهان المبين على أن معرفتنا بمشكلة الأخلاق فى بلادنا ناقصة وداكنة ـ هو أن جهادنا المبذول فى هذا السبيل ضائع وذاهب مع الريح ..

فبقدر مانشاهد كدح الغيورين على الفضيلة والداعين لأن تقوم فى ضمائر الناس مقام القانون ، بقدر مانشهد أيضا اخفاقهم الموصول ..

أفليس ذلك جديرا بلفت أنظارنا ، وحث انتباهنا ؟ ..

بلى .. ولقد كان هذا الأمر على رأس الحوافز التى ألهمت الكتاب تفكيره ، وهدت الى الحقيقة خطاه ..

لقد وجدت أننا فى هذه المشكلة كما فى غيرها من المشاكل نعمل بغير دليل ..

واذن فنقطة البدء أن نجد دليلا للعمل ..

والدليل ، ماذا يكون ؟ ..

انه المعرفة .. المعرفة التى تتكون من فحص الواقع الانسانى فحصا بصيرا نافذا ..

أما الاكتفاء بمشاعرنا الذاتية ، والاهتداء بانفعالاتنا العارضة ، وتقليدنا الضرير لآراء لاندرى كيف تكونت . فأسباب لاتمنحنا الدليل لعمل ناجح أو اصلاح ناجع ..

انما يمنحنا ذلك ، التتبع اليقظ لنتائج النشاط الحى للفرد وللمجتمع وللتاريخ ..

فمن خلال التحامنا بالأشياء واتصالنا بالأحيـاء تنبثق أمكانية استشراف الحقيقة وكشف المعرفة ..

واذا ماسئلت : أينبغى على المصلحين أن يتمرسوا بالرذائل كالسرقة ، والغش وهتك العرض مثلا ، لـكى يسـتطيعوا أن يعرفوها ثم يرسموا طريق الخلاص منها ؟ ..

أجيب قائلا :

ان الأمر لايتطلب ذلك لأننا نختبر رذائل تقرر وضـعها الاجتماعى . عن طريق التجربة الطويلة للانسان ..

بيد أن الأمر يتطلب التجربة غير المباشرة ، أعنى الاندماج فى الواقع وجعله موضع البحث والفحص والتفكير ، اذا أردنا أن نكشف عوامل انتعاش الرذائل ، وأسرار سيطرتها على النفس وتحكمها فى السلوك . وحين يلزمنا تعقب جراثيمها القـاتلة هنـا تهيب بنـا الحكمة القائلة : « لـكى تصيد أشـبال النمر ، لابد من أن تنفذ الى عرينه » ! .. والوصول الى العرين لايكلفك أن تنقلب نمرا ..

فليس من الضرورى اذن لكى تصل الى تفسير صحيح ووثيق لبواعث الرذيلة أن تمارسها ، وان كان لابد من السـير فى دروبها ، ودراسة أصحابها ، وكشف الغطاء عن السلوك المقنع الذى يخفى وراء وداعة الحمل ، شراسة الوحش ..

ومن النقص الوبيل فى بلاد تدير الأخلاق بالمواعظ وحدها ، الا يوجد أقوام يفعلون هذا .. يدرسون سلوك الانسان فى الانسان ويمشون فى مناكب المجتمع ، ليعرفوا ماتى الانطباعات الرديئة والانعكاسات الشريرة التى يتركها فى أفراده ، ويندمجون فى فطنة وذكاء بواقع الحياة ليوائموا بين الناس وبينها مواءمة تهدى الى الفضيلة والمعرفة .. الأمر الذى يحاول كتابنا هذا أن يفعله متمما جهد سلفه « هذا .. أو الطوفان » ..

لقد نفذ الى أعماق المشكلة الحية ٠٠ ولم يدرس الناس فى الكتب ٠٠ بل فى أنفسهم ، وفى شهواتهم ٠ مايسرون منها وما يعلنون ٠ والتقى بهم عند المنبع الذى يصب فيهم ، ويصوغ نماذجهم ، واستكنه جاهدا بواطن الذين استهواهم الشر فساروا فى موكبه نشاوى ثملين ٠٠ وقبل أن يسير فى الطريق ويسبر غور الدرب المجهول كان مبلغ وعيه بالمأساة أنه يجهلها، أما الآن فأنه يعرفها ٠٠ كان يسمع بها ، أما الآن فقد رآها ٠٠

كان يتلمظ مع الأتقياء العاجزين بـ « لاحول ولاقوة الا بالله» أما الآن ، فهو يحمل مشعلا ينير الطريق ٠ ويسلب محترفى الغيرة على الفضيلة تظاهرهم الأجوف ٠ ويدعو جميع المناضلين ضد الكذب والبهتان ، وضد الرذيلة والشر ليضربوا بسواعدهم البارة فى أرض المعرفة والخير والجمال ٠٠

ولقد سألنى كثيرون من القراء فى رسائل ودودة تلقيتها منهم بعد ظهور كتابنا السابق عما اذا كان سر اختيارى لعنوانه « هذا ٠٠ أو الطوفان » هو مجرد الرغبة فى الاثارة وشد زناد الانتباه ٠ أم أنا أعنى بالفعل مدلول هذا العنوان الخطير ؟ ٠٠

والحق أقول لأصدقائى هؤلاء : ان المفهوم القوى والمتزن والمحدد لهذا العنوان هو الذى جعلنى أوثر اختياره ٠٠ ولقد أفاء علينا اختبارنا الوثيق للمشكلة التى نعالجها ، بصيرة بالمصير الذى يسوقنا اليه تجاهلنا القيم الصحيحة للحياة ، واذعاننا الضارى للغو الخرافة وضغط التقاليد ٠٠ وهو مصير أخطر من الطوفان !! ٠٠

ان الطوفان الهادر على الأرض ، والمتبدى أمام العيون ، قد يجد مقاومة تقف سعيه أو تعتاق زحفه ٠٠ أما ذلك السيل الذى يجرى فى جوف الأرض خلسة ٠٠ ذلك الذى لاتقع عليه العين ، ومن ثم فلا تتقى أخطاره ، فهو الذى يحمل نعى كل مكان يمر به ٠٠

ألا وان رذائل هذا المجتمع لمن ذلك الطراز الوبيل · انهامن حيث الكم ومن حيث النوع ، لاتكاد تجذب الانتباه فضلا عن أن تهيب بأرادة المقاومة ، انها تسبح وتسرح فى استخفاء كالسيول الجوفية · تأكل مناعة الأرض من قواعدها ، وتمتص ثباتها ورسوخها ، حتى اذا جاء ميقاتها المعلوم ، ألفيتها تميد على حين غفلة ·· فتترنح وتهوى ، وتنادى الذين فوقها فيلبون النداء ، نداء الاغوار التى خسفت ، ثم أغرقت ثم بادت ··

ان هذا الكتاب يجىء فى أوانه ليأخذ انتباه قومه الى قضية جليلة ··

ولقد مر بكم منذ عام (هذا ·· أو الطوفان) واليوم يأتيكم تتمة البحث فى هذا الكتاب ··

ولست أنصح أحدا بأن يقرأ أحدهما ويدع الآخر ، فان فعل فسيظل ادراكه لوجهة النظر المبسوطة فى كلا الكتابين ادراكا مبتورا ··

وأيضا ، لا أنصح أحدا بأن يتواثب بين الصفحات ، ويختطف الكلمات اختطاف العجلان ··

وكما قلت لكم فى مقدمة الجزء الاول ، أقول لكم هنا أيضا ·· اقرءوه كله ، أو اتركوه كله · ومن لم يفعل ، فلست أحمل معه مسئولية الاحكام المبتسرة التى تجهضها القراءة الناقصة ·

لقد عنى الكتاب السالف ، بأرجاع الانسان الى مكانه ، داعيا الى فحص سلوكه بوصفه انسانا ، لا الها ·· وناصحا بأن نعتمد فى تعلية نزعاته وتقويم شخصيته على طبيعته الحرة ، لا المصفدة ، وكاشفا عن المضلات الرهيبة التى أحالت حياتنا الى فتنة غامضة ، ومضطرب خافت الحيلة ، مزعج الحوار ··

وهنا نستأنف رحلتنا ، ونترك على هذه الصفحات كلمتنا

الوثقى فيما ينبغي أن نلتزمه من نهج اذا أردنا أن نمكن الآخرين من فضيلة نامية وسلوك قويم ونرجو أن تفرغ لمساته الواقعية نورا وهدى على المشكلة التى يعالجها ، والتى يناط بها مصير الناس حيث يوجدون ..

وماذا هناك أيضا لأقوله لكم قبل أن أغادر هذه المقدمة ؟..
عبارة أخيرة ، فخذوها مشكورين ..

ان هذا البحث لايزعم أنه قطف نجوم السماء .. ولكنه يرجو بما أبلى من جهد ، وما استورى من بينة أن يكون مشعلا فوق الظلمات ، فمن كان معه كلمة تزيد المشعل ضوءا فليقلها ولو كانت مضادة ومغايرة .. ومن كان معه مشعل آخر فليرفعه فوق الظلمة ..

فلست أعرف سبيلا أهدى من هذه لنعرف كل الحقيقة وكل البهتان ..

الديمقراطية ، ضرورة خلقية

« الحكومة المستبدة ،
اخطر على روح الانسان
من الوحش المفترس » ..
- كنفوشيوس -

في هذا الفصل :

بلاد السمع والطاعة :

فى هذه الرقعة من الارض ـ مصر وما حولها ـ تستلقى شعوب مرت بها مواكب الغزاة والفاتحين ، ثم ولت عنها تاركة فيها بصمات أصابعها ، وآثار أقدامها ٠٠ أو قل : آثار سياطها٠

وكما أنك قادر اذا اهتديت الى مفتاح الدار أن تفض مغاليقها، وتجوس خلالها ، وتكتشف محتوياتها ، فكذلك الشعب ـ أى شعب ـ تستطيع اذا اهتديت الى مفتاح شخصيته أن تفض مغاليق حياته ، وتبلو أخباره ، وتستبطن أسراره وبعبارة واحدة، تستطيع أن تكتشف هذا الشعب ٠٠

أمن اليسير على كاتب بالغا مابلغ من الفطنة ، وماجمع من البينات أن يحقق وحده الغاية ، ويجد المفتاح ؟٠٠

أحسب ذلك ممكنا لك ولغيرك ، اذا كنت من الذين أوتوا موهبة الأخلاص العقلى ٠٠ الذين يمضون مع الحقيقة الى حيث تقودهم دون تردد ، ثم يعلنونها للناس فى غير تهيب ٠٠ وبعدئذ يتحتم عليك أن تتجه شطر الشعب الذى تزمع استكناه حقيقته وتبلوه كجماعة ٠ ثم تحسن اختيار خليط من نماذجه بحيث تمثل هذه النماذج الى حد ممكن ، جميع خصائص الشعب ، ورواسب شخصيته ، وتحاول جاهدا أن تلمس الصخرة التى فى القاع ، وتسبر الأغوار الموغلة فى البعد ، وتقرأ التاريخ لتبصر السمات الحقة لخصائل الجماعة وسلوكها ٠٠

ولو أننا فعلنا ذلك بالنسبة لبلادنا وأمتنا ٠٠

لو أننا حاولنا رؤية القاع ، واكتشاف المفتاح الذى يفض لنا مغاليق شخصيتنا كجماعة وكأمة ، لوجدناه يتلخص فى كلمتين: « السمع والطاعة » ٠٠

فاذا ماسئلت ، من أى بلاد الله أنت ؟ فلا تجهد قريحتك فى التذكر ٠ وأجب من فورك :

ـ « محسوبكم » من بلاد السمع والطاعة !! ٠٠

فالسمع والطاعة هما القدر الذى يتعبدنا ويصوغ كل تصرفاتنا ، نتيجة لما جثم علينا من جهل واستعمار وفاقة ..

ولا يزال سلطان الكلمة المنحدرة من أعلى متفوقا على كل سلطان ، وفى غمرة اذعاننا لها ، وانبهارنا بها نتخلى فى غيبوبة ممتعة عن زمام أنفسنا وعن كل ما امتلكه الانسان عبر تطوره المديد من عزم ، ورشد ، واختيار ..

وقبل أن استرسل معكم فى هذا الحديث دعونى أتل عليكم نبأ مصور « برومتيوس » ..

فقد ذكروا أن مصورا اغريقيا شهيرا اتخذ أحد عبدانه نموذجا حيا ليصور « برومتيوس » الاله اليونانى الذى عذبه « زيس » كبير الآلهة .. وأراد الفنان العبقرى أن يرسم العذاب ، وكأنه يلتقط بعدسة لاقطة مشهده الحقيقى . بل أراد أن يجعل لوحته المرسومة وكأنها المشهد الواقعى ، والحادثة ذاتها صورته المنقولة ، ورسمه المتخيل .. فأنزل بعبده عذابا وبيلا ، ومدد جسده العريان فوق حديد مستعر ، تماما كما تصور الاسطورة فعل كبير الآلهة بغريمه « برومتيوس » ..

واستطار نبأ ذلك العمل الوحشى بين صفوف الشعب فاهتاج ، ونادى بالقصاص . وولت جموعه الزاحفة شطر متحف الفنان القاسى ..

وهناك تحت نوافذه المرتجفة من هول صراخ الحانقين ، زأر الجمهور كالاعصار : الموت للجلاد ..

وفى ثبات العارفين بمشاعر الجماهير تقدم المصور من نافذته وأطل على الناس وبين يديه اللوحة التى رسمها تنتفض حياة ، وفتنة ، وتعبيرا ..

أتدرون ماذا حدث ؟ ..

تحولت الجماهير الغاضبة الباسرة النابحة الى مهرجان تهزه الحماسة والاعجاب والنشوة ..

وهكذا أنسيت القصاص الذى جاءت تدعو له ، والحق الذى كانت تهتف به ، وانطلقت من بين شـــفاهها الغبية صيحات الاعجاب تسبح بحمد الفنان العبقرى الموهوب !! ..

أسمعكم تتساءلون : ماعلاقة هذه الاسطورة بموضوعنا ؟

وأنا مثلكم أتساءل ..

فلنرجىء الاجابة قليلا ، ولنعد لموضوعنا ..

كنا نقول ، ان السمع والطاعة هما السمت المميز لشخصيتنا ، وهما القدر المهيمن على مصايرنا ، والمحدد لنوع سلوكنا . فالغزاة الذين مروا بنا ، وثوى حكمهم المطلق طويلا بيننا ، لم يتركوا لارادتنا حق التمرس والتدريب بل ربطوها بمشيئتهم ، وطوعوها لكلمتهم ، وساموها كل ماكان فى جعبتهم من خسف وهوان :

وكأى من دخيل محتل ، وحاكم مذل جعل من ظهور قومنا مرعى لسياطه المسعورة ، وكان كلما تنادوا ليدافعوا بغيه يتقدم اليهم وبين يديه لوحة تفتنهم وتنسيهم ..

لوحة تتمثل فى هرم باذخ يشيده ويبنيه ، أو طريق لاحب يمهده ويرسيه ، أو مصارف يشقها ، أو ظفر رخيص فى حرب

عدوانية يشنها . كما حدث فعلا من سيل الغزاة ، والفاتحين الذين أجهزت ثورتنا الباسلة على بقاياهم ..

أعرفتم العلاقة — اذن — بين أسطورة المصور وبين مأساتنا ؟

ذات يوم أعلن حاكم مجنون أنه صار للناس الهـــا ، فذهب آلاف من أبنائنا الطيبين الى قصره يعلنـــون أنهم سـمعوا ، وأطاعوا ..

ولقد اختفى من على الأرض الحكام الذين يدعون الألوهية ولكن لايزال هناك حكام يدعون العصمة ، ويشعرون بها فى ذات أنفسهم شعورا ينسيهم كل ما للآخرين من حقوق ، ومن ثم فهم يطالبون الناس بأذعان مطلق لأهوائهم ومايفعلون ..

ولقد ران على الوعى الناشىء لجماهيرنا هذا الطراز من الحكام، وران عليه ماهو أثقل وطأة وأشد بطشا ٠٠ التعاليم والتقاليد ٠٠ وهكذا خلقت الأحداث العارمة الدخيلة على حياته٠٠ خلقت غددا في شخصيته تفرز الاذعان والاستسلام ٠٠ تفرز السمع والطاعة !! ٠٠

وانا لنظلم أنفسنا ، وننقص التاريخ من أطرافه ، اذا زعمنا أننا وحيدون فى هذا المجال ٠٠

فالمجتمع الانسانى كله سار عبر هذه الطريق ، وكان السمع والطاعة شرعته ومنهاجه ٠٠ ولعل اختراع الانسان للديمقراطية لم يكن الا ثمرة حاجته الملحة للتخلص من هذه المهانة وذاك العجز ، وفى سبيل استنقاذ وجوده وتأمين مستقبله ابتدع النظام الذى يرد للجماعة اعتبارها ويرفع عنها آصار السمع والطاعة ، ويبعث فى ضمير المجتمع احساسه بالكرامة ذلك الاحساس الذى تنبثق منه كل فضائل الانسان ومزاياه ٠

كل مجتمع انسانى مر اذن بهذا الدور ، دور السخرة المضروبة عليه من أناس أذكياء كانوا ينزلون أوامرهم ويبثون زواجرهم فى كوكبة من النذر والتهاويل،فيتلقاها العبيدسجدا وهم صاغرون ! ٠٠

وبمقدار الآثار الباقية فى معاصم الأمم والجماعات من قيود ذلك الوضع الدابر يتحدد نصيب كل من الحضارة والارتقاء ٠٠

فعلى ظهر الأرض اليوم أمم انمحى من على معاصمها كل أثر للقيد الرجيم ٠٠

ألا فاعلم عندما تسمع كلمات التقدم ، والحياة ، والارتقاء أنها نعوت تلك الأمم وصفاتها ٠٠

وثمة أمم أخرى لاتزال تستيقظ من نومها كل يوم على صلصلة القيود تملأ أرجلها وأيديها ٠٠ قيود تقاليدها الضارية ٠٠

تلك هى بلاد النمو البطىء ، والسـلوك الردىء ، والرذيلة المترعرعة ، مهما يرتفع فى سمائها من مآذن ، ومهما تقرع فى أرجائها أجراس الكنائس ، ومهما يتبختر على أرضها من أناس يلوحون بيد الفناء ويقولون : ياعباد الله .. اتقوا الله ! ..

ولقد يبدو لنا أن نسأل : لماذا يحول السـمع والطاعة بين الناس والخلق القويم ؟ ..

ولكن قبل هذا ، ماذا نعنى بالسمع والطاعة ، وما الظروف التى ألزمتنا هذا الاذعان ؟ ..

اننا نعنى بالسمع والطاعة هنا ، غلبة غريزة القطيع عـلى صوت الالهام والعقل ..

نعنى تلك الحالة الانسلاخية ، التى ينسلخ المجتمع فيها عن ارادته ومشيئته ، بل عن ذاته ..

ونعنى بالتالى الانصياع المطلق لأمور لم يساهم فى ابرامها، وخطط لم يشترك فى وضعها ..

أما الظروف التى أركستنا فى غياهبهما فكثيرة ، ومن المحتوم أن نكون على وعى بها ونحن نتدارس مشكلة السلوك والخلق. بيد أننا نستطيع بصورة مبدئية أن نلخصها فى كلمة واحـدة « الطغيان » ..

طغيان الحكومة ..

وطغيان التقاليد ..

وطغيان المجتمع على نفسه كانعكاس محتوم لطغيان الحكم ، وطغيان العادة ..

ومن وراء هذه جميعا كانت التعاليم المتلفعـة بأزياء الدين وما هى من الدين فى شىء تزكى الطغيان وتعبد له القلوب ، والعقول !! ..

فيوم كان هذا المجتمع مسيحيا ، كانت تقرع فى فجاجه هذه التعاليم ..

« أيها العبيد ، فلتخضعوا لأسيادكم والخوف يملأ نفوسكم .. ولا يكونن هذاالخضوع للخيرين منهم فحسب ، بل وللشريرين أيضا » !! ..

« أيها العبيد ، أطيعوا اسادتكم فى خوف ورعدة » ! ..

« على جميع من يخضعون لنير الرق أن يعتبروا أسيادهم جديرين بكل تبجيل » ! ..

وعندما نزل الاسلام بوادينا ، عاش فى الأرض أناس تحدثوا باسمه وقالوا للناس ان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول :

« استمع لأميرك وأطعه ، وان جلد ظهرك وأخذ مالك » ! ..
« كن عبد الله المغلوب ، ولا تكن عبد الله الغالب » !! ..
« الزموا طاعة أمرائكم وان ظلموا .. فأن الله مبتليكم بهم» !
ولما أتخم مجتمعنا من هذا العلف الصالح حتى بشم ..
واذ صار الاذعان العميق جزءا من كيانه شرع يفلسف حياته على هذا النمط التعس ..
ولعلك الآن ، وأنت تطالع هذا الكتاب ، تسمع صوت الرجل العابر تحت نافذتك يقول لزميله :
ـ وأنا مالى .. اللى يجوز أمى .. أقول له ياعمى !! ..

ان هذا المثل ونظائره الكثيرة تمثل الحقيقة الحية فى وجودنا الميت .. تصور الحياة المؤتفكة التى رزأنا بها الأذعان الشمل والطاعة العمياء ..

أترانا بعد فى حاجة لادراك الخطر الذى يتهدد أخلاق الناس عندما يسودهم الاذعان الغبى ، والسمع الذاهل ؟ ..

ان بلاد السمع والطاعة تعنى تلك الحظائر التى يعيش أهلها تحت مستوى حقوق الانسان ..

وحقوق الانسان لم تعد عبارة انشائيـــة ، ولا اصطلاحا

وومانتيكيا .. بل حقيقة تدل على ذات الانسان ، وليس على مجرد حقوقه . بمعنى أن الانسان يفقد ذاته اذا فقدها ..

وعندما يفقد الانسان حريته ، يفقد سيادته على نفسه ، وحين يفقد هذه السيادة يحرم الوسيلة المجدية للاكتمال الخلقى ، ويمسى كل ايحاء له بالفضيلة والتسامى مجرد رطانة أعجمية لايناله منها سوى التلمظ بها ، كما يفعل أى حيوان مجتر بملء فمه من علف لذيذ !! ..

ولقد يكون للناس عجبا أن تربط الفضيلة بالحرية على هذا النحو الذى يبصرون ..

ألا فليعلموا أن السلوك الفاضل والسوى للانسان وللجماعة لم يرتبط ولن يرتبط بشىء أوثق من رباطه بالحرية ..

ولئن كان الرائد السياسى يتخذ شعاره وشعار قومه «الحرية .. أو الموت » ..

فان الرائد الأخلاقى لايكون الا صادقا حين يجعل شعاره « الحرية ، أو الزلل » ..

من أجل هذا نبدأ حديثنا بنذير نزجيه لبلاد السمع والطاعة هنا وفيما حولنا من أمم وجماعات ، لنعلم ، ويعلموا أن الفضيلة والطغيان لايجتمعان ـ طغيان الحكم ، وطغيان التقاليد ، وطغيان التعاليم ..

وكل الجهود التى تبذل لأخذ الناس الى مكارم لاخلاق فى ظل التسلط الذى يسلبهم اختيارهم ، والطغيان الذى يعطل ارادتهم فليست أكثر فوزا ، ولا أدنى عبثا من جهود الذى يحرث فى البحر ، ويزرع فى المحيط !! ..

أجل ، وان أول حقيقة راسخة تقدمها لنا تجارب الانسان عبر القرون والأجيال لهى ذى ..

الطغيان مزرعة الرذيلة :

يلعب الطغيان دورا بشعا فى أعدام الحاسة الخلقية لدى الفرد والجماعة ..

ولقد ألف الناس أن يحذروا الطغيان كمقوض للقيم الوطنية، بيد أنهم حين يبلغون من الوعى درجة كافية ، فأنهم يحذرونه كمقوض خلقى كذلك ..

وللطغيان كما ذكرنا مصادر شتى ، فليس هو ـ فيما نعنيه ـ طغيان الحاكم فحسب ، بل طغيان المجتمع ، وطغيان القانون، وطغيان التقاليد . وان كان طغيان الحكم واستبداده يمثل العنوان الضخم لكل هذه الاثافى ..

ماذا يفعل الحاكم الطاغية فى أخلاق الذين يرزءون بحكمه؟.. وأى أثر عارم له فى تشويه الفضيلة الانسانية ، ووقف النمو الخلقى للناس ؟ ..

انه لأمر نافع أن نقرأ القصة التالية :

ذات يوم مر حكيم الصين « كنفوشيوس » ومعه بعض تلامذه بامرأة هلوع ، تنتحب فوق قبر أودعت ثراه عزيزا عليها .
واقترب منها الشيخ الحكيم مواسيا ، وسألها : ماشانك ؟
فأجابته : الوحش ياسيدى .. سلبنى زوجى وأبى !!
منذ يومين خطف أبي والتهمه ، واليوم أدركت زوجى وهو بين أنيابه هالكا مصروعا ! ..

ولفتها نظرة فاحصة من « كنفوشيوس » الذى عاد يسألها :
ـ وماذا يلجئك للحياة فى هذا الخلاء الموحش ، ولماذا لاترحلين عن ذلك الوحش الضارى ؟ ..
فأجابته قائلة :

ـ لأنه ياسيدى لاتوجد هنا حكومة مستبدة !! .. فتهلل وجه كنفوشيوس ، حتى لكأن الشمس تشرق من خلاله ..

وابتسم ابتسامة تعبر عن فرحه بهذه الحكمة الجليلة والتفت الى تلامذته وقال :

ـ أسمعتم يا أبنائى ؟ .. ان الحكومة المستبدة أخطر على روح الانسان من الوحش المفترس ! ..

أجل ، ياكنفوشيوس .. ان الأمر لكذلك ، وان الطغيان ليسلب من الروح روحها ، وطهرها ، وبسالتها ..

انه يشوه الضمير ، ويعطل الارادة ، ويبطل القدوة ..

واذا الناس فقدوا هذه الدواعى والوسائل ، فقد أزاور عنهم الهدى وصار احتمال مقام الفضيلة فى نفوسهم ، كاحتمال مقام الشهد فى لعاب الثعابين ! ..

والمجتمع الذى يسير خافض الجناح مسلوب المشيئة ميمما وجهه شطر دواعى فنائه واضمحلاله . لايزيده الحديث عن الفضيلة الا افلاسا منها ..

ونحن كأفراد نتأثر بروح الجماعة التى نعيش فيها ، ونحيا داخل نطاقها . وكلما كانت الجماعة صاعدة متفوقة ، يكون أفرادها كذلك .. وان نزعاتنا كأفراد لتذوب فى سيل العرم الهادر من نزعات المجتمع وغرائزه .. وهذا يقتضى أن نوفر للجماعة فى شخصيتها العامة وسائل الترقى الخلقى ، اذا أردنا لأفرادها مثل هذا الارتقاء .. لأنها أى الجماعة المنبع الذى يصب فى الأشخاص والأفراد ..

وللجماعة أخلاق وفضائل جماعية . اذا تكونت ورسخت تصير بمثابة الرصيد الذى يأخذ منه الأفراد وينفقون . وهو رصيد لايفنى ..

فمثلا ـ عندما تهيىء الظروف لمجتمع ما أن تهيمن على أعماله فضيلة الاتقان ، اتقان العمل ، أى عمل ..

فأن عدوى هذه الفضيلة تنتشر حتما من روح المجتمع الى

أفراده جميعا ، حتى لتكاد حياة غير المتقن فى هذه الجماعة تكون فشلا ماحقا ، ان لم تكن أمرا مستحيلا ..

ومن العسير على انسان أن يحرز ارادة التفوق والاكتمال الخلقى فى مجتمع لايحترم هذه الارادة فضلا من السعي لاحرازها. كما أنه من العسير عليك أن تكون قنوعا فى جماعة جشعة مسعورة ..

فلكى نزود الأفراد بامكانيات الفضيلة ، علينا أن نصل .. الوشائج المقطوعة بين روح الجماعة ومقومات الفضيلة ..

ولقد قلنا : ان على رأس هذه المقومات ثلاثا ، الضمير . والارادة . والقدوة ..

ففى أى مناخ يترعرع هذا الثالوث الرافع ؟ ..

ما البيئة الصالحة لأنماء الضمير ، وارباء الارادة ، وتألق القدوة ؟ ..

الحق أن المرأة التى أثارت اعجاب « كنفشيوس» لتثير اعجابنا أيضا ..

ولقد عبرت فى صدق وفطنة عن حاجتنا المحتومة لحرية لايخنقها طغيان ، وحياة لاتصدقها السقوف عن الارتفاع .. اذا أردنا أن نحلق مع مواهب الله المعطاة لنا الى سماء القدرة البشرية ، والكمال الميسور ، واذا أردنا أن نحوز الوسائل المفضية لهذه الغاية الفاضلة ، ألا وهى ـ الضمير الناجز، والارادة المتفوقة ، والقدوة الهادية ..

وسنبصر الآن ، كيف يصعب استعلاء الضمير ، والارادة ، والقدوة فى أمة يحكمها طاغية .. ولكن بعد أن نبصر أولا الارتباط الوثيق ، والتآزر القائم بين هذه الثلاثة والسلوك السوى القويم ..

عندما يريد الناس أن ينعتوا واحدا منهم ردىء السلوك ..

يقولون بأسلوب عفوى بدهي : لا ضمير له ·· أو يقولون : ضعيف الارادة ·· أو يقولون : فلان ؟ ·· انه تافه ··

وهم بهذا المنطق البدهي يلتقون مع الكشف العلمى لقاء سعيدا ·· فالعلم ببحوثه وتجاربه ·· بل والدين بفراسته والهامه يدعمان مركز الضمير والارادة والقدوة فى مجال الاخلاق كطاقة حاثة جاذبة ·· فلنتعرف الى هذه الطاقة اذن مبتدئين بالضمير ، ماهو ! ··

انه بعبارة بعيدة عن التعقيد العلمى الاحتجاج الذى يصلصل داخل ذواتنا عندما يستهوينا الشر وتقودنا الرذيلة · ولذا فحاجة الشرير الى الضمير ترجح حاجة الخير ·· اذ الثانى قد راض نفسه فاستقامت على الطريق ولم يعد فى تصرفاته مايستحق الاحتجاج والنذير ، وهما وظيفة الضمير ومظهر نشاطه ··

وعلماء الأخلاق يفسرون الضمير هكذا ·· فواحد منهم وهو العالم الجليل « هادفيلد » يقول : ـ « الضمير لسان الخير المقموع عندما يكون الشر هو المسيطر وهو السائد ·· ونحن لايمكن أن نتعرض لوخز الضمير الا حين يسود الشر ويغلب » ·

اذن فحاجة الفرد الذى يغلب شره خيره الى الضمير قوية وعارمة ، وأيضا تشتد حاجة المجتمع الشرير الى ضمير جماعى يعظه ويزجره ويذكره ··

والضمير ليس جزءا من تركيبنا العضوى ·· ليس قطعة لحم ومضغة دم ·· بل هو وظيفة ، كالغواية سواء بسواء ·· وهو بهذه المثابة يحيا بالمران المستمر فاذا أخلد الى السكون تحلل ومات ··

أتعلمون أن « نيرون » عندما ولى الملك بكى بكاء مرا اذ جاءوه بأمر اعدام أحد الذين يستحقون الاعدام كي يمهره بتوقيعه·· أجل ، بكى وصاح : ليتنى ماتعلمت الكتابة !! ··

ولكن هذا الضمير الذى تترقرق فيه الحياة والورع لم يلبث حين شل عن العمل أن تيبس وتحجر ، وتحول الى قطعة من رخام ·· ولم يعدله وجود عندما أحرق « نيرون » روما وسفك دم أمه وأرهق الأرض بظلمه وفساده ··

قلنا ان الضمير ليس عضوا فى أجسامنا ، ولكنه وظيفة ·· وقلنا انه صوت الخير المقموع حين يسيطر الشر ويسود ·· أى أنه نقد واحتجاج ونذير ··

وقلنا انه من العسير على الأفراد أن يظفروا بفضائل ليس لها فى روح الجماعة وجود ·· فاذا كان الضمير موضع حفاوة المجتمع واجلاله انتشر هذا الشعور الكريم بين أفراده ،فيصغون لصوت الضمير العام الذى يعمل فى كيان الجماعة ويبثها رؤاه · وبالتالى تستيقظ ضمائر الأفراد وتهب للعمل الشريف فى سبيل الحق والخير والجمال ··

فكيف يتأتى للضمير اذن وهو احتجاج ونقد أن ينمو ويعمل فى مجتمع يحظر فيه الاحتجاج ويحرم النقد ؟ ··

أجل ، ان الطغيان مزرعة الرذيلة ، فهو بحجره على النقد ووصايته على الحرية يلاشى قوى الاحتجاج ويخرسها وهكذا يعطل وظيفة الضمير وما الضمير سوى جرس الانذار الذى لايكف عن القرع موقظا اتجاهاتنا الخيرة النبيلة ··

ونغادر الضمير الى الارادة ·· فالضمير الذى يهيب بنا لنتقدم اذا كان الذى أمامنا خيرا ، ونحجم اذا يكون شرا ، تذهب محاولاته سدى اذا لم يجد ارادة تنتظره فتلقفه وتجعل من توجيهه ونذارته خطة ماضية ، وسلوكا نافذا ··

والارادة كالضمير ، ليست جزءا من جسدنا الحى ينمو بالغذاء ويعيش بالدم ·· بل هى وظيفة تنمو بالمران وتعيش بالعمل · يقول « هادفيلد » ـ « الارادة وظيفة الذات ، والذات لاتحقق تماسكها ووجودها الا مادامت تعمل ، وهى تتماسك ويلتحم

بعضها ببعض حين يكون لها نشاط عام ، وغرض مشترك ·· مثل الكائنات الحية تماما ·· فاذا توقف انسان عن استخدام ارادته ، تأخذ ذاته فى الانحلال فورا ، وتساقط كسفا على الفور » ··

اذن فالارادة وظيفة الذات ·· وهى تنمو وتبلغ رشدها بالمران والتدريب ·· ولو تصورنا انسانا يعيش فى هزيمة دائمة أمام رغباته الشريرة ، واندفاعاته الرديئة ، دون أن يصمد فى وجهها مرة وثلاثا وعشر مرات حتى تتكون له ارادة شامخة ·· يكون فى استطاعتنا بعدئذ أن نتصور المجتمع الانهزامى الذى يمثل أمام قوى الطغيان نفس الدور ·· والذى يمزق الخنوع والاذعان ارادته شر ممزق ··

ان مجتمعا كهذا تغص ذاكرته مع الأيام بذكريات اخفاقه وفشله فتتلاشى ذاته ، وتتحلل ارادته ، وبسرعة تنتقل العدوى منه الى أفراده فيتحولون الى حطام تعس ·· حطام يطفو فوق العباب !! · ·

ولا يقف الخطر عند ثلم الارادة وتعطيلها ·· فالطبيعة الانسانية لاتعرف البطالة ، وهى حين تجد الطريق موصدا أمام وظيفة خيرة من وظائفها ، لاتلقى عصاها وتستريح ، بل تتحول من فورها الى النقيض فتقوض ، وتعيث ، وتنتقم ··

ان الشعوب المريدة هى التى تأخذ الفضيلة بكلتا يديها ·· وهى تلك التى تحيا عزيزة لا ذليلة ، آمرة لا مأمورة ، مطاعة بقدر ماهى مطيعة ··

وانا لنقارف خطأ كبيرا حين نخال النضال لاحراز الارادة عملا فرديا محضا ، بمعنى أن الفرد الذى يلتزم نهجا معينا يسوق نفسه اليه ، ويلزمها به لايلبث أن تتكون له ارادة قوية تعصمه وتصونه ··

أجل ·· ان هذا صحيح اذا كنا نريد أفرادا يبرزون فى غرض

من الأغراض ٠٠ كهذه العشرات من الناس الذين يتفوقون على الملايين فى الرياضة والفن بيد أن الأمر مختلف جدا بالنسبة للأخلاق ٠٠

فالأمة لايضيرها ، ولا يعطل نموها ويحبس عنها مستقبلها أن يبرز من بين ملايينها العديدة عشرة فقط يتفوقون فى المصارعة أو الملاكمة ، أو السباحة ٠٠ ولكن يضيرها ويعطل نموها أن يتفوق عشرة أو عشرون أو مائة تفوقا أخلاقيا يرفعهم الى السماء بما بذلوه من رياضات قاسية بينما الجماهير كلها هناك تتدحرج على أرض الشر وتتمضخ بوحل الرذيلة ! ٠٠

فاذا كنا نريد سلوكا فاضلا للكافة ، فعلينا ادراك ظاهرة هامة ، هى أن الناس يتصرفون دائما أو غالبا وفق القواعد والقيم التى تسود بيئتهم ومجتمعهم ، ويكاد يكون من المستحيل أن تجد ناسا أعزة كراما فى مجتمع يرزح تحت وطأة المهانة والذل ٠٠ وأيضا ، يكاد يكون مستحيلا وجود جمهور يتمتع أفراده بأرادة حاثة حازمة اذا كان هذا الجمهور يعيش داخل اطار بشع من الحكم المطلق ، أو القوانين المطلقة ، أو التقاليد المطلقة ، وكما أن دخل الفرد وثيق الارتباط بالدخل القومى يرتفع بارتفاعه ويهبط بهبوطه ، كذلك دخل الفرد من الاخلاق وحظه من الفضيلة مرتبط بدخل الجماعة وحظها ٠٠ وكلما خلت روح الجماعة من مناجم الخير وخاماته ، كان حظ الأفراد من الافلاس الخلقى عظيما ٠٠

ونحن نعلم أن الطغيان تحد وقح لارادة الجماعة ٠٠ وهو حين يكون طغيانا ظافرا يسبب لهذه الارادة متاعب قاسية قد تفضى بها الى الجموح الخطير ، أو تنزل بها الى الهوة الفاغرة ٠٠ وكلاهما تعطيل لأهم مقومات الفضيلة فى الأمة ٠٠ ألا وهى الارادة التى تحقق جمال الذات وخيرها وتفوقها ٠٠

ونغادر الارادة الى القدوة ، فنجد الارتباط بين الاثنين وطيدا ،

والعروة بينهما وثيقة ، ذلك أن الارادة لاتهب للعمل وحدها ، بل لابد لها من باعث ومنبه .. لابد لها من مثل أعلى يناديها ، وقدوة تتعلق بها وتحاكيها ..

أجل ، فكما تنشط قوة الابصار بواسطة منبه خاص هى موجات الأثير الموصلة للضوء ، وكما تنشط غريزة الهرب بواسطة منبه خاص هو وقوع خطر .. كذلك الارادة لاتنشط الا بواسطة منبه ومثير هو المثل والقدوة ..

فالقدوة تجمع شمل حياتنا المبعثرة الحائرة ، وتنظمها حول القيمة العليا التى تمثلها ، وتمنحنا فوق هذا تركيزا قويا لبواعثنا وأهدافنا ، ولقد كان « أمرسون » صادقا وحصيفا حين جعل وصيته الرابعة لمن يريد أن يكون رجلا حقا هذه العبارة المضيئة :

- « تذكر غيرك .. فالعواطف معدية » ! ..

أجل ، اننا نذوق طعم العظمة عندما نتذكر رجلا عظيما ، ونعيش ولو لحظات قصار داخل حياته البهيجة ، وسجاياه الدافئة المشرقة ..

وهذه النفوس الشامخة التى حققت أقصى درجات الكمال الميسور لبنى الانسان ..

هذه التى سجلت ارتفاعا قياسيا فى الشجاعة والتسامح والبذل والقوة والتواضع والذكاء والاخلاص ..

هؤلاء الأفذاذ الذين نراهم ، أو قل نرى أحدهم ، فنحب الانسانية كلها ونجلها لأنها أنجبتهم ..

هؤلاء الذى تتمثل فيهم القدوة الصالحة ، هل يبيح الطغيان لهم أن يظهروا ويشرقوا ويضيئوا ؟ ..

نحن نعلم أن بعض هؤلاء قد يجىء ظهوره فى قومه وفى الناس بمثابة رد فعل للطغيان والقهر . ولكن علينا أن نذكر أن الطغيان الى جانب هذا لايمكن القدوة من بلوغ أوجها العظيم وانتشارها الرحيب ..

ان انكار « بطرس » للمسيح ، ربما خافت من جلال قدوته ولو قليلا .. ورجوع « جاليليو » عن القول بدوران الأرض وكريتها تحت وطأة التعذيب الماحق قد ضاءل من تأثرنا بعظمته .. والمال الذى ألهى به الطغيان رجلا مثل « فولتير » قد أخذ منه كقدوة ماكان وكنا معه فى حاجة الى بقائه وتفوقه ، وان ماتركه العظماء الانسانيون من أثر وما طبعوا به البشرية من نشاطهم رغم الظروف التى كانت تعمل دائبة لعرقلة عظمتهم، وتقليص قدوتهم - ليصور لنا المغانم الفذة المضاعفة التى كنا سننالها منهم لو تركهم الطغيان ينمون ، وينتشرون ، ولو لم يكن يتعقب عبقرياتهم الخلاقة بالأذى والتشويه ..

حيث يوجد الطغيان اذن يكون حظ الناس من القدوة الملهمة الحافزة ضئيلا .. فالطاغية بوسائله الكثيرة يحاول مسخ العظمة الناشئة التى ستكون قدوة سامقة ..

فهو يرشو بالمال ، ويضرب بالسوط ، فاذا خاب سعيه وفل سلاحه ، أطلق الأكاذيب فى أعقاب القدوة ليشوه بهاءها ، ويطمس معالم عظمتها .. وحين تراجع سيل الأراجيف التى انطلقت وراء الأنبياء ، والفلاسفة والمصلحين ، ورواد الفكر ، تجد ظاهرة تثير الضحك وتدعو للفجيعة ..

ولا يقف بأس الطاغية ومكره السىء عند هذا الحد ..

بل انه يفعل مايفعله الاستعمار ، فيصطنع قدوة زائفة يقرع لها الطبول والأجراس حتى يلقى فى روع الناس أنها النور الذى هبط اليهم من ملكوت السماء ، وعليهم أن يسيروا الى حيث تقودهم وتهديهم ..

والويل للجماعات التى ترتفع فى سمائها مثل [illegible]يا زائفة ، وزائغة ، وباطلة ، انها الفجر الكاذب الذى يضل العابدين عن فجرهم الصادق المرقوب .. فالطاغية لاينبغى له أن يصطنع القدوة الفاضلة ، وحتى لوشاء ذلك لايستطيع سبيلا ، فيولى وجهه شطر الغوغاء فى أخلاقهم ، والغوغاء فى تفكيرهم ..

أولئك الذين يسمون النفاق أدبا ، والخيانة دهاء ، والغش نقاذا والسرقة تضحية ..

يعمد الطاغية الى هؤلاء ، فيصطنع منهم حاشيته ، ويصطنع القدوة التى يفتن بها الجماهير التى يبهرها طلاء الصنم ويشجيها خواره ، فتضيع الكثير من وقتها ، ومن أمنها وايمانها ، مطوفة حول هذا الغبار الباطل .. وهناك فى أركانها القصية يسير روادها الحقيقيون وحدهم ..

وبعد حين تفيق الجماهير من الغيبوبة التى أوقعها فيها مكر الطاغية ، تفيق كليلة خائرة العقل والقلب والعزم ، وتمضى تبحث عن الشموس فلا تجدها .. لقد ازاورت عنها . وهكذا

نحرم الانتفاع بعظمائنا الرواد وهم أحياء . فاذا ذهبوا ومالت شموسهم للمغيب . ذهبنا نقتات من ذكراهم ..

كان « توم بين » سكيرا عربيدا سافلا أقذر من أن يطهر ، فلما مات صار « شيخ المحررين » و « أعظم مجاهد فى سبيل العقل » و « آية الله الكبرى » الى آخر النعوت الفاضلة والصفات وما قيل عن « توم بين » بعد موته هو الحق وأما الذى نسج حوله وألقى فوق رأسه حيا فقد كان ثمن صموده ضد الطغيان ، وتأليب الناس عليه .. طغيان الحكم الذى كان بعض زعماء الولايات المتحدة يريد فرضه فى ثياب تنكرية ، والذى طعنه طعنة قاتلة فى كتابه « حقوق الانسان » .

وطغيان التقاليد الذى شن « بين » عليه هجوما مدمدما فى كتابه « عصر العقل » .

فمن أجل ذلك ألحف المعوقون لحركة التاريخ فى النيل منه حتى لايؤمن الناس بآرائه ، ويمضون ضدهم وضد مصالحهم تحت لوائه ..

ومحمد عبده وأستاذه الأفغانى ، شنت عليهما اشاعات دنيئة ، أيسرها أنهما كانا فاجرين يجمعان الأموال لمجلة العروة

الوثقى ، ثم ينفقانها على الملذات الرخيصة فى باريس ..
ومحمد عبده بالذات ـ كما سمعت أذناى ـ فى قلب الجامع الأزهر ، مات ولسانه مدلى على صدره ..

قلت يومئذ للرجل الذى يروى هذا ، ولماذا تدلى لسانه هكذا ؟ ..

فأجاب : هذه علامة يفضح الله بها السكارى عند الموت .. ولقد صدقته يومها ، وملأت الجو تعوذا بالله من الشيطان الرجيم !! ..

لاشىء يرسى قواعد الفضيلة فى أمة مثل القدوة المتمثلة فى عظمائها الصامدين .. وأرجو القارىء أن يدرك مفهوم العظمة فى حديثنا .. انها شىء مختلف تمام الاختلاف عن المفهوم الترابى الذى يقصده الناس فى حديثهم العادى ..

فالعظيم الذى نعنيه بكلمة عظيم ، ليس هو صاحب المنصب الرفيع ، أو الجاه العريض ، أو المال الوفير . بل فى حالات كثيرة لايكاد يبلغ هذه الثلاثة من الناس الا الذين يتخلون عن كافة عناصر العظمة الحقيقية ومقوماتها .

نحن نعنى العظمة الصامدة الجليلة التى تتحدى مواضعات عرفها المنحل ، وتتفوق على وصولية البيئة ، ونفعيتها ، وجهلها ، وعجزها ..

ان عظيما واحدا من هذا الطراز يفعل فى أمة ما تفعله عشر جامعات ..

عندما فرغ « ماوتسى تونج » قبل أن يعرف طريقه ، ويختار هدفه عندما فرغ من قراءة كتاب عن « بطرس الاكبر ، ووشنطن ،

ولنكولن وروسو ، وتوم بين » ، قال وعينه تدور على مشاكل بلاده : « ان الصين فى حاجة لمثل هؤلاء العظماء .. ولقد عرفت الطريق الآن » ! ..

أى طريق عرفه ماوتسى من هؤلاء ؟ ٠ ٠

انه طريق الكدح النبيل من أجل التقدم الانسانى الظافر ٠ والقبس الذى مس « تونج » من سيرة أولئك الأفذاذ ، هوالذى رفعه من فرد عادى الى رجل يعكف على تحرير نفسه ٠ ثم على تحرير أمته ٠٠

ومثل آخر لماوتسى نفسه يظهر أثر القدوة العارم فى خلق النماذج الفاضلة والجماعات المؤمنة ٠ فذات يوم وقع أحدجنود جيشه المحارب أسيرا فى يد الجيش الوطنى الذى كانت تقوده حكومة « كاى شيك » كان حطاما داميا ، يرتجف من البرد ويلعق جراحه من الجوع ٠ وشرعوا يستجوبونه ، فسألوه :

ـ هل تعرف ماوتسى تونج ؟ ٠٠

فبدلا من أن يتجاهل وينكر تحت وطأة العذاب الذى يعانيه تهلل وجهه وأشرقت أساريره ، حتى لكأنه وقد سمع كلمة « تونج » قد سمع نداء النجدة وأجابهم قائلا :

ـ « نعم أعرفه ٠٠ هو رجل عظيم البساطة ، عظيم العذوبة اذا تكلم فهمه بسطاء الناس ، وليس عليه الا أن يدعونا فنسير وراءه الى أى مكان نريد !! ٠٠

« انه دائم الاهتمام بالآخرين ، بينما لايهتم بنفسه أبدا ٠

« انه ينام معنا على الأرض دائما أثناء الحملات ، ويأكل من طعامنا نحن الجنود ، ويعطينا مايهدى اليه من ثياب وأحذية ٠ وفى آخر معركة خضناها معه رأيته بنفسى منبطحا على الأرض يطلق النار من بندقيته ٠٠

« نعم أعرف ماوتسى تونج ٠٠ انه الرجل الذى أعطانى بعظمة نفسه ، وجليل كفاحه ، وباخلاصه وتواضعه ـ غرضا أعيش من أجله ، وقدوة أسير فى ضيائها ، بعد أن كنت تائها وتافها ٠٠ »

لكن القدوة العظيمة حين تمس الناس تفعل فيهم المعجزات وعندما نصافح قدوة أمينة نتحول فى اللحظة والتو الى مالم نكنه قبل أن نصافحها ونراها ..

ألا ان الطاغية ـ أى طاغية ـ ليعبىء كل مواهبه الشريرة الجارحة فى معركة دائبة وحشية ضد كل عظيم صادق العظمة. وليس يبالى فى سبيل الاستئثار بالأمر وبالسلطة أن يحرم أمته أجل وسائل رقيها المادى والأدبى ، وهى القدوة المتألقة الهادية ..

ولماذا يهتم الطاغية بالقدوة وبالفضيلة ، وهو ـ مهما يبدأ طاهرا وفاضلا ـ لايلبث أن يتحول الى قطب عظيم من أقطاب الضلال والأفك ؟! ..

لنقرأ الآن للراهب الجليل « سافونارولا » يحدثنا عن أخلاق الطاغية ، ويصف نكبته الماحقة على الفضيلة وعلى الأخلاق :

ـ « ان كلمة طاغية معناها : رجل من أكثر الناس شرا .. يعمل على ابتزاز كل شىء لنفسه ، ولا يعطى شيئا للآخرين ،

وهو عدو الله وعدو الناس ..

« والطاغية متكبر جشع محب لشهواته ..

« ولما كانت هذه أسس الرذائل كلها ، فان فيه كل الرذائل التى يمكن أن توجد عند انسان ، وعلى ذلك النحو تصبح كل حواسه ملتوية .. تفسد عيناه بالتطلع الى الفسوق . وتفسد أذناه بسماع التملق ..

« وهو يرشو القضاة ، ويسرق الأرامل والأيتام ، ويظلم الشعب ، ويحابى أولئك الذين يزينون له الاحتيال على الجماعة « ويقتله الشك فيصطنع الجواسيس فى كل مكان ويرغب

فى أن يبدو الجميع أمامه وعلى وجوههم الخجل والعبودية » ..
« ولذا فحيث يوجد طاغية لا يستطيع الناس أن يعملوا ، أو يتكلموا بحرية » ..

- لايزال « سافو نارولا » هو الذى يتكلم ..

« والطاغية يريد أن يحكم غيره بالقوة .. يريدأن يرتفع فوق أقرانه ، وحتى فوق من هم أفضل منه ..

« واذ هو لايستطيع أن يستمر فى مثل تلك الحالة، ولايستطيع أن يحصل على رغباته بغير أموال كثيرة ، فان كل طاغية جشع ولص » ..

« ولما كان غرض الطاغية سيئا ، فان كل مايصدر عنه لابد أن يكون سيئا .. ولذا فهو لايستطيع أن يفكر فى غير السوء ولا يفعل الا سوءا ، وحتى اذا أخطأ ففعل خيرا ، لايفعله لوجه الخير .. بل لينال الشهرة ويكتسب الأنصار ليظل محتفظا بالحالة الشاذة التى هو عليها » ..

ثم يختم الراهب الجليل حديثه عن الطاغية محذرا فيقول :
- « احذرى يافلورنسا أن يظهر فيك طاغية ، فانه سبب كل الآثام التى يرتكبها الشعب » ! ..

اذا كان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن .. واذا كان الناس على دين سادتهم وحكامهم .. فكم يكون الظلام وبيلا اذا كان السلطان الحاكم طاغية ؟! ..

ماذا يمكن أن تلتمس الأمة منه من فضيلة وخير ؟ ..

لاتصدقوا أبدا أن الطاغية يستطيع أن يكون فاضلا ، وحتى لو بدأ كذلك ، بل لو بدأ قديسا لن يلبث حتى يتحول الى شيطان رجيم ..

ولقد صدق « نهرو » حين قال : « السلطة المطلقة ، مفسدة

مطلقة » أجل ، انها مفسدة لا لمنهاج الطاغيـــة فحسب ، بل لروحه وأخلاقه ..

وإذا كان يمكن أن يجتمع الماء واللهب فى اناء واحد ، فعسى أن يمكن اجتماع الفضيلة والطغيان فى فرد ! ..

فالأمر كما يقول الفيلسوف الفرنسى « جويو » فى كتابه « التربية والوراثة » :

ـ « ان الارادة باستعمالها القسوة تنتهى الى اختلال عميق، فهى اذ تعتاد على ألا تلاقى فى الخـــارج أى عائق ، كما يتفق للطغاة المستبدين ، تصبح عاجزة عن مقاومة اندفاعاتها . وعندئذ تتعاقب عليها ميول متناقضة أشد التناقض ويصـيبها عطب حقيقى ، فيرتد الطاغى طفلا ، ويستسـلم لنزوات طائشـة متناقضة . فتكون قدرته العظيمة فى الخارج عجزا حقيقيا فى الداخل » ..

ألم يحدث ذلك التناقض والعطب للدوتشى ، الذى مضى يلقى بزعماء الثوار المسلمين من الطائرات المحلقة فى جو السماء ، ويدك المساجد دكا على آلاف من الساجدين والراكعين .. وفى نفس الوقت منح نفسه لقب « حامى حمى الاسلام » ؟!..

ان أنفاس الساعين لتتقطع اعياء قبل أن يظفروا بطاغيـــة واحد .. واحد فقط ، كان فاضلا وشريفا .

عرفنا اذن ، كيف يحرم المجتمع الخاضع لنير الطغيـــان من مقومات الفضيلة ، وهى ، الضمير ، والارادة ، والقدوة ، فهل هذا هو كل الخسران الذى يلحق بسلوك الأمة ويشوه روحها من جراء الحكم المطلق ؟ ..

لا .. فبفقدان هذا الثالوث أو ضعفه وانهاكه .. تتحلل مناعة الجماعة وترعى فى كيانها كافة الموبقات التى تنجم عن هذا

اللون من الحكم ٠٠ والتى تتعامل معه طردا وعكسا ، فيوجد حيث توجد ، فما هذه الموبقات ، وما خطرها على أخلاق الجماعة ؟ ٠٠

الاشاعة ، هى العادة السرية للمجتمع المضطهد ٠٠

عندما تشتد وطأة الكبت على المجتمع يفعل مثلما يفعل المراهق المكبوت تماما ٠ فكما يتجه الأخير فى سبيل تعويض عجزه وتوكيد ذاته واعلان شغفه بها الى العادة السرية ، حيث يتخذ

منها شاشة سحرية يعرض عليها من مشاهد الواقع المتخيلة ، مايشبع رغبته المريضة المكبلة يفعل ذلك أيضا المجتمع المضطهد المكظوم ، فيتجه شطر عادة سرية يسرب خلالها كبته ، ويهرب

اليها من الواقع المرير الذى بعدت عنه شقته ، وعز عليه مناله ، وهذه العادة السرية للمجتمع المكبوت الذى تسلط عليه طاغية هى : الاشاعة ٠٠

والاشاعة بما تتضمنه من كذب ، ولغو ، وبهتان ، تمثل عرضا لمرض خلقى ٠٠

ألم تر الى مريض يشكو آلاما فى معدته ، أو فى مفاصله بينما يقرر الكشف الطبى الواعى على سلامة المعدة ووثاقه المفاصل ؟

ان العلة الحقيقية لصاحبنا ليست عضوية ٠٠ بل نفسية ولقد تحول الاضطراب الانفعالى الى اضطراب جسمانى فكانت آلام معدته ومفاصله ٠٠

كذلك تشيع فى المجتمع أمراض خلقية ٠٠ لاتكون فى حقيقتها أكثر من اضطراب انفعالى ، وقلق جاثم ، يتسللان فى كيان الجماعة ،فيد مران سكينتها ، ويتبران هداها ٠ ٠

ويربو هذا الاضطراب وذاك القلق كلما أصغى الشعب الى المنطق التسويغى الذى يبرر به الطغيان وجوده دائما ٠ وهو

حاجة الأمة اليه لتربيتها ، وتأهيلها للحرية ٠٠ فبمثل هذا الأفك الباطل ينبعث فى شعور الجماعة احساس نابح بالذنب وبالخطيئة ، وشعور طافح بالدونية والضعة ٠٠

ان هذا القول يحرك الرواسب الدفينة فى المجتمع المستعبد أو الذى طال عليه الأمد يجرجر سلاســـله وأغلاله ، ويوقظ احساسا ضارا يلح عليه بأنه شيء تافه ٠٠ ويرد سعيه الحثيث فى سبيل النمو الصاعد ، يرد هذا السعى المبارك ترابا فى تراب ! ٠٠

وانتزاع الثقة من وجدان الجماعة على هذا النحو ، وارباكها فى قدرتها وفى استعدادها ، يسلبها الأمن الانفعالى ، فتيمم وجهها شطر الاشاعة تنسج منها هيكلا لاحقادها التى تصـير مقدسة ٠ وتسلى نفسها ، بالكذب على نفسها ، وبخداع ذاتها ٠ وتعيش فى أخطبوط معتم من هذه العادة السرية التى تنهش عافية عقلها وعافية عواطفها ، وهى لاتدرى ٠٠

والعجيب أن الطغيان أصلح البيئات والحقول التى يترعرع فيها ميكروب الاشاعة ، مهما يتظاهر الطاغية بمقته للاشاعة وتحديه لها ٠٠ انه يكافح الاشاعة المضادة فحسب ، بينما هو يشد باشاعاته الخاصة أزر حكمه وسلطانه ٠٠

انظروا ٠٠ لقد بلغ عدد الذين حوكموا وسجنوا فى ألمانيا النازية بتهمة « الاشاعات المخربة للريخ » ثلاثمائة فى أعقاب حريق الريخستاج ، عدا الذين سبقوهم والذين لحقوا بهم ٠٠ ومع هذا فقد كان للنازى وزارة خاصة للاشاعات ، ووزير مختص بها هو « جوبلز » ! ٠ ٠

والعجيب أن هذه الاشاعات كادت تخضع أفئدة الناس فى كل مكان لهتلر ، حتى بعد موته وهزيمته ، وبعد اكتشاف الدور

البشع الذى مثله وأداه ٠٠ ولعل احدى الاذاعات الشرقية العربية لاتأخذها العزة بالأثم اذا ضربناها مثلا لهذا الافتتان الساذج الأبله باشاعات جوبلز عن سيدة الراحل هتلر ٠ ففى مساء الثلاثاء الموافق ـ ٨ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ـ قال المذيع معلقا على برنامج خاص عن المانيا « ان هتلر هو ذلك الرجل العظيم الذى تدخلت الدنيا فى مشيئته فأفسدتها » ! ٠٠

والمجتمعات المريضة الواجفة تتسلى كما ذكرنا بالاشاعة ، وتلتمس منها العزاء والأمل ، ومن ثم فهى لاترحب بها فحسب بل وتضيف اليها الكثير الطيب من خزائن غيظها الموهوب ، حتى تكون الاشاعة ضدها ، وضد صوالحها !! ٠٠

والاشاعة تفسد العقل وتلبس الحق بالباطل ، فيضل الناس بها ضلالا بعيدا ٠٠ فمثلا فى تلك الأيام ـ خلال الحرب العالمية الماضية ـ حيث كنا شديدى الحاجة الى دعم قضية الديمقراطية وشحذ الايمان بالنظام النيابى السليم ، لنربح بهذا الايمان المعركة من القصر الذى كان يشاغبنا ويؤذينا ٠٠ فى تلك الايام، حيث كان واجبنا يتمثل فى الاهتداء بمثل أعلى تتجسد فيه الديمقراطية وتتمثل ، ذهبنا نحن مخدرين بالاشاعات النازية، فاتخذنا عدو الديمقراطية وجلادها قدوة واماما ٠٠ « ؟!! »

وانى لأتصور نفسى يومئذ وأنا فتى غض العقل حدث السن، بل وأتصور الذين كانوا أنضج عقلا ، وأكبر سنا ٠ كيف كانوا متيمين بهتلر ٠٠ كنا نجده فى كل شىء ٠٠ فى النسيم الذى نشمه ، فى الموسيقى التى نسمعها ، فى الأحلام التى نراها ٠

وفى صفوف الجماهير الصالحة الورعة : انطلقت كالريح الاشاعات التى تطوعت بها علتنا واضطرابنا ٠٠

والرؤى الصالحة التى رأى فيها خيار الأمة ومؤمنوها ،رأوا

النبى عليه السلام يعانق « هتلر » .. ورأوه أيضا يمسح صدره بيمينه ويسميه « محمد هتلر » !! ..

ان الاشاعة عندما تصير غذاء عاما وعلفا دائما لوجدان الجماعة تفسد فيها ملكة الادراك ، والنفاذ الصادق الى بواطن الأمور وحقائقها ، وهذا هدف أساسى للطاغية – أى طاغية يكون – فتحويل الطاقة الذهنية للجماعة الى لغو وهذر يكفل له البقاء والسلامة ..

وهل نستطيع أن نزرع الفضيلة فى جماعة فسد ادراكها وضاع يقينها ؟ ..

ان مثل هذه الجماعة لاتكاد تسمع وتبصر وتقدر الا من خلال أكاذيب الطغيان واشاعاته .. والطاغية كما رأينا قبلا ، لايمكن أن يكون فاضلا ، وبالتالى لايمكن أن يصدر عنه عمل فاضل . ومن باب أولى أكاذيبه ، لن تكون فاضلة أبدا ؟ ..

ان نبأ « سافوناروالا » يأخذ بحطامنا الى الحقيقة فى هذا الموضوع .. فذلك الراهب الجليل صنع من أجل الحرية والفضيلة مايفتن الألباب .. بث فى روح قومه ولاء دينيا للديمقراطية ، وللعدل ، وللفضيلة . وآمن به الناس كأنه نبى ورسول ، ومع هذا ، فقد تحول الى زنديق ، ومفسد للأخلاق ، ومثير للفتن والخراب ..

هل تحول حقيقة أم بهتانا ؟ ..

بل بهتانا ، فقد كان هناك « بابا » من آل بورجيا بذ جميع فجار زمانه ، أطلق اشاعات الكاذبة فى أعقاب الرجل الفاضل تعاونه فى هذا قوى الاستبداد والشر وضلل القطيع الآدمى فاندفع يهتف بالموت للكافر !! .. لم يكن الكافر الذى يعنونه ، ذلك البابا الذى عاشر بنته معاشرة الزوجات .. بل

كان « سافونارولا » الزاهد العابد الذى علمهم الفضيلةوأحياها فى نفوسهم ..

وتحت المشنقة التى أعدت له ، نظر الى بعض تلامذته وقال : « لم أكن أنتظر أن تتحول المدينة كلها ضدى بهذه السرعة .. اجعلوا الايمان ، والصبر ، والصلاة أسلحتكم » ..

وأصيبت « فلورنسا » بردة خلقية لم يكن منها بد .. ورأى الذين هداهم « سافونارولا » من قبل .. الذين أخذهم من المواخير وموائد القمار الى المسيح والى ملكوت السماء .. رأى هؤلاء ، وكم كانوا كثيرين ، الويل الذى صب على معلمهم وهاديهم ، فشكوا واسترابوا ، ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفرا .. وسرعان ماحملتهم أقدامهم وأنفسهم الى ماضيهم الذى حررهم منه « سافونارولا » وعادت « فلورنسا » من جديد ترقص على أنغام الضلال فى مأتم الفضيلة !! ..

فى الحياة الحرة الطلقة تموت الاشاعات فور ميلادها ، وبذلك يخلو السبيل بين المجتمع وبين الحياة العقلية الرفيعة التىيبصر بها رؤى الجمال والعظمة .. ومثل هذه الحياة العقلية ضرورية ، بل لاشىء يبلغ مبلغها من الحتمية لوجود مجتمع فاضل ذىسلوك سوى رشيد . وهذا ينقلنا الى حلقة هامة من حلقات الحديث .

الانحطاط الخلقى ، ابن شرعى للانحطاط العقلى ..

أتعرفون العبارة الجليلة التى استهلت بها مؤسسة الأمم المتحدة للتربية والثقافة دستورها ؟ ..

ربما يكون من المفيد أن نبدأ بها هذا الجزء من الحديث ..

ـ « تصرح حكومات الدول المشتركة فى هذا الدستور بالنيابة عن شعوبها ، أنه مادامت الحرب تبدأ فى عقول الرجال، فانه ينبغى أن توطد دعائم الدفاع عن السلم فى عقول الرجال أيضا » ..

انظر ! ٠٠ ما دامت الحرب تبدأ فى عقول الرجال ، فدعائم السلام يجب أن توطد فى نفس العقول أيضا ٠٠ وهذا حق ٠٠ ومثله فى الصدق أن نقول :

ـ « مادامت الرذيلة تبدأ فى عقــول الرجال ، فان دعائم الفضيلة يجب أن توطد فى عقول الرجال أيضا »

وهنا يلقانا سؤال :
ـ هل تبدأ الرذيلة فى عقول الناس ؟ ٠٠

وقبل الاجابة على سؤالنا هذا ، يطيب لى أن أتخيل مفارقة طريفة فى ملكوت الله الرحيب ٠٠

أتخيل علماء الأرض وعيونهم على المنظار الشاخص الى الرحاب القصية فى الفضاء ، متطلعة الى المريخ فى تمعن وفحص ، ثم أسمعهم يقولون :

« ليس فى قدرة الأحياء أن يعيشوا على سطح المريخ لأن رطوبته كفيلة بقتلهم ٠٠ ولذا نرجح ـ نحن علماء الأرض ـ أنه كوكب غير مسكون ! ٠٠

وأتخيل علماء المريخ ، فى نفس المشهد تشخص أبصارهم الى كوكبنا ، ويقولون : « ليس فى قدرة الأحياء أن يعيشوا علـى سطح الأرض ، لأن حرها كفيل بأن يقتلهم ، ولذا نرجح ـ نحن علماء المريخ ـ أن الأرض كوكب غير مسكون ! ٠٠

ان مثل هذه التخمينات يتبادلها الأخيـــار والأشرار ٠٠ يتبادلها سكان كوكب الفضيلة ، وسكان كوكب الرذيلة ٠٠

فالأولون يستبعدون أن يكون أصحاب الرذيلة أحياء ، لأن حرها كفيل بقتل أرواحهم ! ٠٠

والآخرون يستبعدون أن يكون أصحاب الفضيلة أحياء ، لأن رطوبتها كفيلة بأن تهرأ وجودهم ! ٠٠

وكلا الفريقين مقبل على هوايته .. شغوف بها ، فمن الذى يدلنا على الفضيلة الصحيحة ، والرذيلة الصحيحة ؟ ..

الحق أننا نحن سكان هذا الشرق العربى أحوج مانكون الى ادراك صحيح وجديد للأخلاق ، فى حاجة الى تحديد واضح لمفاهيم الفضيلة والرذيلة . والخير والشر . فليس هنا شىء التبس فيه الحق بالباطل . وكثر حوله اللغط وقل الفهم الصحيح كما حدث للأخلاق وللسلوك ..

عندما أفرغ « المحضر القاتل » رصاصاته الست فى حياة ضحيته فأرداها ، استدعى من فوره احدى قريباته ، ليستودعها بعض متاعه وآخر كلماته ووصاياه ..

أتدرون ماذا قال لها ؟ .. كلكم يامن طالعتم قصته فى الصحف وقعت أعينكم على وصيته . ولكنى أحسب أن قلة نادرة منكم هى التى وقفت أمام هذه الوصية فى تأمل واعتبار ..

لقد قال ، وهو يعلم أنه ذاهب الى القصاص ، تاركا الحياة والأحياء وراء ظهره المدبر .. قال وهو يعيش فى الساعة التى تقرع له أبواب النهاية .. قال العبارة التى يقولها المدلفون الى الكفن ، فيلخصون بها حياتهم وثقافتهم وكيانهم جميعا .. فماذا كانت العبارة التى لخصت حياة « المحضر » وثقافته وكيانه ؟

انها أصدق سمت ـ فى رأيى ـ للمجتمع الذى نعيش فيه . المجتمع الأبله ، المنافق ، السطحى ..

قال القاتل وقريبته تسأله : هل تريد أن أقول لأهلك شيئا ؟ ..

ـ « نعم ، سلمى على خالتى وأختى ، وقولى لهم أوعوا تبصوا من الشباك » !! ..

احذرى يا أخته أن تنظرى من النافذة ! ..

هذه هى الوصية الخلقية الفاضلة التى يزجيها وهو ذاهب الى ربه شاب أنك الرذيلة وأضناها .. فهو باعترافه ، قارف خيانة بشعة لرجل فى مكانه خاله .. قارف خيـانته مع الأم أمام بنتها ، ثم مع البنت الطفلة أمام أمها .. ثم سفك الدم ، وأزهق الروح ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها .. ثم أطلق خوار الفضيحة فى غير حياء أو أناة ..

ثم ماذا .. لاتنظرى من النافذة يا أخته .. فتلك هى الرذيلة، تلك هى الموبقة ، تلك هى الخطيئة التى لاتطهرها مياه البحار !

مجتمع عفن يفكر تفكيرا عفنا ، ويعيش داخل تقاليد عفنة .. ولماذا هو كذلك ؟ .. الطغيان .. فالطغاة الذين تواكبوا على حياته من قديم الزمان ، وتعاقبوا على أرضه لم يتيحوا لعقله فرصة التبصر والتألق .. بل شحنوه شحنا معتما بخرافاتهم وخداعهم ..

ان هذا القاتل حفيد للرجل الطيب الذى عاصر « السلطان سليمان » وكلنا مثله حفدة أولئك الآباء الذين أصدر فيهم « سليمان المذكور » مرسوما من مادتين ..

الأولى ، تجعل جميع الأرض المزروعة ملكا له . وأصحابها أجراء عاديين وملتزمين لا مالكين ..

والثانية ، تحرم على المرأة أن تخرج فى الطريق العام غير متنقبة . فمن تفعل وتخرج سافرة . تزف فى شوارع المدينة ممتطية حمارا بالمقلوب !! ..

أى أنه يسرق شعبا ، ويغتال أمة .. هذه فضيلة (!)

أما الرذيلة ، فهى أن تسير المرأة وليس على وجهها حجاب(!)

تماما كما فعل « المحضر القاتل » فهو يمرح ويرعى فى أعراض

الناس ، ويقتل فى استخفاف ، ثم يتجشأ وصية كمرسوم السلطان سليمان ، فينهى أخته عن النظر من ٠٠ « الشباك » !

ألم أقل لكم اننا أبناء الذين لفتهم تقاليد الطغاة فى مثل الضباب ؟! ٠ ٠

العقل وحده هو الذى يستطيع أن يعطى مفاهيم صادقة واعية لما هو فاضل ، ولما هو مرذول ٠٠

وحيث يوجد التفكير الحر المتألق ، تستطيع أن تبصر موكب الفضيلة يحتشد ويتجمع ليبدأ فى هذا المكان رحلة الاكتمال الصاعد والسلوك القويم ٠٠ وأما الانحطاط العقلى فهو الأب الشرعى للانحطاط الخلقى ٠٠ هو أبوه وأمه وحاضنته وحامى حماه ٠٠

فلنر الآن كيف هو كذلك ٠٠ ثم لنر أثر الطغيان فى انحطاط العقل وعرقلة نموه ومسعاه ٠٠

فى الكتاب المقدس ٠٠ نلتقى بيسوع يقول :

ـ « ٠٠ وأنا أطلب من الأب ، فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم الى الأبد ٠٠ روح الحق » ٠ ٠

ماهو روح الحق الذى سيمكث معنا الى الأبد ؟ ٠٠

انه العقل ، وليس هناك شىء سواه يستطيع أن يملأ رحاب هذه الآية المقدسة ٠٠

وفى القرآن الكريم ، تبهرنا الآيات الهاتفة بالاستقامة والسعى والتفوق اذ نراها مختومة غالبا يقول الله سبحانه « لعلكم تعقلون » ، « لعلهم يفقهون » ، « لعلهم يعلمون » ٠

ويصور الرسول قيمة العقل فى حديث طريف فيقول :
ـ « عندما خلق الله العقل ٠ قال له : أقبل ، فأقبل ٠٠ ثم قال له : أدبر ، فأدبر ، ثم دعاه وقال له : اذهب ، فأنت لعبادى

سلطان وعليهم شـــهيد . اياك أسأل ، واياك أعطى ، وبك أحاسب » ..

ثم يبين فى وضوح أكبر ، الارتبـاط الوثيـق بين العقل والسلوك ، فيرفع المسئولية عن الناس فى الحالات التى يتوقف العقل فيها عن أداء وظيفته سواء كان ذلك طارئا كالاغماء ، أم مقيما كالجنون .. ولقد كان « توما الاكويني » يقول :

ـ « انه لما كان كل من العقل والايمان هبة من هبات الله . فهما بالضرورة متوافقان » ومثل هذا نقول : « انه لما كان كل من العقل والفضيلة ضرورى لسعادة الانسان ، فهما بالضرورة متوافقان » .

الآن اذن نعلم الاجابة عن السؤال الذى طرحناه آنفا اذقلنا: أصحيح أن الرذيلة تبدأ فى عقول الرجال ؟ ..

أجل انه صحيح . وعندما يذهب عقلك فى اجازة (!) يرفع الله عنك جميع المسئوليات .. وما دام العقل مناط المسئولية الأخلاقية ، فلنبدأ منه المنهج الفاصـل لمسألة السـلوك والأخلاق ..

فمنذ بدأ الانسان والأمر كذلك ، والعقل هو الذى كان يعين لنا فضائلنا ورذائلنا .. فيوم لم يكن مع البشرية وحى ودين ، لم تكن بغير أخلاق . بل كان لها فضائلها وأخلاقها التى تهب المجتمع ثباته وأمنه ..

فمثـــلا كان القتل جريمة ورذيلة ؟ .. فمن الذى جعلـه كذلك ..

العقل .. الذى أنبأهم أن التسامح مع هذا العمل سيفنى القبيلة ، يسبب من المشاق والعطب مايوقف النمو ويعطل الحياة .. وهنالك صار القتل جريمة مرذولة ، ثم وضعت التشريعات

التى تؤكد ذلك وتنظم له العقوبة والقصاص ٠ ففى شريعة حمورابى التى لم يكن فيها حظ من وحى ولا نصيب من دين ٠ نقرأ هذا النص الرائع سبق اليهودية والمسيحية والاسلام ٠٠

« العين بالعين ، والنفس بالنفس ، والسن بالسن ٠ وفى الأطراف دية » !!

والعقل هو الذى اكتشف أخيرا ، ولا يزال يكتشف المنابع الحقة للرذيلة ، ويضع الوسائل المجدية الفعالة فى العلاج الخلقى ، فصلته بالسلوك ،وحتميته لتعليته وترقيته لاينكران أبدا ٠٠ وكيفما يكون عقلك ، يكون سلوكك أيضا ٠٠

وقد يسألنا سائل : أنت ذكرت فى هذا ٠٠ أو الطوفان أن الوصف الحق لخطايانا أنها أمراض ٠٠ فهى تبدأ أخطاء فى سلوكنا ، فاذا رسخت صفة الادمان تحولت الى مرض خلقى ٠٠

ومادام ذلك كذلك ، أى مادام رذائلنا وخطايانا مجرد أمراض ، فما صلة العقل اذن بقضية السلوك والأخلاق ؟!

أليس يصاب بالأمراض العضوية أناس بلغوا أرفع منازل العقل والذكاء ، واذن فقد يكون حالهم مع المرض الخلقى ؟ ٠٠

ونجيب بأننا لانضع الحالات الفردية ، والمثل الطارئة موضع القاعدة ٠٠ هذا أول ٠٠

والشىء الثانى ، هو أن الذين يحملون عقولا ذكية حصيفة مسيطرة قلما يصيبهم المرض الجسمى بنفس الضراوة واليسر الذين يصيب المرض بهما من هم أدنى منزلة فى الذكاء وحظا من العقل ٠٠ ذلك أن العقل الذكى الصارم ينأى بأصحابه عن دواعى العلة ، من تخمة فى الأكل ، وافراط فى السهر ، واستسلام للشهوة ٠ شهوة النفس وشهوة الجسد ٠٠ وهو بهذا يؤدى دورا وقائيا يتحاشى به الكثير من أمراض الجسم ٠٠ وكذلك

يستطيع أن يقوم بنفس الدور فى تحامى الأمراض الخلقية ..

فالمرض الخلقى يجتاز أدوارا عدة قبل أن يصير مرضا ، ويستطيع العقل الصارم البصير أن يحتجزه عند أولى هذه المراحل أو خلالها .. فهو يبدأ رغبة ، ثم يصير سلوكا ، ثم يكون عادة ، ثم يغلب عليه الادمان الضاغط ، فيصير مرضا خلقيا مقيما .. وهكذا يواجه العقل فرصا كثيرة يستطيع بها أن ينقذ الضحية من سوء المصير ..

ثم اننا نتحدث هنا بصفة أكثر عن عقل الجماعة .. فالمجتمع مالم يشع فيه نور العقل لايمكن أن يكون فاضلا بل ولا يحق له أن يطمع فى احراز الفضيلة .

وعقل المجتمع يعطيك فكرة كاملة عن شخصيته ، وعن سلوكه ..

فعندما كان العقل ــ غابيا ــ أعنى عقل غابة ، كان هناك سلوك الغابة ..

وعندما كان العقل ــ اقطاعيا ــ كان ثمت سلوك الاقطاع بفضائله ورذائله ..

واليوم والعقل صناعى ، نجد سلوك الآلة وأخلاق الآلة .
وعندما يكون العقل ــ مسيحيا ــ نجد أخلاقا مسيحية وحضارة مسيحية ..

وعندما يكون ــ اسلاميا ــ نجد أخلاقا اسلامية ..
ولو أن عقل « آل كابونى » وتفكيره توفرا لهذا الشيخ أو القسيس الذى ينهى الناس ، ويأمرهم ، لصار هو آل كابونى !
ومن الخير أن أعترف بأننى كنت من أكثر الناس جحودا لهذا الرأى ، وصدا عنه .. وكنت أقول للناس وأنا أعظهم .. « أكثر أهل الجنة البله » أى أن البله والمغفلين هم أهل الفضيلة والتقوى ، بدليل أنهم أكثر أهل الجنة ..

أما الآن ، فقد عرفت ، وكيفما يكون عقـــل الفرد يكون سلوكه ، وكيفما يكون عقل الأمة يكون سلوكها ..

ولسنا نعنى بالعقل هنا أن تكون فيلسوفا ، أو مخترعا ، أو أديبا كبيرا .. انما نعنى العقل المتزن ، والذهن الثابت ، نعنى سكينة النفس وسكينة التفكير .. نعنى العقل الذى عناه ذلك الفيلسوف الصادق الذى دعا ربه قائلا :

ـ « يارب اجعل نعم الحياة الدنيا جميعها تحت أقدام الحمقى ، وأعطنى عقلا غير مضطرب » ..

وسكينة العقل وسكينة التفكير لاتوجدان قط ، حيث يفرخ طاغية ويبيض ، سواء كان هذا الطاغيـــة فى الدولة ، أو فى المدرسة ، أو فى البيت ..

وسنرى فى الفصل الثانى ، كيف فقدنا المقدرة على حيازة فضائل النفس ، لأننا فقدنا سكينة العقل والنفس .. وكيف فقدنا هذه الأخيرة بسبب القهر والعسف اللذين نلقاهما منذ نعومة أظافرنا فى المنزل وفى المدرسة وفى المجتمع ، واللذين يشيعان فى عقولنا الاضطراب وفى قلوبنا المســـكنة ، وفى أخلاقنا التشويه ..

ان نظرة عابرة الى أخلاق الانجليز والفرنسيين مثلا ـ تضع بصيرتك على عامل من أهم عوامل الفارق الـــكبير بين أخلاق الأمتين والشعبين ..

فالفكر الفرنسى خصيب جياش ، والعقل الفرنسي ذكى ثاقب بيد أنه مضطرب نزق .. ومن هنا طلى سلوك الأمة الفرنسية بالدم ، والفتنة ، والخلاعة ..

أما العقل الانجليزى ، فأكثر ثباتا وطمأنينة وأناة .. ومن ثم اتسم سلوك ذويه بما يناسب عظمة ذلك العقل وهدوءه ..

وكيف واتت الفرصة العقل الانجليزى فاكتسب السكينة ونأى عن الاضطراب ؟ ..

من شيء واحد .. هو المناخ الحر الديمقراطى الذى تهيأ لهذه الأمة من زمان بعيد جد بعيد .. والذى تشبث به الانجليز تشبثا باهرا على النحو الذى سنبينه على الصفحات القادمة .

ان العلم يقرر اليوم أنه حيث ينحط الذكاء ، ويتقامأ العقل ، يوجد حس أخلاقى ناقص ، كما هو الحال بين الجماعات المتوحشة

.. وهناك فارق كبير بين سلوك أوربا المتبربرة .. وأوربا المتحضرة بل بين المجتمع الانسانى القديم ، والآخر الحديث .

وهكذا كلما تقدم العقل وثبتت أقدامه ، تقدم معه السلوك القويم ورسخت دعائمه ..

فكيف نتيح للجماعة نمو العقل واتزانه وسيادته ، لتتمكن بالتالى من تطوير سلوكها ؟! ..

اننا بهذا السؤال نبلغ المرحلة التى نجيب فيها عن سؤال آنفا ، وهو : مامدى تأثير الطغيان على الحركة العقلية فى الجماعة .. وهل يتأتى لعقل الأمة وعقول الأفراد أن تنمو وتترعرع فى ضباب حكم الطاغية ـ أى طاغية ؟ ..

ونجيب بأن ألد أعداء العقل هو الحجر ، والوصاية ، لاسيما حين يجىء هذا الحجر من تقاليد انتهى دورها ..

والطغيان يقوم سلطانه واستكباره على بغضاء معصوبة العينين لكل من يقول له فى جد وحزم ، لم ؟ .. ولا ..

واذا كان العقل يبدأ رحلة نمائه بتحوله الى أداة استفهام دائبة ، فلا يفتأ يسأل ، لم ، وكيف ؟ ولماذا ؟ .. فانه اذن يرتطم ارتطاما مباشرا ، وصعبا بمشيئة الطاغية ، سواء كان هذا الطاغية ، حاكما ، أو مجتمعا ، أو تقليدا من التقاليد ..

عندما قام رجل من خير أدباء ألمانيا يحذر الأمة من الطريقة الجديدة التى يربى بها « هتلر » شباب المدارس حيث أحالها الى « ثكنات » ولم يبق لها من سمات المعاهد الا قليلا .. وحصر دروس الألعاب سيما مدارس المرحلة الأولى فى ألعاب « الجاسوسية » ، و « هجوم الدبابات » الى آخر هذه الأشياء .. ماذا كان جزاؤه ؟ لفقت له التهم لينزل ضيفا عزيزا على السجن ، لولا أن تمكن الرجل من الهرب الى سويسرا حيث وضع فى خدمة نظامها الحر كل مواهبه وفنه ..

فهذه مسألة من مسائل التربية أبدى فيها رأى عابر ، فلم يسمح النظام غير الديمقراطى وغير الحر بابدائه .. وهكذا يصدق قول الفيلسوف الذى قال : « ان العبد لايستطيع أن تكون له أخلاق لأنه لايملك اختيار خلق لنفسه ، ان سيده هو الذى يفرض عليه نوع سلوكه وحياته » ..

ان الحياة كما يقولون ، عملية هضم وتمثيل ، فكل مافى الجماعة من استبداد وعوز وخرافة يمتزج بكيانها ويثمر سلوكها وان جميع العلف الذى يغذينا به الطغيان من آراء يختارها ويفرضها لتتحول وتصير أنت ، وأنا ، والآخرين ..

ويبلغ الانحطاط العقلى أوجه البعيد فى ظل الطغيان .. لماذا ؟ ..

لأن الطاغية يعتمد لدعم سلطانه ، وارساء دواعى البقاء والاستمرار لحكمه ، يعتمد فى هذا دائما على احياء غريزة القطيع فى الأمة ، واذا استعلت غريزة القطيع على عقل الجماعة فى قوم فماذا يحدث ؟ ..

تستطيع أن تدرك ذلك بموازنة عابرة بين كلمتى غريزة وعقل .. وكلمتى قطيع وجماعة ؟! ..

وأرجو أن ندرك ادراكا واعيا ، أن سيادة غريزة القطيع واستعلاءها ، واضمحلال عقل الجماعة وخفوت صوته أثران محتومان ، وابنان شرعيان لكل طاغية قام أو سيقوم فى دنيا الناس ..

ان الاخلاص العقلى لما هو حق ، يدعونا للضغط على هذه الكلمات كيما تنطلق مبينة واضحة ، ويدعونا للتكراروالتوكيد حتى نمنح الوضع مايستحقه من اهتمام ..

ان تطويع الأفئدة والعقول لحكم الفرد يقتضيه أن يسرف فى استعمال الاستهواء والدعاية ، وهو لاينفك بالليل وبالنهار فى السر والعلن ، بشتى الطرق يبث رأيا واحدا ، هو رأيه .. ويبشر بوجهة نظر واحدة هى وجهة نظره ، وهو يطلق دعاواه ومنهجه المرسوم فى طوفان هادر موصول الموجات متساوق الضربات ، ويجد عقل الجماعة نفسه فى دوامة هائلة ، لايكاد يخلص منها وينجو حتى تبتلعه دوامة أخرى ، ولا يكاد يفيق من هذه الثانية حتى يكون قد ترنح واستخذى وتدحرج فى هدوء الموت الى جوف الطوفان ..

لقد كان الشعب الالماني عظيما .. شعب العبقرية والنبوغ، ومع هذا فأن عقل الجماعة فى ذلك الشعب العظيم لم يستطع أن يصنمد أمام وسائل الاستهواء النازى الذى شنته الاذاعة والصحافة ، وخطوات الأوز ، ومهرجانات العنصر الآرى الشريف (!) لم يستطع عقل الجماعة أن يصمد فى شعب كذلك الشعب ، واستسلم لغريزة القطيع ..

ماذا كان الثمن الذى دفعه الالمان ليس فقط من مستقبلهم .. بل من أخلاقهم .. أجل من أخلاقهم فهى المسألة التى تعنى هذا البحث ؟ ..

حدث مايحدث دائما عندما تحاصر أمة بطاغية يحكم ، وغريزة قطيع تفكر .. فخضع السلوك الالمانى ، والخلق الالمانى لأبشع رذائل الأرض ، ألا وهى التعصب ..

ومن سوء حظ بلادنا أنها لاتضع التعصب فى قائمة الرذائل الخلقية .. انه ، وعند المثقفين فقط قد يكون رذيلة عقلية لا غير .. لهذا نشعر بصعوبة موقفنا الآن ونحن نصف التعصب بأبشع رذائل الأرض !! ..

ذات يوم ذهب الى الرسول عليه السلام رجل يسأله عن الاثم الذى اذا تركه ، وتخلى عنه ، انتصر على كل آثام نفسه ونزواتها .. فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : لاتكذب .

ومضى الرجل مصمما على ألا يكذب ، فكان كلما راودته نفسه عن رذيلة ، وقف مستأنيا يسائلها :

– اذا اجترحت هذه الرذيلة ، وسئلت عن فعلها ، فاما أن أصدق أو أكذب ، فاذا صدقت نزلت بى عقوبتها البدنية ..

واذا كذبت أكون قد حنثت بعهدى ، وفقدت عزيمتى وتصميمى ..

وهكذا أفضى به اصراره على الصدق وترك الكذب الى معظم فضائل النفس ، ومكارم السلوك ..

أى أن الكذب كان حسب تصوير القصة القنطرة التى تعبرها جميع الرذائل والموبقات ! ..

ألا ان التعصب لكذلك ، مضروبا فى اثنين ! .. لأنه كذب ، ولأنه ظلم ، أما كيف هو كذلك ، فسنرجىء الحديث عنه الى الفصل الثالث .. وغاية مانرجوه هنا ادراك أن التعصب قرين الحكم المطلق ، وثمرة الحنظل التى تثمرها شجرته الملعونة ..

ذلك أن كل أمر مطلق ، سواء صدر من فرد أو من أمة لايؤمن

prejudice race

fanaticism

Prejudice or fanaticism is both a lie & an injustice. It is related to absolute rule for it doesn't believe in the right of others in contradiction

بحق الآخرين في مخالفته . لأن معنى أنه مطلق أنه استوعب جميع عناصر الحق الذى لايمارى ، والأحقية التى لاتسبق .. والدولة فى نظر الطغاة أمر مطلق .. كما عرفها أحدهم ، وهو طيب الذكر جدا .. موسولينى ..

واذن فصاحب هذا الأمر المطلق وسيده لايعترف للآخرين بحق مخالفته ، ولا يؤمن بتعدد النظر الى الأشياء .. انه ينظر من جانب واحد ويعتد برأى واحد .. وهكذا اذا تحولت الجماعة المذعنة للطاغية الى وكر للتعصب المدمر فالجريرة جريرته هو والأمر لا يعدو أن يكون انتقال عدوى من ذلك الذى يتفانى فى التعصب لذاته ، ومصالحه وآرائه .. ويلعب الاستهواء الضدى دورا ناجزا فى هذه الحالة ، فتسارع الجماعة الى عكس مايريد الطغيان أن يروضهم عليه فتتفتح أنفس الأفراد ، ونفسية الجماعة لكل دواعى التعصب المضاد ، ثم التعصب بصفة عامة فتستجيب سريعا لكل من يقدم اليها دعوة متعصبة ، أو مذهبا متعصبا لاسيما اذا كانت هذه الأمة أو الجماعة قد قطعت شوطا طويلا مبهظا ينتظم آلاف السنين وهى تعيش تحت وطأة طغيان متنوع ، وغزو متلاحق ، كأمتنا وشعبنا ..

أهذا فقط هو كل مايجنى به الطغيان على العقل وبالتالى على الأخلاق ؟؟ ..

لا .. فهو بطبيعته عدو الثقافة الحرة ، وقاطع الطريق على قافلتها المباركة .. واذا نحن علمنا أن الافكار الكبيرة المضيئة ، هى قبل كل شىء سواها ، التى تخلق الأمم العظيمة ، أدركنا مدى العرقلة الآثمة التى يبذلها الحكم المطلق ضد النهضة الصادقة للأمة ، نهضة العقل ، ونهضة النفس ..

لكى تظفر الجماعة بأخلاق كبيرة .. لابد من ظفرها أولا بأفكار

he adopts only one pt. of view thus, absolute rule is the father of prejudice in his opinion

كبيرة .. ولكى تظفر بهذه يجب أن يتحرر عقلها من الجهالة .. والسبيل الوحيد لذلك هو تحرير الضمائر من الفزع. ومصدر الفزع هو الطغيان ، والقسوة والتحكم ..

اذن فبداية البدايات لايجاد مجتمع فاضل مستقيم حى أن نحرر رقبة هذا المجتمع من كل حكم مطلق ، وأن يشعر أفراده أنهم لامعقب لحكمهم ولا سيد فوقهم سوى مشيئتهم كجماعة وكشعب ..

ألا ان الخلق الأدبى عمل روحى قبل أن يكون شيئا آخر ، وحسبما تكون روح الأمة يجىء تفكيرها ، كما أنه كيفما يكون تفكيرها تكون روحها فكلاهما يعمل فى الآخر طردا وعكسا ..

وانك لترى المفكرين الأحرار الذين شرعوا أقلامهم كالسيوف المواضى دفاعا عن الحرية قد نشئوا دائما أو غالبا فى أمم وجماعات تهوى أفئدتها للحرية وتطير أرواحها اليها وتصطك محاولاتها بفرص الزمان لبلوغها ..

ولكن الفكر الذى نعتبره خلقا وارتيادا ، والذى يعطى الجماعة نهجا كريما لحياتها ، هيهات أن يوجد فى ظل طاغية ، فالطاغية بدهائه ونزوعه الدائب الى السيطرة يعمل ليكسب الى جانبه جميع الفرص التى تحقق له نزوعه المسعور .. وهذه الفرص تتمثل طبعا فى القوات الاجتماعية الموجودة فى الأمة ، وعلى رأس هذه القوات الاجتماعية ، الفكر ..

ويبدأ الطاغية متوسلا بالرغبة . فيطلق فى نفوس المفكرين والمؤلفين والكتاب أنواعا من الشهوات ، ويبسط لهم موائد الجاه والمال والشهرة ، فيستجيبون له .. وعندئذ لايتساءلون عندما يحملون أقلامهم : ماذا يجب أن نكتب لنهدى الى الحقيقة .. بل ماذا يجب أن نكتب لنرضى الطاغية ..

أجل ، لايكتبون ليعرفوا وينيروا ·· بل يكتبون ليكسبوا ويشهروا ··

أقسم ، لو أن أمة من القديسين انحرف فيها الفكر الحر عن رسالته ، وزيف من أجل الغرض والهوى ، لتحول قديسوها من فورهم الى شياطين وأبالسة ··

ان كل عمل جليل يتم على هذه الأرض ·· كل شجاعة خارقة تتقدم ·· كل رحمة وارفة تسود ·· كل ثورة انسانية تنجح ·· كل مرض عضال يقهر ·· كل تقدم انساني يزحف ··

أقول ان كل شيء من هذا يحدث ، تجد وراءه شيئا واحدا رائعا وملهما وخالقا ، ألا وهو : **الفكر** ··

والكلمة المسطورة هي الأم الرءوم التي ولدت ولا تزال تلد كل عمل نبيل وجليل ·· **وأيضا هي التي تلد – اذا كانت شريرة كل وزر وكل ضلال** ··

فخير مايهدي الى الفضيلة أن تعيش الجماعة في كنف الكلمة الطيبة ·· وشر مايهدي للرذيلة أن تعيش في مستنقع الكلمة الخبيثة ··

ألم يقل الله سبحانه ذلك ؟ ··

« مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء· تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ··

« ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الارض مالها من قرار » ··

ان الكلمة الطيبة لها مناخ واحد لايتبدل ، هو حيث ديمقراطية الحكم ، وحرية الفكر والقول والعمل ··

كما أن للكلمة الخبيثة مناخها المعتم .. حيث يوجد ذلك الطغيان الوصولى ، فترتفع أصوات التافهين الذين يتخذون من الفكر والأدب تجارة ولهوا .. والذين تضن عليهم الحقيقة بنفسها ، فيغمسون أقلامهم فى مداد اللغو والبهتان .. بينما ينزوى الذين عندهم علم من الكتاب ، ونور من الحقيقة ، عازفين عن الشهرة التى ثمنها الكذب ، وعن المال الذى طريقه التسليم ، وعن الراحة التى ثمنها خيانة المعرفة !! ..

بين أدب الأمة وأخلاقها رباط وثيق ..

فمن أدب أثينا ، تعرف أخلاقها ..

ومن أدب الرومان ، تبصر سلوكهم ..

وبين أدب الفرنسيين وأخلاقهم وشيجة ..

وبين أدب الانجليز وأخلاقهم صهر ونسب ! ..

فاذا أراد قوم أن يجدوا فى رفع مستوى الأخلاق ، فعليهم أولا أن يرفعوا مستوى الفكر والأدب ..

والفكر والأدب لايرتفعان بتنمية نزعة الكسب عند الأدباء والمفكرين .. ولا بفرض الرقابة على الفكر الذى خلق ليحلق فى الفضاء الحر .. ولا يرتفعان بشحن ضمائر الأدباء بالفزع تارة وبالشهوات تارة أخرى .. ولابردم المنابع العذبة الصافية التى تروى الثقافة بالماء الزلال .. ولا بالحط من شأن الثقافة الحرة ، ورفع لواء الهوس الغوغائى .. واذا وجد شىء يقترف كل هذه الموبقات التى تهيىء للانحطاط العقلى والانحطاط الخلقى ، فلن يكون هذا الشىء سوى الطغيان ، وكل فكرة يمكن أن نتصورها من اختناق الفضيلة به جديرة بأن تكون دون الحقيقة الواقعة ..

مصرع الباعث الخلقى ..

فى « هذا .. أو الطوفان » قلنا ان المحاولة الأخلاقية الرشيدة تبدأ بتعلية الباعث ودعم سلطانه ، لأن الأخلاق فى واقعها الحق ليست أكثر من الباعث ، وقلنا ان السلوك الخير بدون باعث يزجيه لايساوى شيئا . وأعمالنا لاتوصف بالحسن والقبح الا تجوزا ، وانما يوصف بهما أصلا بواعثنا .. وضربنا لهذا مثلا ـ القتل .. فنحن نراه جريمة فى حالة ، وفضيلة فى أخرى .. أى أن صفته تتكيف وفقا لدوافعه ..

فهو جريمة اذا كان باعثه العدوان ..

وهو فضيلة ، اذا كان باعثه الدفاع عن الوطن ..

والآن نريد أن نعرف ، هل يتوفر للناس فى مجتمع مستعبد أغراض صالحة ، وبواعث شريفة تهيئهم لسلوك فاضل مستقيم ؟ ..

سنرى أن ذلك غير موات ولا ممكن ، لأن الطغيان يسلب الجماعة ارادتها ، وحريتها واختيارها .. والباعث الخلقى لاوجود له ـ أدنى وجود ـ الا حيث تكون ارادة وحرية واختيار ..

لكل سلوك انسانى باعث ودافع ، أى رغبة توجهنا نحو غاية .. وعلماء الأخلاق والنفس يقررون أن دوافعنا مزدوجة ، فهناك الدافع الابتدائى .. وهناك أيضا الدافع الغائى ..

فأنت عندما تسلك سلوكا ما ، أو تسير فى عمل من الاعمال ، تحتاج لقوة تدفعك ، وغرض يناديك .. ان القوة الدافعة الحافزة ، تمثل الدافع الأولى .. والغرض الذى يناديك فتسعى اليه يمثل الدافع الغائى .. وأعمالنا انما توصف بالدافع الثانى أى الغائى .. فاذا كان شريفا فاضلا ، كان سلوكنا شريفا فاضلا واذا كان أثرا رديئا ، كان سلوكنا كذلك رديئا ..

والباعث الأولى تلقائى ، لأنه ينبعث من غرائزنا وقوانا الفطرية ، أما الثانى فكسبى ، لأننا نختاره كنوع للغاية وللغرض اللذين ينبهان غرائزنا ويحفزان قوانا ..

ويضرب لنا « هادفيلد » مثلا ـ رجلا سياسيا يخدم وطنه وبلاده .. ان الدافع الأولى الذى ينبثق من غرائزه ويمنحه القوة والمغامرة قد يكون أهمية الذات وحب التفوق والظهور والمجد ، بيد أن أهمية الذات وحب الظهور يمكن أن يعبرعنهما تعبيرا رديئا كالزهو والكبرياء والعدوان ..

فاذا عبر السياسى النظيف عنهما بخدمة بلاده ووطنه . كان ذلك الدافع الغائى جليلا وكان السلوك عظيما ..

ومثلا آخر .. هذه السيدة التى تحنو على الساقطات من بنات جنسها ، وتقضى وقتها فى العمل الدائب لانتشالهن من الوهدة .. ان الباعث الأولى بالنسبة اليها قد يكون رغبتها اللاشعورية فى الاستطلاع الجنسى .. ولكن هذه الرغبة أيضا كان يمكن أن يعبر عنها تعبيرا فاجرا مستهترا .. فاذا اتجهت به صاحبتنا الى غرض نبيل كالذى ذكرنا ، كان عملها نبيلا ومسلكها حميدا ..

واذن فالدافع الغائى هو الذى يعطى سلوكنا صفة الجمال أو القبح .. وهو يواتينا بقدر مامعنا من تربية ، وما فى بيئتنامن فرصة ..

أى أن الدوافع الغائية الشريفة انما تو.. وتترعرع وتنطلق للعمل فى الجماعات التى تشيع فيها الافكار الكبيرة ، والعلاقات الغيرية السليمة .. وحيث الاخاء والحب والشجاعة والسلام .. وبعبارة موجزة نقول : ان الدافع الغائى الفاضل يستمدوجوده من القيم الفاضلة المسيطرة على المجتمع .. كما يستمد الماء وجوده من عناصره المكونة له ..

فهل للجماعة التى يفرخ فيها الطغيان ويبيض قيم عالية سامية ؟؟ ..

ان ماتنتظمه الصفحات السالفة كلها من حجج وبراهين تقول : لا .. وهى أيضا مقولة الواقع والحق ..

فالقيم قد توجد فى جماعة يحكمها طاغية ، ولكنها تكون فى حالة كمون واستخفاء وتوقف عن العمل .. لأنها ليست كائنات حية ، تتحرك وحدها وتسعى .. بل لابد لها من ناس تتقمصهم كى تعمل ..

والناس فى حكم طاغ قد لايسلبون الصفات التى تمكنهم من الاستجابة لتلك القيم ، ولكنهم يعجزون عن الافادةمنهاوالتعبير

عنها تعبيرا سويا قويما وهذا مما يضاعف الخطر ويدعو للجزع .. فالشجاعة – مثلا – يختلف عملها فى المجتمع الحر عنه فى

المجتمع المضطهد . انها فى الأولى خادم مطيع لكل قيم الحياة الفاضلة ، فهى هنا تعبر عن نفسها بالمخاطرة فى كشف أرض

مجهولة ، أو مكافحة وباء فاتك ، كما تتمثل فى استبسال كل فرد فى أداء واجبه ضد دواعى الاخفاق والفشل ..

أما فى المجتمع المضطهد ، فالشجاعة تلعب دورا مغايرا .. لأن خصائصها الفاضلة تختفى وتكمن وتتربص حتى تتفجر أخيرا فى ثورة عارمة ، أو فتنة مدمدمة ضد الوضع القاسىالذى ناءت بحمله حينا من الدهر ..

واذا الناس لم يجدوا واجبا يربطهم به دواعى الولاء ، فأنهم سينساقون لقوة تربطهم بها دواعى الفزع ، فهكذا نحن بنى الانسان ، لامناص لنا من أن نكون عبيد الواجب أو عبيد القوة ..

فاذا أخمدت جذوة القيم كما أسلفنا ، وخفت بالتالى صوت

الواجب الذى كانت القيم تثمره وتزجيه ، فان الشىء الآخر يهيب بالناس فيستجيبون له كارهين .. ذلك الشىء هو : القوة .

والقوة فى جماعة غير حرة وغير ديمقراطية لا تتمثل فى قانون، ولا فى عرف قدر تمثلها فى الفرد الذى يحكم .. فى الطاغية .. وهكذا يصبح هذا الطاغية هو القيمة العليا للجماعة .. وتصير شهواته وصلفه ودوافعه الأولية والغائية قدوة تحاكى، ونهجا يتبع ..

ولما كانت جميع دوافع الحاكم المطلق شريرة ، ورديئه ، فان دوافع الذين سيحاكونه لن تكون الا كذلك .. وهكذا تلقى البواعث الأخلاقية الفاضلة الخالقة مصرعها الوبيل فى كل مجتمع ودولة تفسح فيها الديموقراطية مكانها لحكم الفرد وسفهه وطغيانه ..

ولما كانت البواعث الفاضلة تحيا بالتشجيع والاثابة ، فان بوارها يصير محققا فى الجماعات التى يسودها طغيان ..

كيف يثيب الطاغية على الشجاعة ، وهى عدو ؟ ..

كيف يشجع الكلمة الحرة الشريفة وفيها نهايته ومصيره ؟

كيف يكافح الكذب والخيانة وهما حليفاه ؟ ..

ان حرصه على الثناء يشيع خلق النفاق والملق فى الناس .

ولقد كان رجل ملهم كعمر بن الخطاب يدرك الخطر الذى يتهدد روح الأمة كلها عندما تنقلب مرائية مداجية . فكان يرفض أى مظهر من مظاهر التتبعية ولو كان ضئيلا ..

رأى ذات يوم ـ عبد الله بن مسعود ـ صاحب رسول الله عليه السلام يسير ومن ورائه كوكبة من المسلمين ، فما ان بصر به حتى اقترب منه وهو يقول فى تقريع لاذع : ـ ماشاء الله يا ابن أم عبد .. !!

ثم صاح فى الذين يمشون خلفه ففرقهم ، وقال : لاتفعلوا ذلك مرة اخرى ، فانه فتنة للمتبوع وذلة للتابع !! ..

ورجل آخر عظيم جد عظيم ، هو عمر بن عبد العزيز قصدته امرأة من العراق ، ولما ولجت بيته أدارت بصرها خلاله فلم تر فيه شيئا ، فقالت :

لقد جئت لأعمر بيتى من بيت أمير المؤمنين ، فاذا بيت أمير المؤمنين خراب !! ..

فأجابتها زوجة عمر : انما خرب هذا البيت عمارة بيوت الناس ..

ودخل عمر بن عبد العزيز ، وأقبل على المرأة يسألها عن حاجتها فقالت :

ـ أنا امرأة من أهل العراق ، لى خمس بنات كسل كسد .. وجئتك أبتغى حسن نظرك لهن .. فأخذ الدواة والقرطاس ليكتب الى والى العراق وقال للمرأة : سمى كبراهن .. فسمتها، ففرض لها ..

فقالت المرأة : الحمد لله ..

ثم سأل عن اسم الثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله فى كل مرة .. فلما هم ليكتب اسم الخامسة ، صاحت من فرحتها: حمدا لك يا أمير المؤمنين .. فسقط القلم من يد عمر وقال لها: كنا نفرض لهن حين كنت تولين الحمد أهله .. وهو الله .. أما وقد نكصت سريعا ، فمرى بناتك الأربع يفضن على أختهن الخامسة !! ..

الى هذا الحد كان الحكام الصالحون يخافون الثناء بل يخافون مادون الثناء بكثير ..

ولقد يقال : انك ضربت مثلا رجلين لم تكن معهما «ديمقراطية»

ومع هذا فقد كانا مثالا يحتذى للفضيلة التى تتعب لاحقهـا ومدركها ؟ ..

ونجيب ، بل كان معهما « ديمقراطية » وارفة تملأ رحاب نفسيهما الكريمتين . وان كان التطبيق الكامل للديمقراطيةلم يكن فى الزمن البعيد ، وفى بلاد كجزيرة العرب النائيـة مما يسهل أن يكون .. كيف كانت أخلاق الناس في أيام حاكم كعمر بن الخطاب ، وحاكم آخر مسلم أيضا ، كمعاوية بن أبى سفيان ؟ ..

ان الفارق بين سلوك الجماعة هنا وهناك .. هو الفارق بين سلوك الرجلين ، عمر ، ومعاوية ..

وكذلك عمر بن عبد العزيز ، الذى ساد فى عهده السـلام والاخاء والفضيلة مبلغا جعل عهـده ينعت بأنه « الأيام التى كان الذئب يرعى فيها مع الشاة » !! ..

واذا كانت جميع فضائل الجماعة تبدأ من فضيلة الفضائل ، وهى : حب الوطن والولاء له ، ولاء يعصم أبناءه من خيانته أو هدم بنيانه ، أو تشتيت وحدته ، أو اعتياق تقدمه ..

نقول : اذا كان ذلك كذلك ، فأن دور الطغيـان كمحرض عظيم على رذيلة الخيانة ، وما ينسل منها من رذائل ، يبـدو واضحا مبينا ..

هناك ظاهرة تلفت البصائر وتبهرها معـا .. هى أنه كلما عظم حب الناس لوطنهم ، عظم معه حبهم لأنفسهم .. فالسلام الاجتماعى الذى هو المناخ الصالح للفضـيلة .. لايتأتى قط لجماعة يحملون للوطن ضغنا وحقدا ..

ولماذا يحب الناس الوطن ياترى ..

انهم يحبونه لأنه المأوى الذى يصون حياتهم ، ومصالحهم ..

والعش الجميل الذى يضم ذكريات حبيبة مشوقة ٠٠ الأمر الذى يعبر عنه الشاعر العربى فيقول :

وحبب أوطان الرجال اليهمو مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهموا عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

الوطن اذن هو المكان الذى يتاح لى فيه الاستقرار ، والسلام، والعيش ٠٠ فاذا لم يشعر الناس بشىء من ذلك يفاء على سعيهم الحثيث وكدهم الدائب ، فان احساسهم بالوطن يتضاءل ويذوى

٠٠ بينما ينمو شعور آخر بأنهم غرباء فى هذه الأرض، وضيوف عليها ٠٠ بل وشعور آخر أكثر سوءا اذ يجدون جهدهم يضيع، وعناءهم يتبدد فى وطن لايكافئهم ولا يتراحب لحقوقهم وغاياتهم،

فتنفصم كل عرى الولاء والحب والضن التى كانت فى نفس الجماعة لأرضها ووطنها ٠٠ وترحب بكل طارق ومغير يقرع أبواب بلادها ولسان حالها يقول :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

هل رأيتم قط سجناء يدافعون عن سجنهم حين يتداعى أمام هجمات المعاول ؟ ٠٠ كذلك الوطن حين يتحول الى سجن واقرءوا التاريخ تجدوا مصداقا لما نقول ٠

هذا هو « غوستاف لوبون » يتحدث الينا ٠٠

- « ٠٠ وكلما كانت جيوش الثورة الفرنسية وهى ماضية فى غزوها تصطدم بأمم أذلها الطغاة المستبدون ، ولم يكن لها خيال تذب عنه ٠٠ كان النصر يحالفها ٠٠

« أما حين تصطدم بأقوام معهم حرية ٠٠ ولهم خيال ٠ ٠فقد كان يتعذر عليها الفوز والانتصار » !! ٠٠

أجل ، ان كل آفات النفس تستيقظ فى الجماعة المغلوبة على أمرها ، فتنفر من كل فضيلة وتدبر عن كل واجب ٠ ولعل

هذا ماعناه الرسول عليه السلام بقوله : « اذا وسد الأمر لغير أهله .. فانتظر الساعة » ..

أى اذا وضع الحكم فى غير مكانه ، وسلم لغير أهله ، فانتظر الساعة التى تدق معلنة اخفاق هذه الأمة ، ومذيعة نعيها .. فمن هم المعنيون بقول الرسول « غير أهله » ؟ ..

هم المستبدون الذين يأخذون الحكم من أهله .. من الأمة والشعب حتى حين يتلفعون بأردية زائفة من الديمقراطية المحرفة، كما كان فاروق يفعل فى مصر ..

هل تعلم أن خير مايحفز الفرد الى التحليق الرفيع ، هو الحماس والشوق ؟ وهما أيضا خير مايحفز روح الجماعة ويشد زناد تفوقها ..

ترى هل ننعم فى ظل الاستبداد والطغيان بهذا الحماس الباعث ، والشوق الزاخر ؟ ..

كلا .. وانما يحل بديل آخر عنهما ـ القنوط واليأس . واليأس يشتت سكينة النفس ، ويلاشى صمودها،فتسقط غير مكترثة ولا مبالية .. وادراك هذه الحقائق هو الذى حدا بجميع الرواد والقادة والمصلحين .. أن ينظروا الى الاستبداد كعقبة ضخمة تعترض كل مايريدونه للناس من خير وسعادة. ليس فيهم رائد واحد ، واحد فقط تسامح مع الحكم المطلق .. مغتصب حريات الجماهير والجماعات .. ليس فقط من أجل السيادة السياسية .. بل قبل هذا من أجل صيانة روح الأمة من بثور الرذيلة ، وقروح اليأس .. وان واحدا من أولئك الأفذاذ ليصور الأمر تصويرا مثيرا ذلكم هو « متزينى » نبى الوحدة الايطالية وفيلسوفها .. كان شعاره ، الحب .. والحب .. ثم المزيد من الحب !! ..

ومع هذا ، فقد سأله يوما مستر « توماس كوبر»الانجليزى، عن سبب دعوته العنيفة وتوسله بالعنف والقوة لنضال الطغيان النمساوى ‥ ولماذا ، وهوالذى يبشربالحب ، والحب ، ثم المزيد من الحب ‥ لايدع العنف جانبا ؟ ‥

ان اجابة « متزينى » التى ستتألق فىالسطور القادمةتمنحنا يقينا جديدا باستحالة قيام أخلاق فاضـــلة فى أمة مضطهدة مستعبدة ‥ قال :

ـ « ان ماترجوه منا يامستر كوبر يجدى فى وطنك ، فأنتم قاومتم الطغيانمقاومةعنيفة ‥ وآباؤك قضوا عليه ‥ وعندكم

الآن مجلس نواب ‥ ولكم حقوق مكتسبة ، وقوانين معترف بها ، فلستم بحاجة الى استعمال الشدة واللجوء الى العنف ‥ وأنتم بارادتكم الحرة تنالون كل شىء ‥

« أما نحن هنا ، فأنى لنا مثل ذلك ؟!

« كيف نعمل فى هدوء والطغيـــان النمســـاوى جاثم على صدورنا بجيشه المثلث ـ الجواسيس ، والضـــباط ، ورجال الشرطة ؟ ‥

« وكيف السبيل الى التقدم التدريجى فى بلاد محرومة من الحرية ومن ابداء الرأى ٠ وليس بها مجلسنيابى ‥ وجامعاتها مستعبدة ؟ ‥

« وكيف السبيل الى الاصلاح وكل مصلح في متناول يد التنكيل ‥

وواصل « متزينى » حديثه الحق قائلا :

ـ « ان الذكاء يقضى عليه فى الطفولة ‥ والشبانالناشئون يبيعون يقينهم فى سبيل طلب السلامة ، ويبددون فضـــائل انفسهم فى التشبه بدون جيوان » !! ‥

ان عبارة « يبيعون يقينهم » تفيض تصويرا وتحذيرا ..
تصويرا للانحدار الخلقى الذى يحيق بالذين يفقدون حريتهم..
وتحذيرا للآخرين حتى لايفرطوا فيها ..

أجل ، ان بيع اليقين هو شر مايمزق كيان المجتمع المكبل ،
والمنفعة الدنيا هى القيمة التى تسيطر عليه .. وبسهولة يتحول
كل شىء مقدس فى الجماعة الى سلعة تافهة تباع بأبخس الاثمان.
كل شىء ، يقين الناس ، وأسرارهم ، ومصايرهم ، وأمنهم ،
فبالجاسوسية والارغام يجهز على كل هذه الحرمات التى ذكرناها
.. اجهازا لايعرف الرفق ، ولا يستجيب للشرف .. ويركب
فى الجماعة طبيعة سلبية تسلبهـا شيئا فشيئا القـدرة على
الاكتمال ..

فى المجتمعات الديمقراطية ، تلزم عمليات الكشف والاستطلاع
حدودا معقولة ، ويقوم بها بوليس عادى .. ولكى يذهب هذا
البوليس لتفتيش منزلك ، لابد له من استئذان النيابة مثلا..
أما حيث يجثم حاكم مستبد ، فأن الجاسوسية تقتحم كل مكان.
ويتنشقها الناس فى الهـواء ، ويجدون طعمها فيما يأكلون
وفيما يشربون ! ..

فى أيام الطغيان النازى ، كان معارضوه يستغنون عن تركيب
أجهزة التليفون .. فى منازلهم رغم حاجتهم القصوى اليها ..
وكانوا اذا اضطروا لاقتنائها يغطونها بالبطاطين .. لأن النازى
توصل الى اختراع جهاز يلتقط السمع عن طريق التليفون ،
حتى والسماعة موضوعة فوق حاملها .. (!!)

ولقد أفسد « هملر » الأسرة الالمانية افسادا جما ، اذ أسرف
فى نشر مخابراته حتى صار له فى كل بيت عين تتجسس له
وترى .. كانت الزوجة تتجسس على زوجها ، والولد على أبيه،

وهكذا في كل مجتمع مغلق ‥ كل مجتمع تحكمه مشيئة فرد أو أفراد لاتهيمن عليهم ارادة الشعب ، ولا يحلق فوق رءوسهم سلطان الجماعة ‥

أهناك سبيل لنشر الفضائل فى قوم تعمل فيهم تلك الاثافى المدمرة ؟ ‥

لا ـ فالمجتمع الذى يسلب يقينه ـ كما يقــول متزينى ـ لايجد في ذات نفسه من المعرفة وسلام النفس مايدعوه للارتباط بالفضيلة ، والسير فى طريق الرشاد ‥

ان الطغيان لايتحدى الفضيلة ، وحدها ، بل والايمان أيضا ‥ ولقد رأينا كيف أفضى اضــــطهاد البيض لزنوج أمريكا ، ببعض هؤلاء الزنوج الى الكفر بالاله اذا كان أبيض البشرة !!

بل لقد ذهب زعيمهم « ماركوس » ينفث فى القارة السوداء كلها عقيدة جديدة اجتمع حولها وآمن بها كثيرون من السود وهذا نصها :

ـ « ان دين البيض لم يوضع للزنوج ، ولايمكن اكراه هؤلاء على الاعتقاد باله أبيض ‥ ومسيح أبيض ‥ وملائكة بيض ‥

ولذلك يجب علينا أن نستبدل بهذا الدين دينا جديدا ، الهه أسود ‥ وملائكته سود ‥ « !! » ‥

والآن ، أديروا أبصاركم فيما هنالك من أمم فاذا وجدتموها حقلا بهيجا تترعرع فيه الفضائل الانسانية وتزجى عبيرها ،

فاعلموا أن من وراء هذا التفوق الخلقى حكما ديمقراطيا راسخا يشبهه رسوخ الجبال ‥ ووراء ذلك حرية تملأ صدور الرجال .

ومجتمعا يسير على صراط وطيد من مشيئته الحرة ، وفهمــه الثاقب ، وعزته الصامدة المهيبة التى لاتهضم ولاتنال .

وانا بعد استقرائنا المقروء ، لنستطيع الجزم بأن العــامل

الأكبر فى مد التفوق الخلقى للمجتمع الانجـــليزى هو ظفره المتساوق بالحرية ، وحرصه عليها بصورة لايكاد يكون لها نظير

.. فبينما تعرض بلد ، كفرنسا لهزات ضـاغطة ومديدة من الحكم المطلق الذى قام على السفك والتدمير رغم ثورتها الكبرى

من أجل الحرية .. نجد الانجليز قد أخذوا على عاتقهم ، وفى وقت مبكر جدا أن يلزموا ملوكهم وحكامهم حدودا أقاموها لهم ، وجعلوا كلمة الأمة ، هى القانون وهى الدستور ! ..

فى عام ـ ١١٩٩ ـ أراد الملك « حنا » أن يستبد ، ويجنح للحكم المطلق ، فقام الشعب كله ، ريفا ومدنا . فلاحين وبارونات

ورجال دين . وردوا « حنا » الى صوابه الآبق . وكتبوا وثيقة العهد الأعظم .. وفى مادته التاسعة والثلاثين سطروا بحروف من نور وعزم ..

ـ « الرجل الحرّ لايقبض عليه ، ولا يسجن ، ولا يجرد من ممتلكاته ، ولا يهدر دمه ولا ينفى ، ولاينال بأى ضرب من ضروب

الايذاء الا بناء على حكم صادر من أسويائه على مقتضى قوانين البلاد » . .

من ذلك اليوم البعيد جدا ، والنـــاس فى معظم الأرض يكرهون على الاعتراف بالنار والسيف . كان المجتمع الانجليزى

يحاكم المخطىء أمام هيئة من القضاة والمحلفين . وكان دستوره هذا العهد الأعظم الذى قرأنا الآن احدى مواده !! ..

اننى أبصر المنبع الدافق لعظمة الخلق الانجليزى ـ ومعذرة للذين لايرون الأخلاق الا تحريم النظر للمرأة ، والاختلاط بها ، فالانجليز بهذا المعنى قوم لاخلاق لهم ولا أخلاق ؟! ..

أقول : اننى أبصر المعين الثر لعظمة نفوسهم وأخلاقهم ، كلما

وقعت عيني على نصوص ذلك العهد الأعظم ، ثم كلما زاملت الروح المصمم المستبسل الذى نفذ به الانجليز عبر التاريخ الطويل نصوص ذلك العهد الذى ظل يتطور وينمو حتى استمتع الشعب هناك بحرية لا وجود لمثلها اليوم فى أى مكان آخر فى العالم ..

انظروا كيف تختم نصوص العهد على لسان الملك :

ـ « .. واذا لم نقم بتصحيح ماعساه يقع من مخالفة .. أو اذا لم يقم قاضى القضاة بذلك فى حال غيابنا خارج المملكة . فى مدة أربعين يوما من تاريخ ابلاغ ماوقع من مخالفة الينا .. أو الى قاضى القضاة فى حال غيابنا خارج المملكة ، يكون من حق البارونات الخمسة والعشرين ، ومن حق جميع النـــاس بالمملكة أن يحجزوا ويضيقوا علينا بكل الوسائل الممكنة ..

وذلك بمصادرة جميع قصورنا ، وأرضنا ، وسائر ممتلكاتنا حتى يتم تصحيح ماوقع من مخالفة » ! ..

منذ متى كتب ذلك لعهد ياقومنا ؟ ..

منذ ثمانية قرون .. وكما يقول « فيشر » فى كتابه تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى :

ـ « ان موضع الاهمية هنا أن طاعة الدستور على الصـــورة التى تمخض عنها العهد الأعظم ، ظلت ماثلة فى العقل الانجليزى جيلا بعد جيل » ..

لولا أن يخرج الكتاب عن غرضه وموضوعه ، لعرضت عليكم بعض المشاهد الباهرة للولاء المطلق الذى صان به الانجـــليز حريتهم خلال القرون .. فخذوا عنهم العظة والدرس . ولنذكر جيدا ، أنه لا أمل لمجتمع مافى أن يظفر بأخلاق كريمة أو حياة بهيجة الا بعد أن يقر فى أعماق وعيه ولاء دينى للديمقراطية

وللحرية وللدستور .. والا بعد أن يتوطد نظام الحكم فيه على أسس لاتنتقص من ارادة الشعب وارادة الحق ..

لا مقام للفضيلة فى بلاد يسوقها طاغية ..

لا أخلاق للبلاد التى يستطيع رئيس حكومة فيها أن يلغى فى شهر واحد ستا وأربعين صحيفة ومجلة .. ويسرح الاحزاب بكلمة واحدة تخرج من بين شفتيه المدللتين .. ويغتال السجناء

داخل سجون الحكومة برصاص الحرس الحكومى فى عهده السعيد .. (؟) كما حدث فعلا منذ قريب فى بلد عربى شقيق ..

ان الحكم الديمقراطى هو كما ذكرنا « المناخ » الأوحد للفضيلة ومكارم السلوك .. وكل انحراف فى تطبيق الديمقراطية يزامله انحراف فى سلوك الجماعة وحينما نرسل البصائر والأبصار ، تعود هاتفة بصدق ماتقول ..

اضرب لهم مثلا :

ونستطيع أن نأخذ من واقعنا عبرة ومثلا .. فالعبرة قد تردع الهوى والمثل يشحذ الانتباه ، ولن نكون بحاجة الى الايغال

فى ماضينا البعيد .. بل حسبنا أن نسير فى دروب تلك الفترة الأخيرة التى عاصرناها ، وعشنا فى دوامتها العاتية ، تقبل « ٢٣ يوليو » ذلك اليوم الذى حطمت فيه الثورة

طغيان القصر ، وطغيان الاقطاع ، والذى يبهرنا الآن بآثار ما تم فيه من عمل اذ نبصر الموقف الجليل الذى تقفه مصر الحديثة من قضاياها الكبرى .. كتسليح الجيش ، ونبذ الأحلاف العدوانية وانتهاج سياسة الحياد ، والاستقلال عن مشيئة الغرب وتحدى كبريائه وغروره ..

نقول : انه قبل ذلك اليوم - ٢٣ يوليو - كان طغيان

الحكم المتمثل فى الأسرة العلوية الكريمة ، وفى سدنتها وأشياعها ، يلقى على ضمير الأمة من الرزايا والسوآت مالا طاقة لها به ، ولا احتمال ..

ولكى تزيدنا الأمثلة ايمانا بأن الفضيلة في ظل الطغيان تهوى ، والرذيلة ترتفع ، فلنشاهد فى سرعة بعض هاتيك الملامح والصور ..

قلنا : ان كلمة الحق ، الكلمة الصادقة الشريفة هى ألد أعداء المستبد ، فلننظر صدق هذا فى أول حكام أسرة محمد على وفى آخرهم ..

كان السيد « عمر مكرم » مجاهدا باسلا شريفا ، أعطى وطنه من عقله وقلبه ونضاله فى بذل وسخاء .. وكان « محمدعلى » يثق به ثقة مطلقة .. كان يحبه ويقدسه ، وبفضله تسنم حكم البلاد .. وكان عمر مكرم قادرا على أن يكون مايشاء - جاها ، ومالا ، ونفوذا .. ولكنه وقد رأى طغيان الوالى الجديد يتهيأ للظهور ، وأخذه الخوف على مستقبل أمته وبلاده منعواقب ذلك الطغيان ، فقد وقف كالطود مسندا ظهره الى كل محاولات آبائه ضد الطغيان .. وخرجت الكلمات من فمه فى بسالة ووثوق لتقول لمحمد على : انك تتحول الى طاغية ..

- انك تضع الشعب فى جيبك ، كما لوكان المنديل الذى تجفف به معاطسك !!..

كانت هذه الكلمات الطاهرة ، هى الحق الذى يجبأن يعلن . والفضيلة التى تميز نوع زمانها ومكانها .. ولكن الوالىالصالح « محمد على » غضب على الحق ، وعلى قائله فأوغل فى مطاردة « عمر مكرم » ونفاه ..

ونسرع مع الأيام لنجد آخر ملوك الأسرة وطغاتها يمثل نفس المشهد ..

فذات يوم نذكره ، دب في نفر من رجال مصر دبيب الواجب ، وكتبوا للملك الذى كان صالحا (!) عريضة تهيب

به أن يساعد الأمة التى لم تسىء اليه ولا لآبائه ، على الخلاص من الأخطار التى تتهددها ٠٠ فانتفخت أوداج « فاروق » وأمر

أحد « الأغوات » أن يبلغ الحكومة رغبته فى تشريدهؤلاءالزعماء الآبقين ، ضاربا الذكر صفحا عن كل ماقدمه بعضهم اليه وإلى عرشه من خدمات كادت تعصف بحياتهم يوما ٠٠

ولكن ، كيف يقذفون فى وجهه الدسم بكلمة الحق ٠٠ وحدث مالا يحدث الا فى الأحراش والغابات ٠٠ اذ فوجىء الرأىالعام بكل هؤلاء السادة يطردون من مجلس الشيوخ طردا مهينا ! ٠٠

وهكذا نجد الجهر بالحق وهو ضرورى لتربية الأمة تربية خلقية سديدة ـ عملة زائفة محظورة التداول فى عصر الطاغية ـ أى طاغية ـ لأن السوق يجب أن تتسع فقط لعملته الرديئة من كذب ونفاق وخنوع ٠٠

أعيدوا تلاوة ماكتبه « سافونارولا عن طبيعة الطاغية،كيف يسرق الأرامل والأيتام ويظلم الشعب ؟ كيف يقتله الشك فيصطنع الجواسيس فى كل مكان ٠٠ ثم طبقوا هذ الكلمات على الأمس القريب ٠٠

ستجدون ملكا كان له سمت الملائكة بدأ ـ يوم بدأ ـ وكأنه قديس طهور ٠٠ ثم مالبث الطغيان الذى تقمص سلوكه وحكمه

أن حوله الى خنزير ٠٠ والى لص ٠٠ والى رئيس لفرقة ضالة من السماسرة والجواسيس !! ٠٠

وأعيدوا تلاوة ماكتبناه عن أثر الطغيان فى افساد القدوةعن طريق الرغبة ، أو عن طريق الرهبة ٠٠ وكيف أن الطاغية لايطيق أن يرى مثلا أعلى يخفق فوق بلاده فى صورة بطل، أو زعيم ٠٠

ثم انظروا صدق هذا فيما كان يحدث قبل أن تفتك الأمة بالعرش الرجيم ..

لقد ظل طغيان القصر يكيد ويمكر حتى اضطر زعيما قويا عنيدا أن يتوجه الى « كابرى » فى خشوع العابدين .. واضطر أديبا رائدا أن يمجد فى شغف « سلوكك الشخصى يامولاى»؟!

وأعيدوا تلاوة ماسطرناه عن تحدى الطغيان لكل فضيلة ،وعن اشاعته روح النفاق والملق والخداع فى الأمة ، ثم استعيدوا من واقعنا القريب بعض صوره ، وانظروا كيف كان النفاق والخداع يسودان ؟ ..

فمحمد على لم يكن غريبا نزح الى مصر لأن الاسلام هو وطن المسلمين .. وهو كمسلم حل أهلا ، ونزل سهلا ، وحمى اخوته المسلمين وعشيرته المؤمنين من الجور والطغيان !! ..

هكذا كانت الألسنة الطاهرة تقول للناس ..

وفاروق لم يكن يسرق .. بل كان يتبرع ..

وكما قلت لكم فى كتاب « الديمقراطية .. أبدا » كان فى مصر من الصحف ، ومن الزعماء ، ومن الأدباء ، ومن الكبار والصغار من اذا تفل الملك الصالح قالوا « تفضل حفظه الله وبصق » ! ..

ولست أذكر هذا لألوم من فعلوه ، بل ان الملامة لتضعف حجتى .. وانما أذكره تزكية لرأينا السالف ، وهو أن الطغيان

يكره الناس على رذائل قد لايريدونها .. ويطبع الجماعة كلها بسلوكه ومثالبه .. ويحولها الى شيطان أخرس حين تسكت

عن مظالمه ، أو شيطان ناطق حين تزخرف الباطل وتدافع عن غرور الطاغية وصلفه وفجوره .

ولقد بلغت الأمور بالناس فى تلكم الأيام المعتمة أن صار من

حسن الحظ ألا يكون لأحدهم أم جميلة ، أو أخت وسيمة ، أو امرأة حلوة ٠٠ لأن الملك « الأنانى » كان فى هذه المسألة وحدها

« غيريا » لايبارى ، ومن يدرى ؟ فلعله لو طال به العهد بيننا كان يصدر ـ حفظه الله أيضا ـ مرسوما بتأميم الأعراض !٠٠

اننا لانعدد مساوىء ملك غاب وذهب ، فقد كان من فضل الله علينا أن فعلنا ذلك فى أوانه مع الذين فعلوه مخاطرين ٠٠

ولكننا نبرهن على صلة الطغيان بالأخلاق من واقع حياتناالذى لم ينس بعد ٠٠

قلنا ان الطغيان يلجىء الجماعة الى السلبية ، ويجعل « اللامبالاة » من عادات سلوكها الراسخة المقيمة ٠٠ ولن تجد

فردا ، ولا جماعة تقود السلبية حياته أو حياتها ، الا ألفيت مأساة مفردة ٠٠

وان معنا من اليقين مايجعلنا نقول : ان الطغيان الطويل الذى تواكب على أمتنا والذى نرجو أن نظل مصممين على عدم عودته

٠٠ هذا الطغيان قد ترك فى نفسية شعبنا سلبية موغلة مستوطنة وسوف يحتاج الى سنين عددا نطلق له فيها الحرية اطلاقا كاملا ونستجيش خصائصه الأولى ٠٠ وقواه الحية

استجاشة دائبة ، لكى نستطيع أن نهزم السلبية الجاثمة على كيانه ونمتص منها العافية والحياة ٠٠

ان حريق القاهرة ، كان واحدا من عشرات المظاهر لسلبيتنا المضحكة المفجعة ٠٠ قوم عجزوا عن أن يحرقوا قيصرهم ٠٠ فذهبوا يحرقون أنفسهم ٠٠ وصحيح أن الذين اقترفوا مأساة

الحريق كانوا نفرا معدودا ٠٠ ولكنك كنت تبصر حول هؤلاء النفر حشودا هائلة من الجماهير لاتتحرك ، كأن هذا الذى تأكله النار ليس مستقبلهم وحياتهم !!

ولكن ..
ما على من لايطيق يرى ــ نور الوادى أو اكتئبا ..
وأيضا ..

لا أذود الطير عن شجر ــ قد بلوت المر من ثمره ..

هذا هو منطق « لا شعور » الأمة المغلوبة على أمرها دوما ..
ولقد كان ــ أيضا ــ منطق « لاشعورنا » والقاهرة تحترق ..

لماذا ندافع عنها ؟ .. كم حجرا نملكها فى تلك القصور التى تتداعى ؟ .. كم قرشا سنناله من البنوك التى تحترق ؟

والوطن ؟ .. ماذا يعنينا من أمر مستقبله مادام ليس وطنا لنا ؟ .. مادام لايمنحنا القوت ، والسلام ، والعدل ، والحرية ؟

أجل ، هذه هى الفلسفة الواعية التى أوحى بها «اللاشعور» المتخم بالمآسى الى وعينا يومئذ ، فوقفنا من الحريق كما لو كان مهرجانا يطلق صواريخه الفرحة البهيجة ! ..

ولقد حدثتكم عن الاشاعة التى تفسد فى الناس حين تروج ، ملكة الادراك وتشوه جمال الحقيقة ، وتدفع الناس الى الضلال والأفك زاعمة لهم أنه الهدى والفلاح .. فهل يعجزنا أن نجد مصداق ذلك فى تلك الأيام ؟ ..

كيف ؟ وهل كانت مأساة فلسطين الا اشاعة ؟ ..

لقد أراد الطاغية أن ينسى الأمة مباذله ، أراد أن يستنزف طاقتها المتربصة ، فى غرض بعيد عنه ، وأراد سوقا دنسة يستطيع أن يثرى فيها اثراء يليق بجلاله وجلالته ! ..

فليلق فى روع الناس أنه « حامى حمى العروبة والاسلام » وليخاطر ــ دون استعداد وجد ــ بجيش البلاد وسمعتها وشبابها ومالها ..
واقرعى ياطبول ..

فاذا الشعب كله يؤمن بصدق الأكذوبة ، وجدية الفكاهة ، حتى اذا وقف من بين الملايين المخدوعة رجل واحد فقط هو « اسماعيل صدقى » ليقول لنواب الأمة وشيوخها « تمهلوا وترووا ، فأنكم ذاهبون الى مقامرة باطلة » يبدو بهذه الشجاعة الفائقة ، جبانا ونذلا وخائنا ..

وهكذا تفعل الاشاعة دائما .. تحجب الحقيقة عن الناس فلا يرونها .. وهى كما قلنا العادة السرية للمجتمع المضطهد . ومن ثم فهو يعشقها ويهواها ويرى الحقيقة وقحة وثقيلة ، فيعرض عنها ويأباها !! ..

وقلنا ان الطاغية يدنس جميع القيم الفاضلة والسامية .. فلننظر كيف شوه طغيان القصر جمال الحرية ، ووضاءة الديمقراطية فى بلادنا ..

لقد رأى فى الحياة النيابية قدرا يقرع أبواب مصيره ونهايته ، فعمل فى مكر وخبث لافسادها حتى نكرهها ونكفر بها .. ومن ثم يستطيع التخلص منها فى يسر وهدوء (!!)

هنالك توغل فى الأحزاب فقسمها على ذواتها ، وأفسدها . وشد أزر الاقطاعيين وكبار البرجوازين ليغزوا البرلمان ويوجهوا سياسة البلاد .. وحرض على تزييف ارادة الأمة .. ودنس الدستور نفسه اذ جعله دثارا لجرائمه ، وبرفانا لعدوانه وطغيانه ..

لم يكن للدستور جريمة ، ولا للحياة النيابية ذنب ، ولا للديمقراطية جريرة .. ولكنه الطغيان يدنس كل طاهر ، ويطمس كل ظاهر ، ويمتهن الحق ، ويحترم الباطل ، وعلى أنقاض حقوق الانسان يشيد هرما باذخا لحقوقه هو ، وامتيازاته هو .. أما الجماعة ، أما الأمة ، فعبيد احسانه ، والمتمتعون بشرف غطرسته وطغيانه !! ..

ألا انه لدرس باهظ التكاليف ·· ويجب أن نحـذقه ولا ننساه ··

وان هذه الأمة التى مارست مع الطغيان تجربة شـاقة ، لتستطيع أن تمارس مع الحرية تجربة رغيدة ونافعة ·· والزمام اليوم فى يمينها ·· ونقطة البـدء أن تنظف مجرى النهر من جديد ·· نهر شخصيتها ، وسلوكها ، وتطورها ··

وكما جعلنا الخطوة الأولى لتكوين الفرد الأخلاقى تحريره من الخوف ··

فكذلك يبدأ تكوين المجتمع الأخلاقى بتحريره من القهر ·

والآن ، ونحن نرجو أن يكون قد وضح أثر طغيان الحـكم فى وقف النمو الخلقى للجماعة ، ننتقل الى طغيان آخر لايقـل عن أخيه سوء أثر وعاقبة ، بل قد يزيد ·· لأنه طغيان يفرضه المجتمع على نفسه ، ويقيم له الشعائر والمناسك ·· ومن هنا لايفكر فى الخلاص من أسره وأصفاده !! ··

الواجبُ .. لا القوّة

« يقول السيد الرب ، أنا لا أسر بموت الشرير ·· بل بأن يرجـع الشرير عن طريقـه ويحيـا ·· »

ـ المسيح ـ

فى هذا الفصل :

- حـدث خلال القرون · · ·
- الاسـتعمار الداخلى · · ·
- البيت · · · · · · · · ·
- المدرسة · · · · · · · ·
- الجزاء الاجتماعى · · · · ·
- الرأى العـام · · · · · ·
- ماذا نعنى بالواجب ؟ · · ·

حدث خلال القرون ..

خلال تطورنا الانسانى مررنا بمراحل وظروف زرعت فينا حنينا الى القوة وطلب الحماية .. لسنا وحدنا .. بل جميع أمم الأرض ..

ولا نكاد ندرى كنه هذه الظروف تماما .. أو لعلنا ندرى .. فالانسانية فى أيامها الأولى الحابية ، كانت شديدة الشعور بالضعف وبالخوف مما بين يديها وما خلفها وما حولها ..

كانت تخاف الرعد والبرق والمطر والرياح والوحوش والظلام والمجهول ..

وكنا ، أو بالأحرى كان آباؤنا أولئك ، يسرحون الطرف الوجل فى الأفق الأعلى .. أليس ثمت شىء يحرسنا .. شىء يحمينا ويهدىء روعنا ؟! ..

ويجيبهم زئير الفضاء مدمدما عليهم بمخاوف جديدة ..

ومع هذا ، فقد كان فى أعماق وجودهم صوت يهيب بهم ! تقدموا .. سيروا على أشلائكم .. خوضوا وسط مخاوفكم ..

ذلك صوت قانون عظيم لم يكونوا يومها يعرفونه ، ولقد عرفناه نحن اليوم .. انه قانون الواجب ..

ولندع الواجب الآن ريثما نعود بالحديث اليه ، ولنمض مع القوة لنرى كيف تغلغلت فى وجداننا الناشىء البعيد ..

ترنح آباؤنا اذن قرونا طوالا تحت ضربات القوى المجهولة واستحوذ عليهم شعور نام عريق بأن اليد التى تمتد لمساعدتهم وحمايتهم تكون صاحبة فضل عظيم ! ..

فاذا ظنوا الشمس القوة التى تدمرهم اذا سخطت وتحميهم اذا رضيت ، لاذوا بها ، وتبتلوا لها .. واتخذوها الها .. وغير الشمس من قوى الطبيعة وظواهرها ، حتى الحجارة ! .. فقد كانوا ينشئون منها معبدا ، وينصبون داخله الها خلقوه بأيديهم ، ثم يبعثون فى أنفسهم اقتناعا بأنه القاهر فوقهم ، المسكن روعهم ، المبرم لهم جميع الأمور ! ..

طالما شعروا من قبل بهوة تتعاظم مجتازها .. فراغ هائل موحش يفصل بينهم وبين سر هذا الكون المتعاظم المهيب .. ومع الأيام بل القرون كان هذا الفراغ يزداد جثوما وعمقا وتوغلا .. حتى جاء اليوم الذى لابد من ملئه ولو بأكذوبة ، ولو بوهم ، ولا يزال لهذا الفراغ بقايا رغم الذى حدث ..

ولكن ماذا حدث ؟ ..

ليس الكتاب الذى فى يدك كتاب تاريخ ، وحسبك ماتعلمه من تلك الأطوار التى صعد خلالها تاريخ الانسان خلقا من بعد خلق ، وطورا من بعد طور حتى جاء عصر الاستعمار السياسى الذى يثمره الغزو ورغبة الأمة الغازية فى سلب الأمة الجاثية .. وكان من أهم الأسباب النفسية الممهدة له بين الشعوب المغلوبة ذلك الشعور الدفين فى أعماق الناس ، الشعور بالحاجة الى ملاذ يكون أكثر قوة وأشد بأسا ، لتستقر فى كنف قوته وجبروته مخاوفنا وتطمئن هواجسنا .. وليس أدل على ذلك من أن الاستعمار فى يومه البعيد كان أملا يسعى اليه ، ورجاء تشد اليه الرحال ، وكان الضعفاء يدعون الأقوياء لاستعمارهم واستثمارهم نظير حمايتهم ، وأنتم تعرفون أنه من هنا نشأ الاقطاع ! ..

الحنين الى « القوى الذى يحمينا » هو اذن أمر تقليدى أويكاد

يكونه ، صاحبنا منذ نشأتنا البـاكرة ، ووجودنا الأول ..
ولكنه في صورته المهتزة الهلوع ، المستسلمة .. صفة البدائيين
الموغلين في القدم ، الذين كانوا يتسلقون الأشجار ، ويسكنون

الجحور .. فقد مضى الانسان يتخفف من أثقال هذه الحاجة
رويدا رويدا .. لأن قانون الواجب كان يستيقظ في وجدانه

كذلك رويدا رويدا .. وكلما استيقظ منه جزء ، زحف على
جزء من التعبد للقوة فمحاه وأخذ مكانه ..

ما النتيجة التي نريد بلوغها ؟ ..

هي ذي .. الأمم التي نبصرها اليوم شديدة التعبد للقوة ،
دائمة التوسل بها لتنظيم مجتمعها ، أمم غير نامية ، ووجدانها

المعتم غاص برواسب ماض سحيـق تحررت منه تلـكم الأمم
السباقة التي زحف الاحساس بالواجب على وجدانها فمحا آية
القوة أو كاد ..

ولقد صار مقياس تقدم الجماعات والأمم موسـوما بتفوق
خضوعها للواجب على خضوعها للقوة .. بل ان التقدم الانساني
كله صار اليوم رهنا بما يبذله من سعي حثيث للنأي عن القوة

والسير في موكب الواجب .. نحو أنفسنا ، والواجب تجاه
غيرنا .. ويكاد عمل الانسانية المعاصرة ينحصر في مواصلة

الكشف عن قانون الواجب ، واذكاء روح الاخلاص والمهارة في
تطبيقه واتباعه ..

أعسير علينا أن نأخذ مكاننا بين صفوف القافلة الزاحفـة
المتحررة من أثقال ماضيها ؟ ..

انه لسواء أن يكون الأمر يسيرا أو عسيرا ، هينا أو صعبا ،
فلا بد منه اذا أردنا أن نتطور وننمو . بيد أن الايمان بيسره
وامكانه يشد زناد الاقدام والسعي ، فلنفىء على أنفسنا هـذا

الايمان ·· ولسنا بحاجة الى أن نخدع ذواتنا ، ونستهويها بوسائل الاغراء والايحاء لكى تطمئن الى أن السير فى الطريق التى ذكرنا ، أمر لا مشقة فيه ·· فالحق أنه كذلك فعلا ··

أجل ، فكل سلوك يوائم طبيعتنا ، ولا يعارضها ، ويعبر عنها ، ولا يتحداها ، ويقوم على تعليتها ، لا على تحطيمها ·· يكون سهل المنال ميسور الأخذ ·· فهل ارباء الواجب على القوة من هذا النوع ؟ هل هو محاولة ضد طبيعتنا الانسانية أم فى سياقها ؟ ··

ألا انه ليس يسير فى سياق الطبيعة فحسب ، بل ويعبر عنها تعبيرا لابد منه ··

فالواجب ، كما يقول الفيلسوف ـ جويو ـ : « فيض فى الحياة يريد أن ينفق ·· وهو لايأتى عن اكراه أو ضغط خارجي ·· انه تعبير عن قوة طافحة تظهر الى الخارج فى حب وغيرية » ·

ونعود الى أنفسنا ـ نحن سكان هذه الرقعة من الأرض ـ مصر وما حولها ·· ماحظنا من الرواسب المضنية التى تجعل ايماننا بالقوة أرجح من ايماننا بالواجب ، وتجعل استجابتنا للقوة أكثر من استجابتنا للواجب ، هذا اذا كان للواجب فى حياتنا السلوكية مكان ؟ ··

ولسوف نجد حظنا منها ـ أعني تلك الرواسب ـ وافيا موفورا ·· وهى ليست فقط بقية مما خلفته البشرية الأولى فى وجدان الانسانية وضميرها ، فنصيبنا يزداد عن هذه البقية ازديادا متناسبا مع الظروف التعسة التى نجا منها الآخرون ووقعنا نحن بين أنيابها ومخالبها ، وتتلخص فى الاستعمار ·

لقد وقعت بلادنا تحت ضربات موصولة من غزو متتابع · ونحن حتى هذه الساعة لانزال ننفض عن معاصمنا قيوده وأغلاله ··

كم هو طويل وعتيد خيطهم الذى يتخلل نسيج حياتنا حتى اليوم ! ٠٠ فمن فرس الى يونانيين ، الى رومانيين ، الى أمويين فعباسيين ، فطولونيين ، واخشيديين ، وفاطميين ، وأيوبيين، فمماليك ، وعثمانيين ، وفرنسيين ، وانجليز ! ٠٠

كل هؤلاء مروا بنا ، وليس فيهم من لم يستقبله آباؤنا بالحفاوة والبشر ٠٠ لأن كل غزو قادم كان يمثل أملا جديدا فى الخلاص من مظالم الغزاة الأقدمين ٠٠ وهكذا أذكت الممارسة الكثيرة لهذه العادة الحنين الموروث عن البدائية المنقرضة ٠٠ الحنين الى « القوى الذى يحمينا » ! ٠٠

وكان هذا عاملا من عوامل استبقاء الايمان بالقوة والاعتماد عليها ٠٠ وليس ذلك فحسب ، فقد كان كل غاز يجيئنا حاملا تقاليده ، وسلوكه ، ومذاهبه ٠٠ ومهما يذكر عن تلاشى الحضارة الظافرة فى الحضارة المنهزمة ، فان الأمر بالنسبة لنا كان مختلفا الى حد كبير ٠٠ ربما لأن الغزو لم يكن واحدا يذوب فينا ونذوب فيه ٠٠ بل متكررا ، ومتعاقبا ٠٠ كان كليل الشتاء ، طويلا باردا ، فلا نكاد نفيق من استعمار حتى ينالنا استعمار غيره ، ولا نودع غازيا الا على قرع طبول غاز جديد !

لم نجد الفرصة اذن لانضاج ذاتيتنا ، وللتطور المنبثق من جماعة ملمومة الشمل ، موحدة الميل ، تدفع كرة حياتها فى تناسق وتعاون وادراك مشترك لوحدة الهدف ، واذا كنا ننسل اليوم من آخر أكفان الاستعمار الذى لبث فينا قرونا ، فينبغى ألا يعزب عن وعينا مدى الانطباعات التى تركها فينا والتى نعالج منها فى هذا الفصل أهمها وأخطرها على سلوكنا وأخلاقنا، ويتلخص فى هذه العبارة : « القوة ٠٠ لا الواجب !! »

ان استعمارا آخر أكثر ضراوة من الاستعمار الراحل ،

يحتل كل أركان حياتنا ، وقواه مبثوثة فى نفوسنا بشكل يدعو لليقظة والعمل الحاسم الفاهم ٠٠ وهو أكثر ضراوة وأشدتنكيلا لأنه لايلبس ثياب الاستعمار ولا يحمل أسلحته ، ومن ثم فهو لايثير من الضغن والتحفز والهجوم عليه مايثيره الاستعمار الآخر المنظور ٠٠ انه لايحتل مدائن ، ولا يسير فى شوارع فنلقاه ونحاربه ٠٠ بل هو يتقمص أجسانا وارواحنا ويسيرفى دمائنا ، فى ثقافتنا ، فى وجدان الجماعة وارادتها وادراكها ٠٠ ذلك الذى نسميه :

الاستعمار الداخلى ٠٠

ماذا نعنى بالاستعمار الداخلى ؟ ٠٠

اننا نعنى ذلك الحجر المضروب والوصاية المفروضة علينا فى الأسرة ، وفى المدرسة ، وفى المجتمع ، نعنى الرغبة الراسخة فى التسلط والاستعلاء والقاء الأوامر التى يجب أن تمتثل وتطاع ٠٠ وبعبارة موجزة نعنى « التربية عن طريق القوة » ٠

ان فى تربيتنا نقصا أساسيا شاملا ، ونعنى بكلمة «أساسى» أنه صميمى موجود وراسخ فى صميمها ، ومتخلل نسيج كيانها ٠٠ ونعنى بالشمول كافة أنواع التربية ومسالكها ٠٠ تربية البيت ٠٠ وتربية المعهد ٠٠ وتربية المجتمع ٠

فنحن جماعة تعتمد وسائل التربية والتعلية فيها على مبدأ مقدس ملتزم هو « لاتفعل » ٠٠

ولقد تناولنا جرائر الاعتماد على الحظر والتحريم فى كتابنا « هذا ٠٠ أو الطوفان » ٠٠ بيد أننا تناولناه هناك من زاوية الدين ٠٠ أى كشفنا عما يفضى اليه الاسراف فى استعمال

الحظر الديني من انحدار وانهيار .. ونريد هنا أن نتناوله من جانب التربية العامة والسلوك الاجتماعي اللذين يقومان على أساس باطل وفاشل من القهر والحظر ..

هناك في كل مكان وشارع من المدينة ، تقع عينك على كلمات مسطورة ، قد لاتثير اهتمامك ، ولا تنادي خواطرك .. ولكننا

هنا سنستمحك في أن تدير عليها خواطرك ، وتركز حولها انتباهك قليلا ..

انظر .. هذه اللافتات التي تجدها في قاعات المحاضرات ، أو صالات دور الفن من مسرح وسينما ، أو داخل مكاتب دواوين

الحكومة ، أو في أي مكان يضم مناسبة من المناسبات التي تقتضي النهي عن شيء ..

ستجد هذه العبارات « لاتدخن » أو « ممنوع التدخين » - « لاتبصق » أو « ممنوع البصق » - ستجد أيضا « ممنوع الدخول لغير الموظفين » ..

دع هذه الظاهرة لحظات .. وتعال الى ظاهرة أخرى ..

- هذه الأوامر والمنشورات التي تصدرها الحكومة - أي حكومة طبعا - والشركات ، والمؤسسات لموظفيها .. ستجدها

جميعا تنتهي بعبارة تقليدية هي « والحذر من الاهمال » أو « ومن يخالف يحدث له كذا ، وكذا » أو « وقد أعذر من أنذر » !!

ونغادر هذه الى ظاهرة ثالثة في البيت فنجد أكثر من تسعين في المائة يصدرون لأبنائهم الأوامر مشفوعة بالتهديد بالعقوبة اذا خالفوا أو فرطوا ..

هذه الظواهر العابرة تعطي صورة سريعة عن روح التربية والسلوك في مجتمع يكاد نصف أفراده يتحول الى أدوات نهي ونصفه الآخر الى أدوات تعذيب !! ..

فى سويسرا ـ مثلا ـ لايكادون يستعملون عبارة «ممنوع».

فحيث تقرأ هنا فى حدائقنا « ممنوع قطف الأزهار » ، تقرأ هناك هذه العبارة : « هذه الزهرة فى يدك تكون لك وحدك . ولكنها فى مكانها تكون للجميع » ؟! ..

انظر ! ان الفارق بين عبارة « ممنوع قطف الأزهار » والعبارة المتألقة فى حدائق سويسرا ، يمثل فى صدق الفارق بين المجتمع السويسرى ، والمجتمع المصرى ، والعربى ..
بين مجتمع تخلت القوة فيه عن مكانها للواجب ، وآخر تخلى الواجب فيه عن مكانه للقوة ..

وحدثنى صديق زار « لندن » وفى أحد أنديتها الليلية وجد العبارة الآتية مسطورة فوق احدى اللافتات : «اذا كنت من هواة وضع أعقاب السجاير فى فنجال القهوة ، فاخبرنا لكى نحضر لك القهوة فى « طقطوقة » السجاير » !!

والالزام والاكراه المبتديان فى ظواهر حياتنا ليسا عرضا طارئا .. بل عرضا مزمنا لعلة مزمنة وآفة لابثة مقيمة ـ وهذه الأعراض تنتشر على وجه المجتمع كالبثور ، فنراها فى كل أشيائه .. فى سلوكه ، وفى تربيته ، وفى ثقافته ، وفى تشريعه ..

فهل يصلح مثل هذا المناخ لتربيه أمة تربية سوية راسخة ؟ . .

أم أن الجهود المبذولة فى خلاله لايمكن فى أنقى ظروفها أن تمنحنا أكثر من زخرف وألوان ؟ . .

أجل ، انها لاتمنح أكثر من الألوان والزخرف .. وشجرة الحنظل لا تثمر الكمثرى ، والمجتمع الذى تنطلق دواعى سلوكه وحوافز تعليته وتربيته من الاكراه والخوف ليس أكثر من شجرة حنظل مريرة الثمر والظلال ..

ذلك أن القوة الزاجرة الراعبة حين تصير سياسة دائمة للبيت، وللمدرسة ، وللمجتمع فأنها لاتلبث أن تخلق ذلك الذى يسميه علماء النفس بالسلوك القتالى ..

أجل ان « السلوك القتالى » هو الهدية التعسة التى يهديها الارهاب للفضيلة !! ..

وهو الثمرة المحتومة لأرباء القوة على الواجب فى تقويم الجماعة ، والطامة الكبرى هى كما قلنا من قبل فى شيوع هذا السلوك وتحوله الى نهج عام للمجتمع ..

فنحن عندما تفرض علينا من البيت طاعة سريعة ضارعة مشفوعة عند ترددنا بضرب مبرح وقسوة لافحة ، يسبب ذلك جنوحا فى سلوكنا ، وانحرافا فى طبيعتنا .. بيد أنه اذا كانت

المدرسة حافلة بالبر والحنان .. والمجتمع تشيع فيه روح الود الخالص ، والتقبل السمح ، فأن آثار قسوة البيت تتضاءل ،

وتنكمش فى غمرة هذا الفىء الودود الزاخر الذى تحبونا به المدرسة والمجتمع .. أما اذا كانت المدرسة امتدادا للبيت

بقساوته ورداءته ، وكان المجتمع امتدادا للاثنين المدرسة والبيت، فتصوروا كم يكون المصير وبيلا ! ..

ان التلميذ الذى كان يدمن الهرب من بيته ومعهده ، والذى قال عندما سئل عن سر هربه واباقه : « انى فيهما منزلى ومعهدى لا أحس بحاجة أحد الى » ..

هذا التلميذ ، أو هذا العبقرى الصغير عبر عن سر كبير جد كبير من أسرار طبيعتنا الانسانية ..

فنحن بطبيعتنا نحيا حياة مساوية لشعورنا بكرامتنا .. ومن أكثر مناشط هذا الشعور اهتمام الآخرين بنا .. فاذا

نحن حرمنا هذه الاهتمامات الفياضة المبهجة .. بل اذا تحولت

الى اهانات متساوقة فى صورة أوامر تطلب الخشوع ، أو قسوة طاغية تشوه النفس ، فقد وضعنا أقدامنا على طريق الرذيلة مكرهين ..

ان شعار « القوة ، لا الواجب » جدير بأن ينزل عن مكانه فى عقولنا ، وفى عواطفنا ، وفى سلوكنا ..

ان ذلك الاستعمار الداخلى ، خليق بأن يرحل عن مجتمعنا لنبدأ بعد رحيله الذى لن نأسف عليه بناء مجتمع جديد حر شعاره ، « الواجب ، لا القوة » ..

فلنتعقب الآن معاطن هذا الاستعمار الداخلى وأوكاره .. واذا كانت من الكثرة بحيث لايتسع وقت هذه الصفحات لغزوهاجميعا ، فلنطارد أكثرهاأهمية ، وأحفلها بالخطرالمرقوب، وليكن أولها :

أ ــ البيت ...

مما يؤسف أن التطور الباهر الذى أحال بيوتنا من أكواخ واطئة الى قصور كالأبراج ، لم يزامله تطور مماثل فى روح البيت ومسلكه .. فالتقدم الشكلى فى بيوتنا يسير بخطى حثيثة ، بينما يتخلف بخطى قد تكون حثيثة أيضا ، تقدمها الأخلاقى والتربوى !! ..

أن تحسنا ما قد طرأ لا ريب ، ولكنه بالقياس الى ما كان يمكن أن يكون يبدو وكأنه لم يحدث شىء ! .. فهل نستطيع تفسير ذلك البطء البطىء ؟ ..

فى رأينا أن عجز البيت عن انجاب الطفل الصالح الذى سيكون بدوره أبا صالحا ، هو سبب مايعانيه البيت من توقف

عن النمو الأدبى الصاعد فالولد الفج غير الصالح يمثل فى المشكلة السبب والنتيجة معا .. فهو نتيجة للبيت الذى لم يحسن تربيته ، وهو أيضا سبب اخفاق أولاده الذين لن يحسن تربيتهم بدوره عندما يصير أبا ..

اننا نتوارث عاداتنا المنزلية بنفس السهولة والباعث اللذين نتوارث بهما أسماء الآباء والأجداد .. فكما أسمى ولدى باسم أبى ، ثم يسمى ولدى ابنه باسم أبيه .. نذهب على نمط مماثل فى توارث العادات وتساوق التقاليد .. والتطور الذى أصاب تقاليد البيت وعاداته لايزال بالنسبة لمعظم بيوتنا حدثا عارضا أو أمرا مريبا ..

واذا نحن أدركنا مدى صدق العلم فى كشفه عن أن معظم رذائلنا ومساوئنا الخلقية طول حياتنا انما ترجع الى خبراتنا المبكرة فى أيام الطفولة استطعنا أن ندرك تبعا لهذا ، المكانة الصحيحة للبيت ومدى الدور الذى يلعبه فى حياة المجتمع كافة ..

ان البيت المصرى ، بل العربى لهو أول المواطن التى تقطنها سياسة القوة وقانون الغابة ..

فليس فينا ذلك البيت الذى يجعل شعار تربيته « عامل ولدك كأنه كبير بالغ ، فان للطفل عزة وكرامة يذلها البطش ، ويهينها الاكراه » بل كلنا ذلك البيت الذى يقول ذووه « لا ترفع العصا عن ولدك ، واضرب الرأس فان فيها الشيطان » !..

وان الجهل الذى يملأ وعينا ليدعونا للحرص الطاغى على أن يكون أبناؤنا امتدادا لنا .. ومن ثم يبذل البيت كل جهده فى دعوة الولد الى محاكاة أبويه والانطباع بسلوكهما ، هذا فضلا عن عمل الطبيعة نفسها .. غير عابئين بالحكمة القائلة « لاتكرهوا

أولادكم على طباعكم ، فأنهم خلقوا لزمان غير زمانكم » ..

ويبدأ قانون الغابة فى البيت سالكا مع الطفل أحد طريقين أو كليهما : الأمر الصارم النابح الذى تسكته الطاعة السريعة الضارعة .. والعقوبة التى تبدأ بالضرب وتنتهى بأحداث عاهة جسيمة أو عاهة نفسية .. أو هما معا .. وما أندر البيوت التى ترتفع فوق مستوى هذين المسلكين مع أبنائها ..

والاسراف فى التوسل ، بكلا هذين المسلكين ، أو بأحدهما، يجعل من الطفولة ريحا مزروعة .. ونحن نعلم أو ينبغى أن نعلم أن من يزرع الريح يحصد العاصفة ..

أجل ، ان الضغط الذى يمليه البيت علينـــا ونحن أطفال لايخنق طفولتنا وحدها ، بل يخنق مستقبلنا كله ، فما الطفولة الا الخطوة الممهدة للرجولة المقبلة .. وهذه القماءة التى تميز معظم رجالنا انما هى نتيجة حتمية للطريقة الفاضلة جدا .. التى يربى بها البيت المصرى أطفاله وأكباده ..

من آداب الصين القديمة وتعاليمها المقدسة تعليم يقول :

ـ « أيها الأمير ، كن أميرا .. وياعبد ، كن عبدا .. ويا أب، أنت أب .. وياولد ، لست سوى ولد » !

توزيع جميل .. أليس كذلك ؟ ..

ان الطغيان ملة واحدة ، وأسرة واحدة .. طغيان الحكومة، وطغيان البيت ، وطغيان المجتمع ، كلها يشد بعضها أزر بعض، وهذه الحكمة الصينية تكشف عن تضامنها العتيد ..

بيد أن جميع عظماء الصين الذين صنعوا تاريخها الحديث والذين يصنعون ، كانوا من الأولى حطموا هذه الحكمة وداسوا بأقدامهم الباسلة قدسها الشريف ! ..

ولو أن « صن يات صن » أبا الصين وباعث يقظتها .. ولوأن

« ماوتسي تونج » العملاق الذى تشاد الصين الجديدة على يديه
٠٠ لو أن هذين وعشرات من طرازهما الذين عملوا ولا يزال

بعضهم يعمل لمجد أمته ٠٠ آمن بتلك الحكمةووقف عندها لظل
كما تريد له الحكمة الطاهرة أن يكون ٠٠ ولد قزم صـغير ٠٠

ولظلت الصين كأبنائها ، قرية كبيرة يطن الذباب الضارى فى
خوائها ، ويتدحرج ضحايا الأفيون فوق أرضها ! ٠٠

فاذا كان بعض سر عظمة هؤلاء أنهم لم يلتزموا حـــدودهم
كأولاد ، وأطفال ، فما أحرانا أن نرفع الحصار الضاغط والحجر

الغبى عن أطفالنا ليسيروا فى موكب النمو المفضى لعظمةالانسان
وعظمة الوطن ٠٠

على أن هذه الآفة التى نحن بصدد عرضها تمثل الوجـــه
الحسن من وجهى المأساة ٠٠ أما وجهها الآخر الدميم ، فصورته

تتمثل فى الهراوة والسوط ٠٠ فى القسوة التى لاتتسرب فى
أمر صارم فحسب ، بل وفى ضرب مبرح أليم ٠٠

فى زيارة لى لاصلاحية الاحداث ، تحدثت مع خمسة عشر
غلاما ٠٠ ووجهت اليهم أسئلة كنت قد أعددتها فى خاطرى ،
رجاء أن أصل بها وبالاجابة عليها الى غايات أريدها ٠ ٠

ولو أن الصدفة عقل يفكر ويبصر ، وأرادت اقنــاعى بأثر
القسوة فى افساد أبنائنا ، لما صنعت أكثر مما صنعته لى فى
ذلك اليوم ٠٠

لم أكن أتوقع أبدا ان تكون القسوة المؤذية هى التى أودت
بهم جميعا الى مثواهم الجارح فى تلك الاصلاحية ، قسوة الآباء
والأمهات ! ٠ ٠

حسبت أننى سأجد من الخمسة عشر ثلاثة ، أو خمسة ، أو
حتى عشرة يمثلون ضحايا قسوة البيت وارهابه ٠ ٠أما أن

أجد الخمسة عشر شابا من الطراز نفسه ، فقد كانت صدفة مذهلة حقا ..

سألت أحدهم :

ـ هل علم أبوك بمقرك هذا ..

فأجاب : نعم ..

ـ وهل يزورك ؟..

ـ نعم ..

ـ فى مواعيد دورية ، أم حسبما تسمح ظروفه ؟ ..

ـ فى مواعيد دورية ..

ـ فى أى أيام الأسبوع يزورك ؟ ..

ـ يوم الجمعة ..

وأنهيت محادثتى معه .. وأدرت حديثا عاما مع الجميع حتى رأيت أنه قد نسى حديثى الخاص معه ..

ثم ألقيت سؤالا موجا الحديث اليهم جميعا .. بل ومتعمدا اشعاره بأننى لن أشركه معهم فى الاجابة مكتفيا بما سعته منه .. وكان هذا السؤال هو :

ـ هل فيكم من يتشاءم من بعض الأشياء ؟ ..

ـ نعم ، وعدد سبعة منهم الأشياء التى يتشاءمون منها ، وكان صاحبنا من بين المتشائمين ..

واتبعت سؤالى السالف بسؤال آخر هو :

ـ هل تتشاءمون من بعض الأيام .. كبعض الناس الذين يتشاءمون من يوم الأحد .. أو من يوم الاربعاء ..

وأجابوا اجابات مختلفة لم أهتم لها طبعا ، لأن اشراكهم معى فى هذه الأسئلة بالذات لم يكن الا مناورة أهدف بها الى استخلاص اجابة صاحبنا « س » الذى أجاب قائلا :

ـ نعم ، أتشاءم من يوم الجمعة ..
وعدت أسأله :

ـ تتشاءم منه أم تكرهه ؟ ولما وضحت له الفـــارق بين التشاؤم والكراهية ـ نزولا على رغبته وطلبه آجابنى :
ـ بل أكرهه ..
ولعلكم لم تنسوابعد أناليوم الذى يزوره فيهأبوه كلأسبوع هو يوم الجمعة ؟!
عندما تبصرون فيالطريقأولئكالمشردين ، وجامعىالاعقاب، والحفاة العراة من غلمان كان يمكن أن يكونوا أشبالا ، فاذكروا ماتموج به بيوتنا من أسباب الفظاظة والغلظة والارهاب .. هذه التى تحفز الولد الى الهروب حيث يخسر أخلاقه ، ويتهيأ لتلقى مستقبله الذى لن يكون الا مسرحا لجرائمـــه المبهظة ، وجناياته على نفسه وعلى الناس !! ..

ووراء هـؤلاء عشرات الألوف لم يهربوا ، ولم يشردوا فى الطرقات ، ولم ينزلوا ضيوفا على الاصلاحيات ، بل هميجلسون هناك على مقاعد العلم فى مدارسهم ومعاهدهم ..

ومع هذا ، فهم يحملون جنوحا كامنا غير منظور ، وسلوكهم حين نبصرهونفحصه ليس الاضربا من الاحتجاجعلى مايتعرضون له فى بيوتهم من قسر وقهر ..

انظر الى شجارهم مع بعضهم،وتحرشهم بأنفسهم ، وتمردهم على أساتذتهم ..

ثم أنظر الى حيرتهم اذا كانوا كبارا ، والى فراغ نفوسهم ، والى خيبة أملهم التى تملأ وجوههم وسيماهم ..

ان ذلك جميعه وأضعافه معه ضرب من الاحتجاج غيرالمقصود على مايلاقونه هناك فى البيت من اعنات وتحكم وعدوان ..

لاتزال تربيتنا ترى من سوء الأدب أن يتحدث الصغار مع الكبار ..

فاذا أبدى الصغير رأيه مع ضيوف أبيه ، تلقى منه زجرا قاسيا : اسكت ياولد ! ..

واذا توجه الطفل بسؤال الى أبيه زجره أيضا سيما اذاتكرر السؤال ..

واذا رسب التلميذ - مهما يكن جده واجتهاده - فأن البيت يشتعل نارا تريد أن تحرقه .. مما يحمل التلميذ على الهروب أو الانتحار ..

فمثلا ذلك المواطن « أحمد حسن » لو لم يغلظ هو وزوجته على ولدهما « سعيد أحمد حسن » لرسوبه فى الدور الأول لامتحان الثقافة فى العام الماضى ، لما أشعل « سعيد » فى نفسه النار منتحرا .. ولما غادر دنياه المتعبة القاسية فى كفن من اللهب المشتعل المشبوب !! ..

وكم لسعيد هذا - غفر الله له - من أشباه ونظراء ..

ترى كم واحدا فى كل ألف منا يجد بين ذكريات طفولته مثل هذه المتعة الفذة التى وجدها بطل القصة الآتية :

- اقرءوا ..

- « علمنى أبى ، وكان عطوفا مدبرا ، أن ألهو بأشياء بسيطة .. وكان مما أهواه فى طفولتى أن أجمع شرانق الفراش

وأن أراقب فى الربيع خروج الفراش منها كأنها أزهار . وكان جهادها فى التخلص من سجنها يثير عطفى دائما .. وأتى والدى

يوما بمقص ، وأعمله فى غلاف الحرير المقفل على الفراشة وساعدها على الخلاص .. ولكن لم تلبث الفراشة أن ماتت ..

قال لى أبى : « ان الجهد الذى تبذله الفراشة يابنى لتخرج

من الشرنقة يخرج السم من جسمها ، واذا لم يخرج هذا السم ماتت الفراشة ٠٠

وكذلك الناس ، اذا جهدوا فى سبيل مايريدون ازدادوا قوة وعزما ٠٠ ولكن اذا واتاهم مايريدون سهلا طيعا غلب عليهم الضعف ، ومات منهم شىء جليل الخطر » ٠٠

« وأرانى اليوم أقدر على احتمال أرزاء الحياة لأن أبى علمنى منذ الصغر تلك الحقيقة البالغة » ! ٠٠

كم هو رائع هذا المثال ! ٠٠

ليس والدا مع طفل ، هذا الذى يتكلم ٠٠ ولكنه صديق يتحدث الى صديقه وزميل يتناجى مع زميل !! أما نحن فنحرم شبابنا من أهم مقومات الفضيلة حين نحرمهم من الثقة بالنفس واحترامها ٠ ٠وذلك بسبب المعاملة الجافة القاسية التى نعاملهم بها أطفالا ومراهقين ٠٠

وكم أما من بين آلاف الأمهات تستطيع أن تذكر ولدها فى غبطة وابتهاج وتعدد مناقبه فى نشوة وثقة كما فعلت تلك الأم التى تحدثت عن ولدها فقالت فى زهو وفخار :

ـ « كان الركن الذى يقوم عليه مذهبى فى تثقيفه هو أن أساس التربية جميعا هو الاعتماد على النفس ، وأن قوام الاعتماد

على النفس ، هو قدرة المرء على العمل بيديه ٠٠ وقد أخذت على نفسى عند مابلغ جون الثالثة من عمره أن أدرب يديه على العمل ، فكنت أنبطح على الأرض وأساعده فى بناء بيت من قطع الخشب ٠

كنت أدع له الرأى فيما يبنيه ٠٠ وكنت أنا أسدده وآبى الا أن تكون الجدران مستقيمة والزوايا قائمة والسقوف متينة ٠٠ فلقد أردت أن أعود أنامله على العمل الدقيق ٠٠ ولما بلغ جون الرابعة من عمره علمته استعمال الآلات ٠٠ وكنت أرى فى استعمالها تدريبا لليد والفكر معا ٠٠

« ومنذ نعومة أظفار جون وأنا أغرس فى ذهنه صورة من كل نظرية أو قاعدة ٠٠ ومنذ أيامه الأولى وأنا أعامله كرجل مهذب وقادر » !! ٠٠

اننا نحرم أولادنا ومجتمعنا من الفرصة الجزيلة التى تمكن من الفضيلة ، وذلك بما نسلكه تجاههم من قسوة مباشرة أو غير مباشرة ٠٠ وعلاقة الولد مع أبيه ومع أسرته ٠٠ تحدد

فيما بعد علاقته بالدولة وبالمجتمع ، فالدولة هى بديل أبيه عندما يصير رجلا كبيرا ٠٠ والمجتمع بديل أسرته ومنزله ٠٠

فاذا كانت علاقته السالفة بأبيه وبالبيت مشحونة بالبغضاء والحقد ، فأنها ستلبس نفس الثوب حين تكون مع الدولة والمجتمع

٠٠ ذلك أننا حين لا ننعم ونحن صغار بعطف آبائنا وتقدير ذوينا، نعيش حياتنا كلها فى خوف مستمر من عدم عطف الغير علينا٠

ويصاحبنا احساس ضاغط بسوء رأى الآخرين فينا ، ورغبتهم فى القسوة علينا ٠٠

وهكذا نسلب خير نعم الحياة وفضائلها ٠٠ نعمة التعاطف الاجتماعى الذى يظفرنا بنشاط مشترك متآزر يسعى بنا نحو غايات مشتركة صاعدة ٠ ٠

ويطارد « قانون الغابة » المنزلى الأبناء من الطفولة الى الشباب ٠٠ بل هو فى هذا الدور الثانى أكثر عدوانا وصلفا ٠٠

ونستطيع أن نقول أن الطفل فى بيوتنا ، أعنى معظمها، يفقد نصف شخصيته ، فاذا كبر وصار شابا فتيا فقد نصفها الآخر ! ٠ ٠

ذلك أن الطفولة بما فيها من ضعف يستدر الرحمة التى تشفع

لنا أحيانا لدى آبائنا ، فتخفف من حدة بطشهم واكراههم وأيضا فأن شعورنا بمالنا من حرية واختيار يكون فى تلك السن المبكرة

خافتا وقنوعا ·· أما فى طور شبابنا حيثينمو شعورنا بالحرية المسلوبة فيزداد عذابنا النفسى ·· وحيث يتخلى عنا شافع الطفولة الذى ذكرناه ·· فان احساسنا بوطأة الالزام والقهر يكون فادحا وثقيلا ··

مالون القسوة والاستبداد اللذين يسلكهما البيت معنا فى سن الشباب ؟؟ ··

انه اختيار الدراسة التى ندرسها ، وتعيين الوجهة والمصير!

فى الصيف الماضى وقف شاب فى مصيف رأس البر أمام « اللسان » ·· وكانت الشمس تتداعى مائلة للمغيب بعد يوم من أيامها الحافلة بالبذل والانفاق ·· وكأنما أسر مشهد الغروب لنفس فتانا حديثا ، فسرت فى كيانه قشعريرةرهيبة، مخرت عباب جسمه فى مثل سرعة الضوء ، وفجأة سأل نفسه :

ـ أأفعلها ؟ ··

لقد ذكره مغيب الشمس بأمل طواه الغروب ·· وانتهز الصراع النفسى الكامن فى نفسه فرصة الضعف المواتى فانقض على ارادته اللينة يريد أن يدفعها الى الفناء ··

وتمثل هذا الانقضاض المدمدم فى صرخات غير مسموعة انطلقت فى خواء نفسهنابحة : أجل ، افعلها ·· هاهو ذا البحر

أمامك ، لن تجد قبرا أرحب منه ، بل لن تجد « لا نهائية »تحلق فيها مشيئتك المعطلة سواه ! ··

ومن يدرى ، فلو أن هذه التجربة مرت بصاحبنا وهو هناك وحده لكان محتملا أن ننعته الآن بالفقيد وبالمرحوم ··

ان مأساة هذا الشاب مأساة الكثرة من نظرائه ·· يريدون للمستقبل طريقا ، ويصر آباؤهم على طريق ··

هم مثلا يريدون كليات الآداب ، أو التجارة ، وآباؤهم

يريدون الطب ، أو الهندسة ..

اننا لانسلب الآباء حق توجيه أبنائهم ، ولا ندعو لاهمال تجاربهم وخبراتهم .. بل نحترم لهم ذلك الحق .. وننصح الأبناء أن يضعوا تجاربهم وآراءهم موضع التقدير والاعتبار ..

لكن ذلك ينبغي أن يتم بأسلوب متكافيء ، لايشبع رغبة الأب بامتصاص رغبة الابن . ولا ينفس عن نزعة الوالد ، يخنق نزعة الولد .. بل بطريقة نعامل بها شبابا له عقل ووجدان وارادة لا دمى خشبية تعبث بها وبمصايرها أنامل الآباء !! ..

واذا كان لابد للوالد - أى والد - من سوق ولده فى الطريق التى يريدها ، فليكن من الفطنة بحيث يعد نفس فتاه ويهيئها للقبول في وقت مبكر مستعينا بوسائل الاقناع والايحاء وحدها ، حتى اذا أثمرت الوسيلة التى سيمارسها فى رفق من مبتكر الدراسة الثانوية على الأقل ، دفعه فى حصافة الى حيث يريد ..

وثمت صورة أخرى من صور « الاستعمار الداخلى » الذى يهيمن به البيت فى غلظة وعدم مبالاة ..

هؤلاء الفتيات اللاتى يدفعن الى أزواج لايريدونهن . أعرف « فتاة » كانت كالزهرة .. تقدم لخطبتها شيخ هرم فى مثل سن أبيها بيد أنه من ذوى الجاه والثراء .. ورأت الفتاة أنها ستكره على معاشرته والاقتران به ، فهددت أهلها بالانتحار . ولم يأبهوا لها ولا لتهديدها ، وزفت الى مصيرها فى ليلة حالكة السواد ، وبعد ستة أشهر طلقت من زوجها بعد أن أعلنت حربا على كل حرمات الحياة الزوجية ؟ ..

وبعد عام رأيتها صدفة فى الطريق ، فلم أكد أعرفها .. كانت مغبرة الوجه متسخة الثوب شاحبة الوجه متهالكة الخطى

٠٠ لاتزال مرارة تلك النظرة فى حلقى ٠٠ وسألت عن أمرها فيما بعد ، فعلمت أن أهلها رفضوها بعد الطلاق ٠٠ فأخذت مكانها كعضو جديد بين بنات الهوى المحترفات ٠٠ وأيضا احترفت تجارة المخدرات !! ٠٠

ولو أننا جندنا من رجال الاحصاء ثلة ليدركوا عدد اللائى يماثلن فتاتنا فى المأساة ، ويشاركنها فى المصير ، لتقطعت أنفاسهم اعياء ولما يشارفوا منتصف الطريق ! ٠٠

أين يعيش هذا الطراز من الآباء ، ومن البيوت ؟ ٠٠

فى غابة ، أم فى مجتمع ؟! ٠٠

فى قطيع ، أم فى أمة ؟! ٠٠

وهل تواتى الفضيلة قوما لهم مثل هذا السلوك ؟! ٠٠

اننا لانستطيع أن نطالب الحيوان بأن يكون فاضلا ، وعلى مستوى كريم من الأخلاق الرفيعة ٠٠ وهل الفتاة التى تعامل تلك المعاملة ، وتدفع كخرقة الثوب الى أحضان بعل لاتحبه ولا تريده ٠٠ هل مثل هذه تكون انسانا حتى نطالبها بمكارم الأخلاق ؟ ٠٠

لقد قام واحد من كبار علماء النفس والتربية بتجربةطريفة نقدمها هدية لبيوتنا جميعا ٠٠

انه أكره حصانا على أن يطأ فرسا قصيرة السيقان غليظة الجسم ، فبعد أن فعل ، أصيب أى الحصان باسهال مفاجىء ٠٠ ثم لبث بعد ذلك زمنا طويلا يتحاشى أن يقع بصره على تلك الفرس داخل الحظيرة ٠٠ وكان كلما مر بها أشاح بوجهه كأنه يعبر عن احتقاره لها ، واشمئزازه منها ٠ ٠

فاذا كان الحيوان يملك حسا جماليا يدفعه الى اختيار ماهو جميل ومناسب ، كما يدفعه الى الاشمئزاز من القبح ٠٠ أفليس

يملك الانسان شعورا بالجمال يلزمنا تقديره واعطاءه حقه وفرصته ؟ ..

ان معظم الخيانات الزوجية ناجمة عن هذا اللون البشع من الاكراه ، اكراه الفتيات على زواج لايردنه ، ولا يحملن له مودة ولا توقيرا ..

وهذا الحكم لانصدره عفو الحديث ، ولكنه صورة يقين أثمرته الشواهد والمثلات ..

ولذلك الاكراه سمات شتى ، فليس هو فقط ذلك الذى يعتمد على العقوبة والتهديد والارغام .. بل ان منه ذلك الذى يجىء عن طريق الخداع ، والاستهواء ، والتخدير الذى يسلب البنت ارادتها مؤقتا ثم تفيق بعد ذلك لتجد نفسها بين ذراعى .. أقصد بين جناحى غراب مفزع دميم ! ..

لابد أن يعرف البيت واجبه من جديد ، ويسوس ذويه وأبناءه بوحى من الواجب ، لا بسلطان من القوة ..

ان بيوتنا تسلك سلوك الفتى المراهق الذى يستطيع أن يسير فى غبطة عشر ساعات على قدميه مع مظاهرة تصفق وتهلل معرضا نفسه بذلك للأذى والضنى وسوء الحساب، ولكنه يعجز عن أن يجلس ساعة واحدة مستقبلا مسألة رياضية يحلها ، أو نظرية علمية يهضمها ! ..

هكذا بيوتنا ، فهى تفر من الوسائل السليمة للتربية والتقويم، لأن هذه الوسائل تحتاج الى مصابرة وحلم وجهد ، وتتوسل بالقوة والقسوة لأنها لاتكلف أصحابها سوى حمل العصا ، واصدار الأوامر !! ..

ان تكوين العادات الصالحة ـ مثلا ـ أجدى على التربية من الارهاب ، فهل تستطيع بيوتنا أن تسلك بنا هذا السبيل ؟

طبعا لا ؛ ففاقد الشىء لايعطيه ، والبيت المصرى بل العربى لايزال يفقد العادات الصالحة حتى بين الآباء والأمهات ! ..

هنا القوة يارجال ويا آباء ..

القوة الشريفة التى تجعلكم قدوة تحتذى ، فهل تغلظون على أنفسكم قليلا لتبلغوا ذاك المستوى ؟ ..

اننا نفعل العكس تماما .. وهنا تنقلنا المناسبة الى لون آخر من ألوان القوة الطاغية فى البيت وما يؤديه من خدمات ضارة! .

فالواقع أن الآباء لايستعملون العنف مع أبنائهم وحدهم . بل كثيرا مايقـــع العنف على الأم أيضـــا .. وانى لألقى سؤالا :

عندما يتشاجر الزوج مع زوجه ويـكون من كرام الازواج ماذا يفعل ؟ ..

انه يفض الشجار بالانسحاب ومغادرة البيت مؤقتا ..

ونحن نعتبر هذا منه سلوكا كريما ، والحق أنه كذلك فعلا اذا قورن بسلوك الرجل الآخر الذى يفض الشجار بشج رأس زوجته أو اهدائها عاهة دائمة فى جسمها ! ..

ومع هذا ، فانظروا مايسببه ذلك السلوك الكريم من جرائر وجرائم ..

ان أولادنا الذين يهربون من بيوتهم ، ويخسرون أخلاقهم ، وقد ينتهى بهم المسعى الى احدى الاصلاحيات ، لم يفعلوا فى الواقع أكثر من تقليد آبائهم ..

فلطالما رأى الولد أباه يهرب من الشجار الى الشارع ريثما تهدأ أعصابه ثم يعود .. فتكونت فى وجدانه فكرة عن أن الفرار من البيت هو العلاج الحاسم لما يلقاه من اعنات وشجار

.. بيـــد أنه لن يكون مؤقتـا كهروب أبيه الذى لايزيد عن ساعات ..

وانما سيكون هروبا يناسب سن الفتى واضطرام عواطفه ، وضآلة مسئولياته ..

فسياسة القوة اذن فى كافة أزيائها ، عمل تخريبى للأسرة وللمجتمع ، وتمهيد موفق لنشر الرذيلة بين الجماعة كلها ..

وتستطيعون أن تضيفوا لما ذكرنا من عواقب « الاكراه المنزلى » تلك الامراض النفسية المدمرة التى تدمغ بها القســـوة نفس

الشاب وحياته ، من عصـــاب ، الى صرع ، الى انحراف ، الى سلوك قتالى لايحيا صاحبه بغير عدوان ..

اننا بقانون الغابة الذى نستعمله مع أبنائنا نملأ بواطن أنفسهم بالصراع الذى لايكاد يفارقهم أبدا .. والصراع الداخلى فى النفس يضعف القدرة على أداء الواجب ثم يلاشيها ..

ولو نعرف نحن مداخل هذا الصراع وتعبيراته لأدركنا أننا بقسوتنا على أبنائنا فى أى صورة من صور القســوة ، نهيىء المجتمع لحريق لايبقى ولا يذر ..

فمن بين مرضى العالم « أوجست أيكهورن » مؤلف كتاب « الشباب الجامح » نلتقى بشاب يصلح أن يكون عبرة لنا ..

وليس موطن العظة فى نبأه خطورة مسلكه ، بل غرابة الاسلوب الذى عبر به « اللاشعور » عن انتقامه من أبيه ..

ولنبدأ القصة ذاكرين أن القسوة التى وجدها الولد من أبيه فى هذه الواقعة لاتكاد بالنسبة لما يقترفه الآباء تسمى قسوة .. فكل مافي الأمر أن أم الفتى توفيت ، وتزوج الأب فتـاة كانت صديقة للأم الراحلة ، وكان الولد يحبها وأبوه لايدرى .

وأخذ هذا التصرف البرىء طبعا صفة القسوة فى «لاشعور»

الولد ٠٠ ثم لم تلبث أن تكونت فى « اللاشعور » أيضا رغبة فى الانتقام ٠٠

ما الشكل الذى برزت به هذه الرغبة المكبوتة الى مسرح الشعور ؟ ٠٠

لقد كان الوالد يحترف تجارة الكحول غير النقى «السبرتو» فكان الولد يسرق الكحول الاحمر من زجاجاته ، ثم يبول فى الزجاجات الفارغة ليملأها بسائل يشبه فى لونه الكحول المسروق !! ٠٠

يقول « ايكهورن » الذى قام بتحليل الشاب وكشف عن لا شعوره :

« ان الفتى قد استخدم فى الانتقام ـ دون قصد منه ـ نفس العضو الذى أحس أن أباه قد أساء اليه بسببه »!؟

سلوك فى منتهى الغرابة يقرع أجراس الحذر والنذيرلندرأ بالرفق والواجب ماعسى أن تدفعنا القسوة اليه من تهلكة وبوار ٠٠

والآن ٠ ماذا ينبغى أن نصنع لتطهير البيت والأسرة من هذا الذى وصفناه بقانون الغابة ، وبأى سبيل نتوسل لانشاء علاقات منزلية جديدة تهتدى بالواجب ولا تتخضع للقوة ٠٠

السبيل أن ننشر عن طريق الاذاعة ثقافة منزلية واسعة ٠٠ نبلغها فى كافة ألوان النشاط الاذاعى ـ المحاضرات ، والتمثيليات، والأغانى ٠٠

والسبيل أيضا أن نوصى الأدب الموجه ليشبع حاجات هذا الغرض بالقصص القصيرة والطويلة ، وبالبحوث العلمية ، فى المقالات وفى الكتب ٠٠

وعلينا أن نلاحظ بطء هذه الوسيلة التثقيفية ـ ولذا فنحن

فى حاجة معها الى وسيلة أخرى تكون سريعة الأجداء ، ونحن نرى أن تكون هذه الوسيلة « مكتب العلاقات المنزلية »..

ماذا نعنى بهذا المكتب ؟ ..

قبل الاجابة عن هذا السؤال أقول لكم أننى هممت أن أسميه « محكمة العلاقات المنزلية » بيد أننى تذكرت المنهج الذى أسير وأدعو للسير عليه .. ألا وهو حذف القوة ورفع سلطانها ما وجدنا لذلك سبيلا ..

وشىء آخر ، فنحن لانريد أن تأخذ الاخطاء المنزلية صفة الخصومة بين الولد ووالده . وكلمة محكمة ووظيفتها أيضا تشعران بالخصومة التى تتطلب المقاضاة ..

ان مكتب « العلاقات المنزلية » ضرورى لحياتنا وهو اليوم أكثر ضرورة منه غدا ، وضرورته فى غد أكثر منها بعد غد ..

أما وظيفته وعمله ، فتكون تقديم النصيحة والمشورة الملزمة فى الحالات التى تعرض عليه ..

وما هذه الحالات ؟ ..

اليكم أمثلة منها :

« زينب » فتاة مضيئة يمكن لو تزوجت زواجا موفقا أن تكون سيدة فاضلة ، وأما لفتيان ناضجين . ولكن أباها يريد أن يقحم حمى حياتها رجلا لاتريده ..

فلماذا نتركها لنزوة أبيها اذا كان سىء الاختيار ، ولماذا - أيضا - نتركها لسوء فهمها اذا كانت سيئة الفهم والتقدير .

لماذا لايكون هناك من الاخصائيين الذين يزخرون بالود الانسانى ، وبالوعى والمقدرة ، من يفصلون فى هذا الاتجاه المنقسم ، والخلاف الضار ؟ ..

اذا زفت « زينب » لعريس أبيها (!) أعنى للرجل الذى يريد

الوالد أن يفرضه عليها ٠٠ ثم آل أمرها وانتهى مصيرها لمثل مصير التى ذكرت لكم نبأها من قبل ٠٠ فمن الذى سينوء بفسادها ، وانحرافها ؟ ٠٠ ومن الذى سيجنى العلقم من سلوك أبنائها الذين سيرضعون منها لبان الأفك المستهتر والحقد الضارى ؟ ٠٠

انه المجتمع والدولة ٠٠

اذن لماذا لايتدخل المجتمع فى صورة مناسبة لا تأخذ صفة العدوان على الحرية والحق المكتسب ؟ ٠٠

ومثالا آخر :

« توفيق » فتى ريان الشباب ، متوقدالذهن ، مشرق النفس، لو سار فى الطريق المرغوب لأمكن أن يتطور الى نبوغ عظيم قد يهب أمته مثل ماوهبوا أممهم والانسانية جميعا رجال مثل « أديسون » و « شكسبير » و « اينشتاين » و « شابلن » !

ولكن أباه لايريد أن يمضى فى الطريق المرغوب الذى تتحرق شوقا اليه كل مواهبه وامكانياته ؟ ٠٠

ان المأساة التى تملأ نفس « توفيق » بالفجيعة ليست فقط فى أنه يدفع عكس هواه ٠٠ بل هى قبل هذا شعوره التعس بفقدان النصير ! ٠٠

لماذا لايناصره المجتمع ويعينه على أبيه اذا كان مخطئا ، أو يقنعه بوجهة نظره ان يكن مصيبا ؟ ٠٠

ان « مكتب العلاقات المنزلية » يستطيع أن يقوم بهذا العمل الجليل ٠٠ ورأينا أنه بما سيمنح من سلطات معقولة ، يستطيع أن يحل أكثر مشاكل الشباب ٠٠ تلك المشاكل التى تغوص فى نفسه ثم توجهه أضغانها الى كل عمل تخريبى عقيم ٠٠

وطبيعى أننا لانعنى بمكتب العلاقات المنزلية ، مكتبا واحدا

فى مكان واحد .. بل سيكون مكاتب كثيرة متعددة حسب تعدد الحاجة اليها ..

ولقد قلنا من قبل : اننا نؤثر تسميتها « مكاتب » لا «محاكم». وهذا فيما يختص بالمشاكل القائمة بين الأبناء والآباء ..

الأبناء الذين يوجهون رغم أنوفهم .. أو الذين يهمل الآباء شأنهم لأنهم أبناء الزوجة القديمة ؟! .. أو الفتيات اللاتى يكرهن على زواج بغيض ..

ولكن الى جوار هذه المكاتب ينبغى أن تقوم « محاكم العلاقات المنزلية » ، أو « محاكم الأسرة » ..

وقبل أن تسألونى عن اختصاصها .. أقول : انه ينبغى أن تقوم على أنقاض المحاكم الشرعية ، والمجالس الملية .. أظنكم أدركتم الآن اختصاصها ؟ ..

وأرجو من الذين سيعارضوننى أو ينفرون من رأيى هذا أن يلاحظوا كلمة « ينبغى » .. اننى هنا ، وفى كل مناسبة أبدى فيها رأيا أراه ، لا أستعمل كلمة « يجب » بل أقول «ينبغى»..

ذلك أننى لا أحب أن أفرض على أحد رأيى ، مادمت أرفض أن يفرض أحد رأيه على .. وكم أنا شديد الرجاء والرغبة فى أن تنتقل هذه العدوى للنقاد والمعارضين جميعا ، لتستحيل الحراب المتلاحمة فى معركة الرأى الى شموع نبصر فيها مسالك المعرفة والحقيقة ..

مامعنى أن يقوم فى بلد متحضر محاكم خاصة للمسلمين ، ومحاكم خاصة لغير المسلمين ؟.. (١)

---

(١) ألغت حكومة الثورة المحاكم الشرعية ، والمجالس الملية ، وقامت بتوحيد القضاء فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ اى بعد ظهور الطبعة الأولى بسبعة أشهر ..

ومن الذى بدأ فصنع هذه التفرقة حتى نعرف الغرض الذى وضعت التفرقة لخدمته ؟ ..

وما معنى أن نكل بأخطر قضايا المجتمع وأهمها شأنا، وأولاها بالتقدير والاهتمام - وهى مشاكل الأسرة - الى نفر من الشيوخ، ومن القسس، لم تؤهلهم دراساتهم تأهيلا كافيا لادراك المشاكل التربوية، والنفسية، والسلوكية، والاقتصادية التى تعتمل فى الأسرة وتفرز كافة أخطائها وانحرافاتها ؟ ..

وكيف ننشد « وحدة الشخصية » وهى بداية السير فى طريق الاكتمال الخلقى للفرد وللجماعة ..

أقول كيف ننشد « وحدة الشخصية » لمجتمع ممزق الكيان، هنا محاكم المسلمين .. وهنا محاكم النصارى ؟ ..

واذا كانت هناك ضرورة تدعو لتطبيق المنهج الدينى فى قضايا الأحوال الشخصية، المنهج الاسلامى والمنهج المسيحى، فلماذا لا يوحدان فى قانون يحكم به قاض واحد ومحكمة واحدة .. بدلا من أن يكون هناك قاضيان، مسلم ومسيحى .. ومحكمتان، شرعية وملية !! ..

حقا انه « كرنفال » نصفه فاجع ونصفه مضحك ..

ثم من قال ان مشاكل الأسرة أحوال شخصية ؟! ..

شخصية ؟! ..

ان البيت هو المجتمع، والعائلة هى الأمة، وليست خلافات المنزل والعائلة أحوالا شخصية تمس شخص الزوج أو شخص الزوجة .. انها مشاكل الأمة والدولة والمجتمع .. انها أولى بالاهتمام والعناية من قضايا تزييف النقود وخلط الدقيق ..

فلنذكر أن الأسرة ليست من الهوان وضعة الشأن بحيث تمنح ركنا جانبيا، وعناية هامشية ..

واعلموا أيضا أن هذه التفرقة فوق تحطيمهاللوحدة القومية، ووحدة الشخصية ، فأنها تفتح للرذائل الخلقية كل باب ..

أسمعتم عن بيوت الطاعة ؟ انه قانون المحاكم الشرعية ، مع الاعتذار لكلمة قانون حتى وهى مضافة لكلمة الغابة (!!) ..

لقد رأيت مشهدا لن أنساه .. فتاة فى ربيع صباها بنت أسرة كريمة فاضلة تفر مذعورة بقميص النوم الى سطح المنزل ، ثم تقفز من السطح فى مخاطرة بشعة الى سطح منزل مجاور .

أتدرون لماذا ؟ ..

لأن أهلها فوجئوا بزوجها الخبيث الماكر يقتحم البيتخلسة من النافذة ومعه رجل الشرطة ، لكى يقبض على زوجته التى يسميها قانون المحاكم الشرعية .. « ناشزا » ولكى يسوقهاالى سجن الطاعة .. معذرة أريد أن أقول بيت الطاعة ؟! ..

ألم أقل لكم من قبل انها بلاد السمع والطاعة ؟ ..
مجتمع هذا ، أم « منسر » عظيم ؟؟ ..

وكيف نوفق بين صراخنا العالى بضرورة التقدم ، والسير فى قافلة الحضارة ، وبين اصرارنا على هذه العاديات القـديمه ، والزواحف المنقرضة ؟! ..

قد يبدو لنا صعوبة تنفيذ اقتراحنا الداعى لالغاء محـاكم المسلمين ومحاكم النصارى .. واستبدالها بمحاكم الأسرة ، أو بمحاكم العلاقات المنزلية .. ولكن الأمر جد يسير ..

فعدد المحاكم الشرعية فى الاحصاء الرسمى لعام (١٩٥٠) هو - (١١٩) محكمة ..

ليكن تعداد وظائف القضاء بها حوالى مائتى قاض ..

وعدد المحامين الشرعيين فى احصاء عام (١٩٥٠)هو(٣٠٠٨) يترافعون أمام محاكمها العليا والكلية والجزئية ..

لنقل انهم الآن حوالى (٤٠٠٠) محام .

وعدا القضاة والمحامين يوجدالموظفون الكتابيون والاداريون .

أما هؤلاء ، أعنى الكتابيين والاداريين ، فيمكن وضعهم فى أعمال مماثلة فى المصالح الحكومية الكثيرة ..

وأما القضاة والمحامون، فاذا افترضناجدلا ، أنهم سيسرحون، فان مستقبل وطن بأجمعه لايمكن أن يبخل عليه بهذه التضحية ..

على أن الأمر لايقتضى هذه التضحية بحال ، ولنفرض أننا نريد من اليوم ان نبدأ تنفيذ الاقتراح وعندئذ تكون الخطوات المطلوب انتهاجا هى :

(١) وضع التشريع الموحد الذى ستحكم به « محاكم العلاقات المنزلية » ..

(٢) توزيعه على القضاة القائمين وعلى المحامين لدراسته .. واعطاؤهم فترة مناسبة لهذه الدراسة ..

(٣) تحويل جميع قضايا المجالس الملية والمحاكم الشرعية الى المحاكم الجديدة التى ستحكم بقانون جديد ، ليس هو قانون الشيخ .. ولا قانون القسيس .. بل قانون الدولة ..

(٤) شغل المناصب القضائية التى ستخلو فى هذه المحاكم بموت أصحابها أو بتقاعدهم ـ شغلها بخريجى كليات الحقوق

مع افساح دراستهم القانونية لتوجيهات الدين وعلم النفس ، وعلم الاجتماع فيما يخص مشاكل الأسرة بصفة خاصة ..

وأما المتخرجون فى كلية الشريعة بالأزهر ، ففى مهنة التدريس متسع لهم .. ويمكن أن يتاح لهم اجراء « معادلة » تمكنهم من وظائف القضاء اذا شاءوا .

ان قضاء البلاد ينبغى أن يوحد ويهذب ..

ومحاكم المسلمين ومحاكم النصارى ، ينبغى أن تتحول من فورها الى محاكم الأسرة أو العلاقات المنزلية ، التى ستكون بدورها جزءا من قضائنا العام ومحاكمنا الوطنية ..

ولابد من تشريع جديد لهذه المحاكم يلائم روح بلادنا الجديدة، ويزامل تطلعها المصمم وشوقها الزاخر الى مستقبل لا لغو فيه ولا تأثيم ..

فاذا كان النزاع - مثلا - بين « بطرس » وزوجه « مارى » وصارت مصلحة الأسرة والأولاد تحتم التفريق بين مارى

وزوجها .. فليكن القانون من الفطنة والقوة بحيث يفصل بالطلاق ، ولو كان السبب شيئا آخر غير الخيانة الزوجية ..
هل يعتبر هذا خروجا على الكتاب المقدس ؟ ..

ليكن ذلك ، فالكتاب المقدس لم يقل الكلمة الأخيرة فى كل شىء ؟ ..

واذا كان النزاع بين « أحمد » وزوجه « فاطمة » واقتضت مصلحة الأسرة والأبناء أن يحرم على أحمد الاقتران بالزوجة الثانية التى يريد الاقتران بها مثلا ، فليكن القانون من الذكاء بحيث يحرم باسم المصلحة العامة ماجعله الدين مباحا !..

هل سيغضب ذلك العمل أبا حنيفة والشافعى ومالكا ؟ حسن .. انهم أيضا لم يقولوا كل شىء ..

أما أن نترك بيوتنا وأجيالنا وديعة نصوص واتجاهات استنفدت أغراضها ، فعمل غير صالح . وضلال يفضى الى ضلال ..

وبهذا نضع حدا لرذائل الذين يتوسلون بتغيير الدين والعقيدة لمفارقة زوجة ، وتشريد ولد ، وهدم أسرة ! .. ونضع

حدا لرذائل الذين يسرفون فى الطلاق ، ويسرفون فى الزواج .

ان مجموع المطلقات فى عشر سنوات أخيرة بلغ فى بلادنا - حسب احصاء الحكومة - (٧٧١٨٥٣) .

فاذا افترضنا أن ثلث هؤلاء المطلقات بلا ولد ، وجعلنا متوسط الذرية للأخريات ولدين .. لزاد محصول مصر من الأطفال المشردين أو أشباه المشردين بسبب الطلاق فى هذه الأعوام على المليون !! ..

ثم ان المأساة لاتجف بهذه الارقام المفجعة .. فقضايا الطلاق المنظورة فى عام واحد بلغت (١٨٨٢٢٧) وكثيرا ماينتهى الحكم فيها بالطلاق !! ..

ان بيوتنا آبار عفنة تضج بالافاعى والجراثيم .. والمحاكم الشرعية بنظمها والمجالس الملية بقوانينها تحمل من أوزار هذا التدهور مايحتم على الدولة اعفاءها من مهمتها ، وتطويرها الى ماذكرنا من محاكم جديدة للأسرة ، ذات نهج أسمى وتشريع أنضج ..

ب - المدرسة :

فاذا غادرنا البيت باعتباره مكانا للقوة المستعلية على الواجب الى مكان آخر يحمل نفس السمت ، التقينا بالمدرسة ..

والحق أن المدرسة عندنا مكان تعس لطلاب تعسين ، فهى تستقبل شبابا يحمل فوق كاهله الوهنان أثقال البيت وحماقاته ، كما يحمل فى أحيان كثيرة آلام عوزه وخصاصته ..

وهى أى المدرسة خاضعة لقانون القوة وسياستها ، خضوعا يسلبها نعمة الشعور بالواجب ، فضلا عن أن تهدى اليه ، وتدعو له ..

فالاستعمار الداخلى فى نطاق التربية والتعليم يطغى ويتمدد حتى يخنق جميع أنفاس التربية والتعليم ·· والروتين الحكومى فى هذا النطاق يصول ويجول كحصان ألقى بكل شكائمه تحت قدميه ·· وان وطأته الضاغطة لتتجمع فى ثقل ماحق لتستقر آخر الأمر فوق هذا الشىء الضعيف المرتجف المقرور الذى نسميه « مدرسة » ··

والمدرسة طبعا ، هى مجموعة التلاميذ والأساتذة ·· ومجموعة النظم التى يرتبط بها التلميذ والأستاذ ليؤديا واجبهما المشترك ·· والتلاميذ وأساتذتهم لايعرفون عن هذه النظم الا أنها « الأوامر التى وضعت لتنفذ » ·· فهم لم يشتركوا فى وضعها واختيارها · والى هنا قد يكون الأمر طبيعيا ·· ولكن موضوع هذه النظم والروح السارى خلالها ، والمهيمن عليها، ثم الطريقة التى تفرض بها سلطانها ، كل هذه ينبغى أن تكون موضع البحث الواعى لننظر مدى ماتنطوى عليه من عناصر التوفيق أو من عوامل الاخفاق ··

ونحن هنا لانعرض المدرسة كمشكلة اجتماعية ، بل كمشكلة خلقية ·· أى أننا لانتقصى كافة مشاكلها وأوضاعها فليس هذا ـ طبعا ـ موضوع الكتاب ·· وانما نريد فقط أن نكشف عنها باعتبارها أحد العوامل التى تشحذ الخوف من القوة ، ولا تشحذ الايمان بالواجب مما يساعد على التمكين لأخلاق العبيد فى مجتمع يريد أو يجب أن يريد الظفر بأخلاق حرة لقوم أحرار ··

فمن هذه الزاوية وحدها نلقى ضوء النقد على المدرسة، فنجد المدرسة فى بلادنا مرتعا سعيدا لسياسة القوة الباطشة ، وكلأً يابسا قحلا لسياسة الواجب الملهم ··

وإذا أنت ألقيت بصيرتك على طلاب مدارسنا اليوم ، فأنك ملاقيهم واحدا من اثنين ، وقليلا ماتجد ثالثا يقف فى الوسط.. اما تلميذ خانع ، واما تلميذ متمرد .. أما خنوع الأول فثمرة

استسلامه لقانون الغـابة القائم فى المدرسة .. وأما تمرد الثانى فثمرة رغبته الطائشة غير المهـذبة فى مقاومة هـذا القانون ..

فى بعض مدارسنا الثانوية ، اعتدى طلاب كبار على أستاذ لهم بالضرب .. أتدرون لماذا ؟ ..

لأن الطلاب اكتشفوا بمواهبهم الفذة أن شعب النشـاط المدرسى تنقصها شعبة هامة .. وقرروا أن يعاونوا الوزارة

والمدرسة فى انشاء هذه الشعبة على نفقتهم الخاصة .. وهناك فى ركن قصى غير مطروق ، من فناء المدرسة ، اجتمعت شعبة

النشاط الجديد ، وأبلت بلاء شاقا حسنا أثار اعجاب أحـد الأساتذة ، فاتجه صوبهم . وسألهم ..

ـ ماذا تفعلون يا أولاد ؟؟ ..

فأجابوا فى هدوء : نشاط مدرسى يا أفندم ..

ـ فسألهم ! وما علاقة النشاط المدرسى بتدخين الممنوعات ؟

ـ فأجابوه فى هدوء أصحاب المزاج ..

ـ دى شعبة جديدة من شعب النشاط يا أفندم ! ..

ولما أبلغ الأستاذ أمرهم لناظر المدرسة أبعد الناظر اثنيـن كانا يتزعمان هذه « الشعبة » .. مما أثار الحفيظة فتربصـا ومعهما آخرون بالأستاذ فى الخارج وضربوه ..

أسمع بعضكم يتساءل :

هل كان لابد أن تترك المدرسة أولئك الأشقياء فى نشاطهم الحر (!) لكى لايعتدوا على أستاذ بالضرب ؟ ..

أبدا ، ونحن لانقصد هذا ·· وانما نذكر السبب ليزداد جرمهم بشاعة · فاذا كان سبب العدوان كما ذكرنا يصير جرم المعتدى مضاعفا مرذولا ·· ولكن ليس « العلاج » أن نقول للمجرم يامجرم ·· بل هو اكتشاف أسباب اجرامه ودواعى موقفه وامكانياته بعثه من جديد انسانا فاضلا وديعا ·· وفى مدرسة أخرى اعدادية لايجاوز معظم أعمار تلاميذها الخامسة عشرة ، ضرب تلميذ أستاذه على وجهه ضربا مهينا ، فلما هم الأستاذ ليدافع عن نفسه تصدى له تلميذ آخر باذلا عونه النبيل (!) لزميله المعتدى ، وأخرج من جيبه مطواة ، وشرع نصلها ، ولوح بها فى وجه أستاذه قائلا :

- والله افتح بطنك !! ··

والذين لايأخذ عدوانهم على أساتذتهم هذا الشكل الطاغى المزرى من الطلاب يعتدون فى صور أخرى كثيرة لعل أكثرها ذيوعا تهديدهم الأساتذة برفع أمرهم للناظر ·· ناظر المدرسة ؟! ··

ولعلكم تذهلون ذهولا ينأى بكم عن تصديق الواقعة الآتية · ولكنها مع ذلك وقعت ، وكان بطلها تلميذ باحدى مدارسنا الابتدائية ، لم يتجاوز سنه التاسعة ·· قال لمدرس الحساب وهو يزجره :

والله لأقول للبيه الناظر يمدك !! ··

ومعنى كلمة « يمدك » يضربك على قدميك بعد تجريدهما من الحذاء ··

ان عبارة هذا الطفل ستكون دليلنا الى اكتشاف العوامل الخبيثة التى تفرض القوة على الواجب فى المدرسة ، والتى تخلق فى نفوس الطلاب رغبة فى محاكاة مايشهدونه فى معاهدهم من

جهة ، وفى مقاومة الضغط المتوالى والقسوة الهابطة عليهم من جهة أخرى ، فيسلكون مع أساتذتهم ، وفى بيوتهم ، وفى الطريق ذلك السلوك القتالى الشاذ ..

فالمدرسة تستوحى كل مناشطها من القوة .. فهناك الضرب ، والتأنيب ، والطرد ، والاكراه فى شتى مظاهره وألوانه ..

وعلى الرغم من تحريم الضرب بقانون ، فمن السذاجة أن ننتظر احترام مثل هذا القانون .. فالتعذيب البدنى فى مدارسنا قائم ماقامت حوافزه ودواعيه ، فما هذه الحوافز وتلك الدواعى ؟

ذات يوم رأيت أحد زملائنا يضرب تلميذا ضربا مرهقا .. واقتربت منه فى وداعة هامسا فى أذنه : شيئا من الرحمة والرفق .. فأشاح وجهه عنى وهو يقول : ان المفتش لايرحم !!

وعاد ليستأنف الضرب المبهظ بعصا تلهث كأنها كلب مسعور .

ان المفتش لايرحم ! .. تلك هى المشكلة .. وعسى ألا تكونوا قد نسيتم التهديد الطريف الذى توعد به التلميذ الطفل أستاذه قائلا : « والله لأقول للناظر يمدك » ..

فالناظر ، والمفتش مظهران للآفة التى تجعل المدرسة مسرحا للسلوك الذى شعاره ، القوة لا الواجب ..

فالمدرس ـ مثلا يضرب التلميذ ، وسيظل يضربه مادام ثمت شبحان يتراءيان لهواجسه كعفاريت الليل .. ويقذفان فى قلبه الهلوع الذعر والرهبة ، وذانك الشبحان هما .. «البك» الناظر .. و « البك » المفتش !! ..

ان أكثر من تسعين فى المائة من المدرسين مربى النشىء ، لايعنيهم أن يكونوا عقل التلميذ ، أو يساهموا فى تصميم مستقبله .. وانما هم يعملون فقط لملء ذاكرته ببضع قواعد

ومعارف تدرأ عنهم نقمة الناظر ، وفضول المفتش ..

وهم لايرهبون « المذكورين » رهبةصبيانيةتزجيها الهواجس الباطلة .. بل يرهبونهما تنفيذالقانونوزارةالتربيةوالتعليم .

فوزارة التعليم تضع مستقبل الأستاذ فييدالناظر والمفتش .. وتغرى النــاظر بكتابة « تقارير سرية » ، كمــا تترك للمفتش أمر تقدير المنزلة التى يستحقها المـــدرس من حسن أو جيد أو ممتاز .. ويدرك المدرسون هذا فيسارعون الىاشباع رغبة الناظر الذى يريد بدوره نتيجة حسابية طيبة لمدرســته كى يرقى بها درجة .. ويسارعون الى اشباع غرورالمفتشالذى كثيرا ماتكون تعاليمه مناهضة لما تمليه خبرة المدرس بتلاميذه .

ان الهدف الذى يتلألأ أمام أبصار الاساتذة والذى تهوى اليه أفئدتهم ، ليس ذلك العقل النضير المثقف المتراحب الذى ينبغى أن يهيئوه للتلميذ ، ليس هو تلك الشخصية اليانعــة النامية السوية التى يجدر بهم أن يمكنوا التلميذ من حيازتها . ولكنه الكلمة المطرية فى التقرير السرى للناظر ، ودرجة جيد أو ممتاز ، فى التقرير السنوى للمفتش .. ولكى يظفروا بهذا الغرض السريع يتوسلون بالضرب ، المبرح ، بالشتم المقرع ، وبالتقريع المخزى .. وهكذا يطبعون وجدان الشباب بنشاطهم اللافح ، وسلوكهم الشرس . ومع الأيام يصير السلوكالقتالى شرعة التلميذ ومنهاجه !! ..

وسيظل انصراف طلابنا عن العلم والمعرفة مدينا بالشــكر الجزيل لعصا الأستاذ وبطش المدرسة .. فالنفس الانسانية تحمل أضغانا مؤرثة لكل مايسبب لها العذاب والألم ..

فى بعض الاحيان نجدنسبةالمتدينين بين شبابالجامعة، أكثرمن

نسبة المتدينين من شباب الأزهر . ولعلنا لو فحصنا حقيقة الاسباب
نجدها راجعة لما عاناه طالب الأزهر وهو طفل فى سبيل القرآن

والدين .. لطالما اتخذت عصا « الفقيه » من جسـده الغض
مرتعا .. لطالما ضرب وحبس وعذب وأوذى ..

وهكذا انطوى « لا شعوره » فى سن مبكرة على جزع أليم تفلت
فيما بعد الى مسرح الشعور فى صورة ذلك العزوف عن الدين

ونبذ التعاون معه ، والاستجابة اليه .. الأمر الذى لايحدث
لطالب الجامعة كثيرا ، لأن أسبابه لم تقتحم حياته صغيرا ! ..

فأكبادنا التى تمشى على الأرض .. ولدى وولدك .. أخى
وأخوك .. زهرات يومنا ، ورجاء غدنا .. هؤلاء التلاميذ لن
نصنع لكى نملأ نفوسهم ضغنا على العلم وعلى المعرفة وعلى

الثقافة أكثر مما نصنع اليوم بهم فى البيت وفى المدرسة ..
اخضاعهم لبأس القوة ، وعدم تعويدهم على الانفعال بالواجب .

ان روح السيطرة الشخصية تشيع بين مدرسينا شيوعا يدعو
لوجوب تفهم بواعثها ووقف امتدادها ..

والمدرس لايعبر عن هذا الروح بالضرب ، والزجر ، والاسراف
فى اصدار الأوامر والنواهى فحسب .. بل ان ذلك ليتغلغل
فى طبيعة رسالته ، فيشوهها ..

فمن النادر أن تجد مدرسا يطلب من تلامذته اختيار موضوع
الانشاء الذى سيتحدثون فيه اليوم ، مثلا ..

فالمنهج الدراسى مظهر من مظاهر امتهان شخصية التلميذ
وتجاهلها .. ذلك أننا لانستطيع أن نأخذ رأى الطلاب فيما

سنقرره عليهم من مواد وكتب وموضوعات .. بيد أننا نستطيع
أن نشعرهم بالمشاركة عن طريق المدرس ساعة القاء الدروس
وتوزيع المنهج .. ولكن هذا لايحدث ، لأن شخصية المدرس

تموج بالعقد التى لاتسمح له أن يكون ديمقراطيا فى مهنته وعمله ، ورد الفعل المحتوم لسيطرة النـــاظر والمفتش ووطأة التقارير السرية ، والعلنية ، تجعل منه انسانا مريضا وشديد الرغبة فى الانتقام غير المقصود ..

والسيطرة الشخصية المستبدة هى وسيلة للثأر والانتقام.

فارفعوا عن المدرس اصره ، والغوا التفتيش فانه « زائدة دودية » وارفعوا الناظر فوق مستوى الجواسيس ، واستبدلوا بالمفتش نظام المدرس الأول واحصروا مهمته فى التوجيه المهذب ، والتعاون المتكافىء ..

حرروا المدرس من مخاوفه ، فان عدوى العواطف تنقل كل نقائصه النفسية الى تلاميذه وان روح التسلط الهابطة عليه من ناظره ومفتشه لتتخذه آخر الأمر قنطرة تعبر فوقهـــا الى التلميذ نفسه فتسحقها وتلاشيها ..

ان فلسفة « من علمنى حرفا صرت له عبدا » قد أفسدت أخلاق المدرسة وعطلت رسالتها ..

وان سياسة القوة المسيطرة على المدرسة لتجعل من التلميذ أداة اعداد للمستقبل .. مستقبل المدرس والناظر ، لامستقبل التلميذ !! ..

وان امكانيات التلميذ ليضحى بها من أجل تلك الغـــاية المسيطرة .. ترقية المدرس ، وترقية الناظر ، وموقف المدرس من ناظر المدرسة ومن المفتش يحدد نوع سلوكه مع تلميذه ، وهو الى الاستغلال أقرب منه الى التربية السوية القويمة ..

فحرروا المدرس من أغلال القوة التى ينوء بها ومكنوه من أن يستلهم فى عمله الواجب ، ليختص بعنايته وجهوده مستقبل

التلميذ ، ومستقبل التربية ، ومستقبل السلوك الانسانى فى هذه البلاد ٠ ٠

وبعد ، فليس فى حديثنا هذا عن البيت وعن المدرسة ماينفى وجود مناسبات تقتضى استعمال القوة بل والارغام من الوالد، أو من المدرس ٠٠

بيد أن هذه المناسبات ينبغى أن تكون طارئة ونادرة بحيث لاتأخذ كما هو حادث عندنا صفة القاعدة والدوام ٠٠
هذا أول ٠٠

والأمر الثانى هو أن التدخل القاهر الطارىء من البيت فى حياة أبنائه ، أو من المدرسة فى توجيه تلاميذها ، لايضر شيئا

عندما يكون نظام البيت والمدرسة قد سادهما بالفعل روح الواجب ٠٠ لأن هذا التدخل القاهر سيكون حينئذ أخلاقيا ،

لأنه يتم باسم الواجب ، وفى رعاية مبادئه ووسائله وغاياته. الواجب الأخلاقى ، لا الواجب المهنى ٠٠

ج ـ الجزاء الاجتماعى :

وننتقل الآن الى مظهر آخر من مظاهر ارباء القوة على الواجب فى بلادنا ومجتمعنا ـ حيث نجد الايمان بالقوة كوسيلة وحيدة لتقويم السلوك ، يأخذ علينا كل سبيل لبعث الاحساس بالواجب فى نفوسنا وفى سلوكنا ٠ ٠

وسنسمى الوضع الذى تتمثل فيه هذه الظاهرة المزعجة ٠٠ ـ « الجزاء الاجتماعى » ٠٠

ونعنى بالجزاء الاجتماعى ، العقوبات التى يرتبها المجتمع لخطاته ومذنبيه ٠٠ نعنى الأسلوب الذى يشرع به المجتمع الجزاء والعقاب ، والأسلوب الذى ينفذ به تشريعه وقوانينه ٠

ونسارع فنعلن أننا لانريد الغاء القانون · ووقف التشريعات التى تحمى سلامة الجماعة وتنظم علائقها · بل نريد أن يكون القانون فى بلادنا علاجا لا عقوبة · ·

أجل ، هــذا التعبير يحــدد تماما مانريد ·· « العـــلاج لا العقوبة » ··

وانا لنلاحظ أن القوانين فى بلادنا العربية كلها انماتوضع للعقاب والتشفى والانتقام · ولس للعلاج أو الوقاية ·· ومعذرة اذا كان فى كلامنا عن « قوانين البلاد العربية » كثير من التجوز والتفاؤل !! ··

فالحق أن هناك فى بعض تلك البلاد أوامر فقط ، لاقوانين··

ومعذرة مرة أخرى اذا استعملنا نفس القـــدر من التجوز والمبالغة فيما أسميناه « سجون البلاد العربية » ·· فالسجون فى بعض تلك البلاد شىء لايزال ينتظر المعجزة التى تستطيع أن تختار له اسما مناسبا !! · ·

انك تظلم القبور ، اذا سميتها قبرا ··
وتظلم الحظائر ، اذا سميتها حظيرة ··

وتشوه سمعة « السلخانات » اذا سميتها « سلخانة » ولقد رأيت بنفسى بعض المناظر والصور الفوتوغرافية ، أخذها بعض السجناء خفية لسجون تلك البلاد ، وجاءونى بهـــا لأنظر ، وأرى ··

ولكم وددنا لو استطعنا القاء هـــذه البلاد من حســـابنا ، لنستريح من الهموم الثقال التى يؤودنا بها التفكير فى قساوة أحوالها ونظمها ·· وفى تعاسة شعوبها وشقوتها ·· ولكن كيف نستطيع ذلك ، والذين هناك جماهير مثلنـــا ، اخوان وعشيرة ، وناس ينتظرون من كل انسان كلمة تســـقط عن

كاهلهم ظلما ، أو تبعث فى نفوسهم رجاء وأملا ٠٠

فاذا رجعنا الى بعض البلاد العربية المتمدنة مثل بلادنا نجد نفس المشكلة ، لكنها من غير شك فى مستوى أعلى ٠٠ أى نجد روح التشريع والجزاء عندنا تعتمد على القانون كعقوبة لا علاج٠

والاسراف فى العقاب والزجر لم يعد طريقا الى الفضيلة ٠٠ بل هو فى معظم ظروفه أقرب الطرق الى الرذيلة ٠٠ والبلد الذى يستمرىء هذا الاسراف فيحل بقانون ، ويحرم بقانون ، لايلبث أن يصير كالمدينة التى أهلكها السكوت ٠٠

أتعرفون نبأها ؟ ٠٠

كانت « اميكلى » احدى مدن اليونان القديمة ، وكانت تزعجها الاشاعات عن قرب غزو الاسبرطيين لها ، فصدر قانون شديد يحرم على أهلها ذكر كلمة « اسبرطة » ، أو « جيش اسبرطة » ، أو « غزو اسبرطة » وبعد حين وصل الاسبرطيون الغزاة ، فلم يجرؤ أحد على انذار قومه ٠٠ ودخلوا المدينة واحتلوها فوصفت فى التاريخ بأنها « المدينة التى أهلكها السكوت » !! ٠٠

ان البلاد التى تسرف فى التحريم بقانون لاتلبث أن تهلك وتتداعى تحت وطأة ماكانت تحذره وتخشاه ٠٠

أفيعجزنا أن نلتمس من واقعنا الشـــواهد على اسرافنا فى التشريع الحاظر ، وعلى نظرتنا الى القانون كعقوبة لا علاج ؟ ٠٠

كان عندنا يوما « بغاء رسمى » ، فصدر قانون يحرمه ٠٠

هذا القانون عقوبة ، ولو كان علاجا ، لفكر قبل تحريم البغاء فى عواقب هذا التحريم حتى لاتفشو فاشية البغـاء السرى ، والانحراف النفسى ، والكبت المدمر ٠٠

لاتظنوا أننى آسف على البغاء الذى ألغى ، ولا تحسبوا أننى من المنادين بعودته ٠ فالبغاء رق بشع ، واســتعباد وقح ٠٠

والذين يدعون لعودته ويرون فيه علاجا جنسيا يفكرون تفكيرا غير سديد .. ولو أن لهم بالمجتمع أدنى خبرة ، لأدركوا أن علاجه الجنسى فى الصداقة لا الفاحشة ..

واذن فنحن نضرب قانون الغاء البغاء مثلا لنضع أمام القارىء صورة للروح الذى يسيطر علينا فى تشريعاتنا .. والذى لايحاول أن يجعل من القانون علاجا .. حسبه أن يقول : لاتفعل ، غير ناهج بالناس سبيلا فيما ينأى بهم عن مضاعفات المنع والتحريم ، وغير باذل لهم عونا بتشريع آخر أو بنهج جديد يخفف من غلواء الحظر . ويأخذ بأيديهم الى الفضيلة فى سكينة وسلام ..

وخذوا مثلا آخر .. ذلك القانون الذى صدر منذ عام وبضعة شهور .. والذى يجعل الصلاة اجبارية فى المدارس !! ..

ترى هل يعلم الذين أصدروا هذا القانون ، أن مظاهر الصلاة فى المدرسة أصبحت منذ صدوره أكثر خفوتا وتلاشيا ؟ ..

لابد من رفع وطأة القانون عن الأخلاق ، اذا كنا جادين فى نشدان أخلاق سوية لأمتنا .. فالقانون قد يفلح ـ بعض الوقت ـ فى أن يهب بعض الناس أخلاق العبيد ، أخلاقا تحفز اليها الطاعة والخوف .. لا الاقتناع والواجب .. ثم هو فيما وراء ذلك فاشل !! ..

وتعالوا نجب معا على هذا السؤال :

ماعلاقة القانون مثلا بالكذب ، والجبن ، والنفاق ، والغرور ، بل وبالزنا نفسه عندما تكون المرأة راضية ؟!

هل نستطيع أن نكافح رذائل النفاق ، والخنوع ، والكذب بقانون ؟؟ ..

واذا كان القانون هو النص الذى يتضمن الجزاء والعقاب ..

فان السجن ، هو الأداة التى ينفذ بهاالمجتمع أو الدولةمضمون ذلك التشريع ٠٠ أجل ـ القانون نص ٠٠ والسجن أداة ٠٠

والاثنان يشبهان حجرى الرحى ٠٠ يطحنانفى بلاهةوقسوة كثيرا من احتمالات الهداية والفضيلة والخير !! ٠٠

ان السجن فى بلادنا يقوم بدور فعال فى تعويق المسلك الخلقى للمجتمع ٠٠ وسأحدثكم عن هذا بعد أن أسألكم : هل تعرفون شيئا عن الحياة داخل سجوننا ؟ ٠٠

هل قرأتم ـ تلك الحكمة التى تتلألأ على جبين كل سجن كبير « السجن تأديب ، وتهذيب ، واصلاح » ؟! ٠٠

فى عام « ١٩٣٧ » أخذت الى سجن مصر متهما بتحريض الطلاب على الحكومة القائمة يومذاك ٠٠ والى أن يفصل القضاء

فى المعارضة المرفوعة منى ومن زملائى الذين سجنت معهم ، كان لابد أن نقضى بضعة أيام فى ذلك السجن المهيب ٠٠

وفى « زنزانة » حجرة صغيرة تصلح عشا لعصفور ، وضعت ٠٠ وهناك كان فى استقبالى داخل هذه « الزنزانة » أربعةزملاء يفرض قانون السجن عليك صداقتهم وزمالتهم فرضا ٠٠

أولهم ـ « برش » تفرش به الأرض ٠٠
وثانيهم ـ « برش » تتقى به البرد ٠٠

وثالثهم ـ « اناء » تتبول فيه ٠٠
ورابعهم ـ « اناء » تشرب منه !! ٠٠

وقضيت الليلة الأولى ٠٠ وفى الصباح فتح الحارس الباب وناداني قائلا :

ـ يا اللا ياجدع شيل ٠٠
فأجبته : أشيل ايه ؟ ٠٠
فقال : « البلاوى بتاعتك دى » ٠٠ وأشار الى وعاء البول ٠٠

وكنت حتى هذه الساعة أظن أن هذا العمل ليس من اختصاصي
.. فسألته :

ـ أأنا الذى سأحمله وأريقه ؟ ..
فأجاب وهو يقهقه :

ـ لا .. دا البيه مأمور السجن هو اللى يشيله ويغسله !..
وأطلق من حلقومه صرخة كزئير الأعصار .. طالبا منى أن أحمل
« البلاوى بتاعتى » وقد كان ..

وفى اليوم الثانى فتحت الأبواب ، وساقنا الحرس فى طابور
الى الطبيب .. وهناك رأيت قطيعا مكدسا كالأغنام .. بل ان
هذا التشبيه ليقتضينا أن نعتذر للأغنام !! ..

وفى اليوم الرابع ، صاح فينا مناد من الحرس .. أن هيا
الى العروسة ..

وسألت الرجل :
ـ عروسة ايه ؟ ..

فأجاب : دلوقت تعرفها ..

وهناك فى فناء من أفنية السجن ، وقفنا تجاه «العروسة»..
هيكل من الخشب على صورة انسان مبسوط الذراعين ، منفرج
الساقين ! ..

وعرفنا من السجناء القدامى نبأ هذه العروسة .. انه الجهاز
الذى يثبت عليه ويشد اليه كل سجين توقع عليه عقوبة
الجلد ..

وازددنا معرفة عندما استقبلنا « جاويش » يخبرنا أننا
سنشهد الآن زميلا لنا سيجلد ..
لماذا ؟..

لأنه خالف تعليمات السجن ..

وأخبرنا أننا نشهد عقوبته وجلده ، ليكون لنا فيه عبرة وعظة !! ..

فى أربعة أيام فقط ، رأيت هذه المشاهد الموبقة البشعة ، فهل هذا هو كل ماهناك ؟ ..

فى عام ــ ١٩٥٠ ــ وقف متهم أمام قاضيه الذى وجه اليه الحديث قائلا :

ان « سوابقك » فى الاجرام قد بلغت التاسعة والعشرين ، والجريمة التى تحاكم الآن عنها ترتيبها الثلاثون ..

ولم يصبر المتهم حتى يتم القاضى حديثه فصاح وفى كلامه رنين الصدق :

ــ « والله يابيه ، أول مرة كانت بتاعتى صحيح ، والباقى كله بتاع الحكومة » ! ..

ولما سأله القاضى ايضاحا قال : انه ارتكب أولى جرائمه بمجهوده الشخصى وخبرته الخاصة ، أما بقية جرائمه فقد تعلمها فى السجن من زملائه ، وكان كلما عاد الى السجن تعلم شيئا جديدا ..

ومن الطريف أن القاضى سأله :

ــ أليس يعلمكم السجن شيئا غير الجريمة ؟ .. أليس هناك محاضرات دينية ، وواعظ يبث فيكم روح الخير والهدى ؟ ..
فأجابه المتهم ..

ــ واعظ ؟ .. دا احنا مرة خليناه بيوعظ وسرقنا مسبحته الكهرمان !! ..

ان اعتراف هذا المسكين التعس تصوير دقيق وصادق لسجوننا ..

ان السجن في بلادنا أبعد مايكون عن التاديب والتهذيب ، والاصلاح !! ..

انه « معمل تفرنج » للجريمة والمجرمين .. وهـــو بنظمه القائمة لايمكن أن يكون الا هكذا ..

ولكى تتصوروا عواقب حياته الحميدة (؟!) فى أخلاق الأمه. فليس عليكم الا أن تبصروا تلك الصفوف الطويلة التى تدخله كل عام ، وتلك التى تغادره كل عام .. ثم تتصوروا مجموع هؤلاء ، وهؤلاء فى عشرة أعوام مثلا ..

ستجدونه بئرا عميقا تقذف الى المجتمع دوما وباستمرار بشر الجرائيم وأشدها ضراوة وفتكا ..

ان السجن كالقانون يجب أن يتحول من عقاب الى علاج .. ومن أداة تعذيب ، الى وسيلة تهذيب ..

وذلك يقتضى انقلابا شاملا فى نظمه وتقاليده .. (١)

لماذا يحرم السجين المتزوج من لقاء زوجته كل عام بضــع مرات ؟ ..

وماذا ننتظر من السجناء أن يفعلوا تجاه هذا الحرمان ؟..

ان سجلات الحوادث فى السجون تجيبنا فى خجل واستحياء

فالرجال هناك يعانون حرمانا جنسيا ســاحقا ، فتنجرف طبيعتهم اليائسة شطر « المثلية » ، يلتمسون فيها العزاء..

وان لنا لعبرة فى المأساة التى كان أبطالها « توفيق محمد حسن ، وعبد الغفار سعداوى ، وطه محمد مهدى » السجناء بسجن « ليمان طره » فقد تنازع « توفيق ومهدى » الرجــل

---

(١) بذلت حكومة الثورة ، ولا تزال تبذل جهدا مشكورا لاصلاح سجوننا ، فالغت القيود ، والغت الجلد ، وغيرت لباسهم الكئيب ، وادخلت كثيرا من وسائل الترفيه ..

الثالث وتغلب « توفيق » فاستأثر به لنفسه ·· وذات يوم والثلاثة يعملون معا فى مصنع صابون السجن فاجأ « مهدى » غريمه « توفيقا » بضربة قاتلة تركته جثة هامدة ، واعترف بسبب جنايته ·· والعجيب أن « مهدى » القاتل كان مسيحيا واسمه « أميل ميلاد حنا » وقد أسلم فى الأيام الأولى لدخوله السجن ، واستعان بالاستقامة وبالصلاة ·· ولكن حياة السجن ونظمه لم تمهله الا قليلا ·· حيث وجد نفسه مضطرا لاغتنام الجرائم والرذائل التى انتهت بالشذوذ وبالقتل ··

قد يسأل سائل ، عما اذا كنا ندعو لتدليل السجناء وتحويل السجن الى منتدى يضم وسائل الترفية ومباهج النعيم »!

ونجيب من فورنا : نعم ، نريد أن يكون السجن منتدى يضم كل وسائل الترفيه ، بيد أننا لانرى فى هذا تدليلا ، بل علاجا واصلاحا ··

وانا لنسأل بدورنا : ما الحكمة المرجوة من سجن المذنب ، اصلاحه ، أم تعذيبه ؟ ··

اذا كان اصلاحه هو الغاية ، فما أبعد القسوة عن أن تكون علاجا أخلاقيا ، وما أعجز سجوننا باستعمالها القسوة عن أن تهدى ضالا ، أو ترشد حيران ··

واذا كان التعذيب والعقاب هما الغاية من سجنه ، فنسأل سؤالا آخر :

ـ هل نعاقب المذنب لأنه أساء فى الماضى ، أم نعاقبه كى لايسىء فى المستقبل ؟ ··

اذا كان الأول ، فما أشد حماقتنا وأدعاها للرثاء لأننا نعاقب على عدم ، ونفعل كالمعتوه الذى ينشر النشارة ··

واذا كان الثانى ، فان خطأنا اذن لوبيل · فالجسد الذى

تعذبه ، والروح التى نشوهها ، مجنى عليهما ٠٠ ان الفاعل الأصلى هو الارادة بما يكتنفها من ظروف صاحبها ، ودواعى بيئته ا٠٠ والارادة الانسانية لاترتدع بالقسوة ٠٠ بل كثيرا ماتشد القسوة فيها زناد المقاومة والانتقام ٠٠

وهبوا السجن بما فيه من تعذيب وتنكيل استطاع أن يهزم ارادة المذنب ويبيدها ٠٠ فماذا سنكون قد ربحنا ؟ ٠٠

لاشىء ٠٠ بل سنخسر انسانا ٠٠

على أنه هيهات أن نمحو « الارادة الانسانية » من انسان أو نهزمها ٠٠ ان المجرم المصطلى بعذاب السـجن لاينهزم فيه الا جسده ٠٠ أما ارادته ، فهناك فى أقصى كيانه تصطك أنيابها المدخرة ليوم لاريب فيه ٠٠

على أن نظرتنا للمجرم جديرة بالتعديل والتعلية ، اذ هى تنطوى على تجاهل ظالم لظروف ارتكابه وانحرافه ٠ كما تنطوى على ضحالة الادراك لحقيقة هذا الذى نسميه مجرما ٠٠

ان شر أنواع المجرمين عندنا هم أولئك الذين تعودوا الاجرام ٠٠ ومع هذا فوراء ذلك فى نفسية المجرم فضيلة باهرة يكشف عنها العـلامة الفرنسى « جويو » ألا وهى الشـجاعة وحب الخطر ٠٠

أجل ، ان المجرم الذى تعود الاجرام رجل قامت بينه وبين الاخطار مودة وألفة ، فلم يعد يخشاها أو يفر منها ـ فكم تكون مغانمنا جزيلة اذا استطعنا استثمار هذا الطراز من الناس ، وحولنا شغفهم بالخطر من ذلك الخطر العـدوانى الى الأخطار الجليلة الرائعة الهادفة ؟! ٠٠

لقد كانت الأمة الانجليزية ذات يوم أمة من المجرمين ٠٠ أى أمة تعودت الأخطار ، وعشقت المغامرة ٠٠ ولعل هذا يعطينا

تفسيرا لفضيلة الثبات التى يضربها الشعب البريطانى عندما تدمدم عليه الحروب والأزمات والكوارث ٠

فليكن هذا الفهم رائدنا ونحن نعالج مشاكل الجريمة والمجرمين فى بلادنا ٠٠

اننا لانصنع شيئا ذا قيمة عندما نكدس السجناء داخل جحور خربة معتمة ٠٠ بيد أننا نصنع لحاضرنا ومستقبلنا كل خير عندما نبذل من جانبنا جهدا نحول به جريمة المجرم الى بطولة،

فنستثمرهم فى المشروعات التى تحتاج الى جهد ومغامرة ٠٠ ونعاملهم كأناسى وبشر ٠٠

ان السجن المصرى كما ذكرنا قبلا ، بئر بعيدة الغور تعج بما تقذف به الى المجتمع من ميكروب وجراثيم ٠٠ فلنعد النظر فيها جميعا على ضوء ماذكرنا وما نذكره فى هذه السطور ،وعلى ضوء حاجتنا الملحة الى تطويرها وتهذيبها ٠٠

لماذا نباعد بين الرجل وزوجه خمس سنوات ، أو عشرا ، أو خمسا وعشرين ؟ ٠٠

وماذا تفعل الزوجة خلال هذا الدهر الطويل ؟ ٠٠

ذات ليلة مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بامرأة قدأضناها السهر ، وكانت تنشد حسراتها فى هذه الأبيات من الشعر :

تطاول هذا الليل وازور جانبه وليس الى جنبى حليل أداعبه
فوالله ، لولا الله لا رب غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربى ، والحياء يكفنى وأكرم زوجى أن تنال ركائبه

واقشعر كل مافى ابن الخطاب من صلابة وجبروت ٠ وسأل عن نبأ المرأة ، فعلم أن لها زوجا طال غيابه فى جيش المسلمين الذى توجه لبعض الغزوات والفتوح ٠٠

وذهب الى ابنته « حفصة » يسألها :

ـ يا حفصة ، كم تصبر الزوجة على زوجها ؟

واذ تخجل « حفصة » وتوارى وجهها بردائها ، يصرخ فيها عمر قائلا :

ـ أجيبى ، وأنقذى أباك من عذاب أليم !! ..
وتجيبه « حفصة » :

ـ تصبر شهرين يا أمير المؤمنين ، وتجالد نفسها بعد الثالث وتفقد صبرها بعد الشهر الرابع ..

ويخرج عمر فورا ، ليضع قانونا يحرم على قواد الجيوش أن يستبقوا « متزوجا » بعد أربعة أشهر . بل يرجع الى أهله ويقضى بينهم وقتا كافيا ثم يعود ..

ما أحوج سجناءنا الى قانون كقانون عمر الذى اشترعه منذ ثلاثة عشر قرنا ! ..

لابد من وضع نظام يتيح لكل سجين زوج ، أن يقضى مع أهله أسبوعا أو أسبوعين فى فترات مناسبة .. ولن تكون حوادث الهرب ، كما ستصورها لنا مخاوفنا أبدا ..

ولا بد من وضع نظام يتيح للسجين العزب الذى يريد الزواج أن يتزوج ..

ولا بد من تحويل السجون الى أندية تنتظم كل وسائل التسلية والترفيه مع مايتيسر من وسائل الانتاج ..

ولا بد من ادخال « السينما والراديو » على نطاق واسع في تلك السجون التى ستتحول الى أندية ، لينساب رى الثقافة والفن فى النفوس الجافة اليابسة فتزدهر فضائلها الكامنة وتترعرع ..

ولا بد من الغاء مظاهر الوحشية كافة ، من جلد ، وتعذيب ، وأبراش .. و « حمل البلاوى » فى الصباح وفى المساء ؟! ..

ولابد من تغيير ذلك اللباس الردىء الكالح الذى نلبسه سجناءنا ..

أقسم ، لو أن « ملاكا » لبس هذا اللباس شهرا واحدالنفث فى روعه شعورا ماحقا بالهوان والضعة والتعاسة ، ولاكفهرت كل فضائل نفسه المزدهرة وخبا ضياؤها ! ..

وكذلك نرى أنه لابد من اختصار المدة المضروبة للسجن المؤبد .. وجعل حدها الأقصى خمسة عشرعاما،والغاء«المراقبة» التى نطارد بها النزيل بعد مغادرته السجن ..

اننا نعاقب المجرم كما قلنا لنزجره عن الاساءة فى المستقبل .. وخير مانصنعه لبلوغ هذا الهدف ، هو التقويم ، لا التحطيم .. وسجوننا بحالتها الراهنة لاتستطيع الا أن تحطم انسانية السجين وتشوه روحه .. أما تقويمه ، فانى لها ذلك وليس فيها من وسائل التقويم والتربية شىء ..

بقيت واحدة .. يا ليتنا نوفق للاقتناع بها ..

الغوا كلمة « السجن » .. وضعوا بديلها « المرفأ » ..

سموا السجون « المرافىء الاجتماعية » فالحق أنها يجب أن تكون كذلك .. يجب أن يكون السجن « مرفأ » يستجم فيه المذنب من أمراض نفسه وسلوكه حتى يعافى ..

صحيح أنه ليس فى دول العالم من استعمل هذه التسمية ؟

ولكن أى بأس فى أن نقدم نحن للعالم هذه الهدية ؟

ان المستقبل القريب للانسانية لن يعترف بكلمة سجن .. بل لن يعترف بالسجون نفسها ..

فليذكر التاريخ أن أمتنا أول أمة حولت السجون الى « مرافىء » ونجت الانسان من وطأة التسمية البغيضة « السجن » ..

ولكن هذا الاقتراح يتحول الى سخرية اذا أعطينا سجوننا هذا الاسم قبل رفعها الى مستواه .. فلنحولها الى مرافىء بالقول وبالفعل ..

احذفوا من منهج القضاء كلمة « شاقة » فانها كلمة غير انسانية .. بل واحذفوا كلمة « أشغال » واصطنعوا بديل الكلمتين كلمة حلوة وديعة هى .. « العمل » ..

ألا ما أروع تلك الساعة وأبهجها التى تصدر فيها أحكامنا القضائية هكذا :

« ياعبد الفتاح .. لقد اقتنعت المحكمة بأنك مسىء .. ورأت أن تحكم فى قضيتك باستجمامك خمس سنوات فى المرفأ الاجتماعى مع العمل .. (١)

انكم تلاحظون أننا وضعنا كلمة « مسىء » مكان « مجرم » أو « مذنب » وكلمة « الاستجمام » مكان كلمة « السجن » وعبارة « المرفأ الاجتماعى » مكان كلمة « السجن » وكلمة « العمل » مكان عبارة « الأشغال الشاقة » وتلاحظون أيضا ، أن الكلمات التى ندعو لحذفها جارحة ومتوحشة ، تنهش كرامة الانسان نهشا وبيلا ..

والمذنب مهما يكن ، انسان ، وليس الخير فى تحطيمه ، بل فى تقويمه ..

فى هذه الأيام يقود الأستاذ توفيق الحكيم حركة لتحويل السجون الى دور للعمل والانتاج ..

ويقترح بأن تكون صيغة الحكم : « حكمت المحكمة على فلان بالعمل والانتاج » ..

وكما قال السيد المسيح « ان الله لايسر بموت الشرير · بل بان يرجع الشرير عن طريقه ويحيا » ··

وبهذا القدر من الحديث عن « الجزاء الاجتماعي » نكون قد أشرنا الى أثر القانون والسجن فى دعم أخلاق العبيد الناجمة

عن سيادة القوة والارغام ·· فلنتجه الآن الى مكمن آخر من مكامن هذه الآفة ·· مكمن لعله لم يخطر ببالنا أن يكون صاحب

دور مخرب فى محاولة الاكتمال الخلقى الصاعد للأمة ·· أتعرفونه ؟ ·· ها أنذا أقدمه لكم :

الرأى العام !! ··

يلعب الرأى العام دوره كقوة ملزمة يخشى الناس عصيانها ويهابون نفوذها ، حتى أشدهم بأسا ، وأمضاهم قوة ، من الزعماء والقادة ، كثيرا مايذعنون للرأى العام اذعانا ليس من دوافعه الاقتناع بما لهذا الرأى من وجهة نظر ، وكم من قائد وزعيم أودت به المسايرة الجارفة للرأى العام ، وصيرته من الهالكين ··

وعندما يكون الرأى العام ضحلا ، غير ممتلىء بالمعرفة ·· فجا ، لم تنضجه الخبرة والتجربة ، فانه يكون من الممكن أن يتحول الى كارثة غير ممتعة ··

بيد أن ذلك لايبرر تجاهله أو قهره ، اذ لا غنى لجماعة انسانية عنه ، وانما يدفع الى افساح طريق النمو أمامه ، وتهيئة جميع الفرص التى تشد أزره ، وتشحذ امكانياته ··

والحظ الواجب توفره للمجتمع كي يتكون فيه رأى عام مستنير وحر ·· هذا الحظ من الثقافة ، والتجربة ، والحرية ، والذى لم يتوفر لمجتمعنا العربى على الوجه المطلوب ، يجعلنا نقرر مطمئنين أن الرأى العام فى هذه الرقعة من الأرض –

مصر وما حولها ـ لايزال جنينا ، يدعونا للحذر منه ٠٠ والحذر عليه ٠٠ ويهيب بنا كى نعمل صادقين لاعطائه فرصة ٠

أجل ، ان فى بلادنا طلائع رأى عام تشجع على الثقة بمستقبله ولن يرتكب أحدنا ـ حاكما كان أو محكوما ـ جريمة أشنع من الحجر على هذا المستقبل ، والضغط على الطلائع البازغة كشعاعات الفجر ٠ وتضليل زحفها الميمون وخطواتها الباسلة ٠

ان الرأى العام ضرورى للأمة ، ضرورة المصباح فى أرض يطمسها الظلام وتغمر أرضها الشظايا والحفر ٠٠

واذا كان موضوع البحث سيقصر حديثنا على حتميته الأخلاقية ، فلن يكون معناه أننا نتجاهل حتمياته الأخرى السياسية ، والاجتماعية والثقافية ٠٠

والآن ٠٠ ماصلة الرأى العام بالمسلك الخلقى للمجتمع ؟٠

ان الانسان كما نعلم ـ كائن اجتماعى ـ يتأثر عن طريق المشاركة الوجدانية وغيرها من النزعات والغرائز بسلوك الجماعة ورأيها ٠٠

ويستطيع كل أمرىء منا أن يذكر الرغبات والشهوات التى يتنازل عنها ، لا زهدا فيها ، ولا بدافع من خوف دينى ٠٠ بل بحافز الخوف الاجتماعى ٠٠ الخوف من نقد المجتمع ، وقسوة حكمه وتقديره ٠٠

كما نستطيع أن نبصر تلك الفضائل التى نفعلها كارهين ، لكى نظفر برضاء الجماعة وحسن تقديرها لنا ٠٠

ومعنى هذا أن الرأى العام يقف على رأس البواعث الخلقية ٠ ونجد أنفسنا مضطرين فى كثير من الاحايين الى استحسان ما يستحسنه واستهجان مايستهجنه ٠٠ فاذا كان على ادراك سليم للفضيلة الصحيحة ٠ والرذيلة الحقة ، فانه يكون ميزانا

دقيقا وصالحا للسلوك ٠٠ أما اذا أدرك مسائل الأخلاق ادراكا غبيا ، وقاس الفضيلة والرذيلة بمفاهيم جاهلة أملتها عليه رواسبه وتقاليده ، فان الأمة تتحول من حيث تدرى أولاتدرى الى وكر عظيم من أوكار الرذيلة والضلال ٠٠

واذا كان من المؤسف أن نعترف بأن رأينا العام من هذا الطراز ، فان من الخير أن تحفزنا هذه الظاهرة الى تلافى ماينجم عنها من مخاطر وأضرار ٠٠

قلنا ان رأينا العام لايزال جنينا ، علينا أن نحذره ونحذر عليه ٠٠ ونحن نعنى بالحذر منه ألا نستسلم لميوله ونزواته

وأحكامه ، ونعنى بالحذر عليه ، ألا نضائل من فرص تطويره وتنميته ٠ فالسبيل الحق لوقاية الأمة شر الانتكاسات الوبيلة

يتمثل أكثر مايتمثل فى احياء كل الطاقات الذهنية ،والشعورية والارادية فى رأى عام شامل يستعصى على الاستهواء الباطل ،

والمكر الخبيث ٠ وما لم نفعل ، فسيظل رأينا العام كما هو ٠٠ دمية يعبث بها الحواة الذين لاتخلو منهم أمة ٠٠ والذين يموتون

فور ظهورهم اذا جاء هذا الظهور وسط جماعة يقظة ، ورأى عام فطن وحصيف ٠٠

وقد يتوهم الذين يعيشون فى العاصمة وجود رأى عام شامل ٠٠ بيد أن الريف يموج موجا بالذين لايعرفون الا أنهم لايعرفون

٠٠ الذين اذا هبط أحدهم عاصمة بلاده فكر فى شراء « ترام » أو « ساعة » من ساعات الميادين العامة ! ٠٠

وحتى الذين يعيشون في العواصم والمدن يندر فيهم من نجد له مكانا فى الطليعة الواعية الناشئة التى قلنا انها تمثل بداية مشجعة لرأى عام فسيح ٠٠

هذا الرأى العام فى بلادنا مريض بالجهل وبمايستتبعه الجهل

من آفات التزمت ، والتعصب ، والخوف ٠٠ والنفاق الاجتماعي الذى يصد عن طلب الحق ونشدان الكمال ٠٠ ومن هنا تجىء جنايته على الفضيلة والأخلاق ٠٠

كيف يتصور « رأينا العام » الفضيلة ؟ ٠٠

اذا كنت تصلى ، وتصوم ، وتأتى بعض مظاهر العبادة المعروفة للناس فحسب ٠٠ فأنت قديس عظيم ٠٠ حتى حين تكون شخصيتك منحلة انحلالا كاملا ، فتؤثر الجبن على الشجاعة ، والمداهنة على الصراحة ، والهوان على الأنفة ، والشح على الجود ، والجمود على التطور ، وتأكل الحرام ، وتتحايل على الحق ، بل وتمثل دور « يهوذا » من أجل مطمع فان وغرض زائل ٠٠ كل هذه الموبقات لن تخلع عنك صفة الصلاح والاستقامة فى نظر الرأى العام الذى لايكاد يعرف شيئا عن هذه الشوارد التى تسمى « الأنفة ، والصراحة ، والحقيقة ، والجود » ؟! ٠٠

لسوف نتحدث ان شاء الله فى الفصل القادم عن مأتى هذا القصور والعمى والبلاهة التى يدرك بها « رأينا العام » مسألة السلوك الانسانى ٠٠ وحسبنا هنا أن نكشف عن خصاله المعرقلة لنموه ، وأيضا لنمو اكتمالنا الخلقى الذى نريده ٠٠

ان الرأى العام عندنا يحصر الفضيلة والرذيلة فى « المسألة الجنسية » أكثر مما عداها ، ونحن لانريد أن نغض من قيمة « الاستقامة الجنسية » أو أن نضائل من شأنها وحتميتها ٠٠ ولقد أكدنا هذه الحتمية فى كتابنا السالف « هذا ٠٠ أو الطوفان » ٠٠

وحذرنا من « العربدة الجنسية » كهواية ، أو كعلاج ٠٠ وقلنا ان الانطلاق الجنسى الجامح يفر بصاحبه من كبت خطير الى كبت

أخطر ، هو كبت « الحاسة الخلقية » .. ثم دعونا الى الاعتدال ورسمنا له منهاجا ..

اذن ، فنحن حريصون على وضع الاستقامة الجنسية داخل منهجنا الخلقى .. بيد أن ذلك لايعنى أن نترك الاحساس بها

يطغى على وجداننا ، ويتحول الى « هستيريا مقدسة » .. انذلك الاغراب فضلا عن كونه غير منطقى وغير سوى ، فهو يسدل ستارا كثيفا على الجوانب الأخرى للسلوك وللفضيلة وللرذيلة، ويحرمنا بالتالى من معظم فضائل العصر ومحاولاته الاخلاقية الرفيعة ..

واضرب لكم مثلا : الاختلاط ..

ان الاختلاط الجنسى فى العمل ، وفى المعهد ، وفى النادى ، قد صار رغم بعض الأخطاء التى يفرزها ، ضرورة منضرورات عصرنا ، ووسيلة مجدية للاستقامة الجنسية اليانعة ..

ومع هذا ، ورغم الطرقات العنيفة والمتساوقة التى نزلت ولا تزال تنزل على وعينا الحليم (!) فلا يزال « رأينا العام » يحذره ويخافه ويستنكره ! ..

بل ان الجامعات العلمية عندنا لتقدم لناشر ألوان هذا الحذر وأغناه بالفكاهة والفجيعة..فالطالبات فى بعضالمدرجات يتخذن صفوفا خاصة بهن . واذا حدث أن اقترب منها بعض

الطلاب غضبن ، فاذا تدخل الأستاذ ليقنع الطالبات بأنهلابأس بأن يتسع الصف لزملاء .. لاسيما وهم فى قاعة علمية ، لافى صالة لهو .. تجيب بعض الطالبات :

ـ والله ، دى أوامر البيت ؟! .. حدث هذا فعلا ..

مع أن كثيرا من بيوتنا الفاضلة التى تريد أن تدير الجامعة من المطبخ ، لاتعلم شيئا مما يجب أن تعلمه عن البيت نفسه .

وكم من فتاة تتظاهر بالعزوف عن الاختــلاط الشريف المهذب ٠٠ وكم من فتى يتظاهر أيضا ، ثم لايكون هذا التظاهر سوى تعبير مبين عما يعج به « اللاشعور » من رغبات لاهثة مسعورة ، وما ينطوى عليه السلوك من نقائص مستورة ٠٠

ان جهل « رأينا العام » وصخريته يدفعـانه الى التزمت ، والتعصب وهنا يتجلى دوره كعامل من أهم العوامل الممـكنة لسياسة « القوة ٠٠ لا الواجب » ٠٠

فالتزمت والتعصب لايدعان ضحيتهما يعترف بوجهة النظر الأخرى ٠ ولا بجدوى الاقتناع فى ثبات الفضائل ورسوخها٠

ويحفزانه الى التوسل بالاكراه والقسوة لبلوغ الغرض المظلم الذى يجهضانه ٠٠ وحين يرفع الرأى العام سوط نقمتهليهوى

به على الخارجين عن طاعة تزمته وجهالاته ، فان الطريق ينفتح لكل رذائل النفاق ، والضعف ، والكذب ، والجمود ٠٠ ويحاول

الناس أن ينتحلوا لأنفسهم شخصيات مستعارة يستردون بها فى السر ، مايسلبه منهم الاذعان للرأى العـــام فى الجهر ٠٠

فيظهرون فى أردية الشرفاء عندما تقع عليهم الأعين ٠٠ حتى اذا خلوا الى أنفسهم أتعبوا رذائل الأرض ، وأنهكوا قواها ٠٠

وليس ذلك فحسب ٠٠ بل ان تزمت رأينا العـــام ليؤخر مجىء الحقيقة ، ويحول دون ظهورها ٠٠

وقد علمنا قبلا أنه بدون حقيقة لاتوجد فضيلة ٠٠ وكذلك يطارد الشجاعة الأدبية اللازمة للبحث عن الحقيقة ٠٠

ان أرضنا قلما تنجب رائدا باسلا وتجود بمفكر حر يضـع كل ترغيب الحياة وترهيبها تحت قدم الحقيقة ، ثم لايفتنه عن الولاء لها شىء من أشياء الوجود ٠ ٠

وهذا الطراز من الرجال ، هو المعراج الذى يأخذنا صاعدين

الى الكمال الميسور ،، ومادام حظنا منه قليلا ، فلا أقل من أن نتيح الفرصة لرواد الدرجة الثانية ، والثالثة ٠٠ لينموا ويعوضوا عقمنا المؤذى ، وهل نجود بفرص الانماء هذه ، حين

نلوح بالوعيد والتهديد للذين اذا جاءوا بما لاتهوى أنفسنا وتقاليدنا ، قاتلناهم ، أو ألجأناهم ، للهرب والانزواء ؟؟ ٠٠

أبدا ٠٠ وان الكارثة لتجل عن الوصف اذا كان الرأى العام هو الذى سيتولى مهمة الاجهاز عليهم ، أو ترويعهم ٠٠ هنالك،

تموت الشجاعة ، وتموت فى أثرها الحقيقة ، وتندرج معهما فى كفن الواحد ، الفضيلة ٠٠

ان المجتمع ـ أى مجتمع ـ يشهد كل يوم حشدا هائلا من

الأخطاء الفنية ، والسياسية ، والاقتصادية ٠ فيتسامح معها ويكتفى باصلاحها ٠٠ فلماذا لايتسامح أيضا مع الخطأ الخلقى ٠٠

هنا تظهر الآفة واضحة ٠٠ وهنا يستبين الفارق الكبير بين الرأى العام المستنير والرأى العام المظلم ٠٠

فالأول وقد برىء من الجهل والتزمت ، يزن الخطأ الاخلاقى

بنفس الميزان الذى يزن به الخطأ الفنى ، أو الخطأ السياسى ٠٠

أما الثانى ، فيأرز به جهله وتزمته الى حماقة مضحكة ٠٠ تتمثل فى تسامح سخى مع الخطأ الفنى ، أو العلمى ٠٠ وحرب مجنونة على الخطأ الخلقى ٠٠

وهذا ينقلنا الى لون آخر من ألوان الخطر الماحق الذى يتهدد به الرأى العام عندنا قضية السلوك والاخلاق ٠٠

ان الجهالة المزمنة تضفى بل تنفث فى رأينا العام تزمتا ضاريا ، يميل به عن السلوك السوى الذى يجب أن يسلكه

تجاه المخطئين خطأ أخلاقيا ٠٠ فكم من أناس كان من الممكن

أن يرجعوا عن الشر وهم فى بداية الطريق ، لولا الحقدالمتبادل بينهم وبين الرأى العام الذى ينظر اليهم فى بلاهة وقسوة ، ويعالج عدوانهم بعدوان أشد وأنكى ..

ألا ان عجز الرأى العام عن التسامح مع الخطأ الخلقى ليغرى بالمزيد منه ، ويفضى الى ادمانه ،فالنفس البشرية بطبيعتها تسمو فوق نزواتها كلما أحاطت بها اهتمامات الآخرين ومشاعرهم الحفية الودودة ..

وكذلك تزداد عثراتها الخلقية كلما أحست أنها موضع استهجان وعدم مبالاة .. هنالك تمضى فى رذيلتها الى آخر الشوط ، وتشرب من كأسها حتى الثمالة يسوقها ذلك الشعار: « أنا الغريق ، فما خوفى من البلل » ..

وهكذا نجد الرأى العام الجاهل المتزمت كالطاغية تماما .. كلاهما مزرعة للرذيلة ، يغرى بها ، ويدفع ضحاياها اليها دفعا وبيلا ..

وكأى من فتيات انتحرن لأن خطأ اخلاقيا ارتكبنه كان مستورا ، ثم تكشف .. وكثيرا مايكون هذا الخطأ من الضآلة بحيث لايستحق التكفير عنه بالاعتذار .. فضلا عن الانتحار .

رأيت ـ فيما رأيت ـ أسرة ، كل نسائها وبناتها يمارسن البغاء السرى .. ورجال الأسرة من أزواج واخوة لايعلمون شيئا ..

ونساء الأسرة عبارة عن أم ، وبنتها المتزوجة .. وبنتين طالبتين .. والأم يشارف عمرها الستين .. وهى التى تدير مأدبة الرذيلة وتقدم للضيوف فى حذر ومهارة بنتها الزوجة ، وبنتيها الطالبتين .. (؟!)

لماذا تفعل الأم هذا وترتكبه ؟ ان الظروف المعيشية كما

رأيتها ، لايمكن ن تكون سببا ٠٠ والرغبة المشتهية ، لاوجود لها بين الحوافز على الأقل بالنسبة للأم ، وبنتها الزوجة ٠٠

لا أستطيع الزعم بأنني عرفت الباعث الكامن فى جوف المأساة ٠٠ ولكنى تأكدت من قصة« الأم » التى سأرويها لكم الآن ٠ ٠

كان أبوها تاجرا كبيرا ، وكانت أسرتها تقيم باحدى مدن العواصم الصغيرة ٠٠ وعلى الرغم من صلاح أبيها ومحافظته ، فقد كان رجلا متسامحا الى حد غير قليل ٠٠

أحبت الفتاة شابا يعمل في تجارة أبيها ، وسار حبهما في تكتم واستحياء ٠٠ وذات ليلة ، وأخوها راجع من عرس كان

يشهده ، والفجر يقرع أبواب يوم جديد ، « ضبطها » بين زراعى فتاها فى ذلك المكان الذى يسميه الناس « بير السلم » ٠٠

لم يكونا يصنعان ساعتئذ ، كما لم يصنعا من قبل أكثر من النجوى ، ومداعبة الأمل فى زواج سعيد ٠

وطبعا أخبر الأخ أمه وأباه ٠ وأصرت الأم على طرد الفتى من عمله ٠٠ واكتفى الأب بتوجيه نافع أسداه اليه وشفعه بالتهديد

بالطرد ان هو عاد ٠٠ بيد أن الأم صممت على الطرد وغاضبت زوجها من أجل هذا ٠٠ ثم عادت الى بيت زوجها بعد أن انتصرت

مشيئتها ٠٠ وخلال هذه الظروف والأيام ، كان الخبر قد تفلت من ثقوب النوافذ ، وتلقفته آذان الطريق ٠٠ وصار الوالد حديث الناس وموضوع تندرهم ٠٠

كيف يسكت على ماحدث ؟ ٠٠ كيف لايقتل الفتى ، وليس فقط يطرده ؟ ٠٠ بل كيف لايغسل العار بدم ابنته نفسها ؟ ٠٠ والعواطف تعدى ، والايحاء يضلل ٠٠

وهكذا ، فان « الرأى العام » فى تلك المدينة الصغيرة أنسى

الرجل عقله وتسامحه ..

وذات يوم أصلى ابنته ضربا أليما .. وعاشت الفتاة فى جو خانق من التحقير والاهانة .. وحددت اقامتها وروقبت حركاتها بشكل ضاغط مثير ..

وبعد سنوات تزوجت ، ثم طلقت ، ثم تزوجت رجلا بالقاهرة وبقيت فى عصمته حتى توفى .. وهى لاتنكر أنها وهى معه وفى عصمته كانت تفعل ـ دون علمه ـ ماتشاء .. (؟)

ان بنتها المتزوجة كذلك .. تفعل بارشادها ماتشاء (؟) والزوج لايعلم .. بل ان الزوج ليتحدث عن زوجته فى ثقة غامرة .. حتى لكأنها قديسة عذراء !! ..

مرة أخرى ، لا أزعم أننى أعرف حقيقة الباعث الذى ألزم الأم هذا السلوك المرذول .. ولكننى مطمئن ، وهى طمأنينة

لا أكلفكم أن تتقبلوها ـ أقول اننى مطمئن الى أن الدور الاجرامى الذى لعبه الرأى العام فى ذلك « البلد » الذى كانت تقيم فيه

الأسرة .. والذى ألب الوالد على بنته وحرضه .. والذى خلق من شىء تافه ، فضيحة مزلزلة شوهت روح الفتاة ، وشحنت نفسها بالحقد الضارى ..

هذا الرأى العام الجاهل المنافق التعس ، هو المسئول الأول عن هذه المأساة وعن ذلك الحشد الكبير من المآسى المماثلة ..

سألت الأم ـ ذات مرة ـ :
ـ أليس الأفضل أن تجنب بنتيها الطالبتين ذلك الطريق حرصا على مستقبلهما ؟ ..

فأجابتنى وهى تضحك :
ـ مستقبل ..؟؟ الحياة ماتستاهلش !! ..

انظروا ، لقد أقنعناها بتفاهة الحياة ، وتفاهة كل ما بها من قيم ،

يوم وقفنا منها وهى فتاة بريئة طاهرة ذلك الموقف الغـادر المخزى ٠٠ ويوم حظرنا عليها أن تتنفس ٠٠

يومئذ ، دفعها الرأى العام بكلتا يديه الى الرذيلة والشقاء ٠

ولقد يسأل سائل :

ـ أتريد من الرأى العام أن يسكت على الرذائل ، أو يصفق لهـا ؟؟ ٠٠

وأجيب : لا ٠٠ ولكنى أريد ألا يسلك تجاهها مسلكا غبيـا يضاعف من ضراوتها وانتشارها ٠٠

والحد الوسط بين الافراط والتفريط ، بين التهاون والتزمت ـ هو ماندعو اليه ، مدركين أن الظفر به يتطلب جهودا مخلصة شريفة تبذل فى سخاء لتطوير رأينا العام وتنويره ٠

مانوع هذه الجهود اللازمة ٠٠

أستطيع أن ألخصها فى كلمة واحدة هى « المعرفة » ٠٠

وأنتم تعلمون أن فى مقدمة وسائل المعرفة ، الكتاب ٠٠ والصحيفة ٠٠ وتعلمون أيضا احتياجاتنا العارمة الى الكتاب الموجه ، والصحيفة الباعثة ٠٠

أما الكتاب ، فلا مناص من اطلاق جميع الامكانيات اللازمة للكاتب من حرية ، وتشجيع ، ولابد من الغاء كافة الملابسات التى تبعث فى نفس الكاتب القنوط والسآمة٠٠٠ وأيضا لابد من كتاب ومفكرين يكرسون مواهبهم للنضال ضد مافى الحياة من كذب وألم وعجز ٠٠ ويعيشون للحق ٠٠ ويؤثرون الواجب على المنفعة ٠٠ بيد أنه ينبغى ادراك ظاهرة هامة ٠٠ هى أن الكتاب يقاتل فى معركة شبه يائسة ، اذا لم تسلك الصحافة نفس الطريق المستقيم الذى ندعو الكتاب للسير فيـه ، لأن ضجتها التى لاتنتهى ، وايحاءها الموصول النافذ يجعلانها أكثر هيمنة ، وأعلى صوتا ، وأوفر نفوذا ٠٠

والحق أن في صحافتنا خيرا لاينكر .. ولها دور مذكور ومشكور في انشاء الرأى العام ، وشد أزره .. لكن من الحق أيضا أن فيها شرورا لاتطاق .. ولها دور تعس في تضليل الرأى العام واعتياق نموه ! ..

فاذا قلنا انها تأخذ بالشمال ماتعطى باليمين لم نكن الا صادقين ..

ونحن لانكاد نعلم كيف تستطيع صحافة تلعب القمار مع القارىء ، وترسم سياسة توزيعها في غيبة فضائل المهنة ، والشعور بتبعات الفكر .. كيف تستطيع أن تكون معلما ومرشدا ؟؟ ..

لقد قلنا ان الناس يصوغون سلوكهم وفق القيم التي تسود مجتمعهم . وصحافتنا طبول تقرع لقيمة واحدة هي المنفعة !..

والسباق اللاهث المسعور الناشب بينها نحو التوزيع الاكثر جعلها تمرغ كل التزاماتها الشريفة في التراب والوحل ..

عندما تواظب الصحيفة على ابراز الحوادث التافهة وتعطيها من الاهمية ماتعطيه لاعلان حرب عالمية ، من العناوين الضخمة، والعرض المثير ، فان ذلك لايعني قط سوى شيء واحد ، هو اتلاف الملكات الذهنية للقراء الذين يتكون منهم رأينا العام ..

وعندما تنشر صحيفة بنفس الطريقة السالفة ، نص محادثة بين رجل وزوجته ، أو رفيق مع صديق ، فأنها بهذا تلبس الرذيلة ثوب الفضيلة .. بل ثوب البطولة ، وتقنع قراءها بأن التجسس على الاسرار التي أعلنت قداستها حقوق الانسان .. ليس سوى عمل شريف وبطولة تستأهل الحفاوة والاعجاب !

وعندما تعالج الصحافة القضايا القومية بروح حزبية . أو القضايا الانسانية بروح غير انسانية ..

وعندما تلتمس للباطل المعاذير والمبررات ، فانها تصيب الرأى العام بشر مايمزقه • وتعرقل في همة باغية كل وسائل التربية ومحاولات التفوق الخلقى للجماعة ••

فكيف نأخذ بزمام هذا المارد الضارى الى الخير والحق والواجب ؟؟ • •

ألا انه لعبث أكيد أن نتقدم للصحافة بموعظة ؟ ••

وأيضا ، انها لحماقة مزعجة أن نطالب بوضعها تحت وصاية •• نحن الذين نرى أن أفضل علاج لأخطاء الحرية •• هو المزيد من الحرية ••

اذن ، فما السبيل ••

هناك سبيل نقترحه وندعو له هو أن نحرر الصحافة ـ قدر الاستطاعة ـ من وطأة المنفعة ، التى تضلها ، وتضل معها الجماهير ••

وسنتوسل لهذا بالقانون •• وانه ليؤسفنا ونحن ندعو لاحياء الشعور بالواجب •• ونحذر من الاسراف فى الاعتماد على القوة حتى حين تتمثل فى قانون •• يؤسفنا أن نلجأ مضطرين هنا الى القانون لنتقى بمادة أو مادتين ، شرورا قد تحتاج بعد لقوانين شتى ، وعقوبات جمة ••

أما المادة الأولى من القانون المقترح ، فتحرم تحريما قاطعا القمار الذى تمارسه صحفنا •• وسنربح بهذا التحريم ،

انطلاق الجهود الفنية والعقلية فى كل صحيفة لرفع مستواها حتى تتفوق على غيرها •• ومهما يكن الأمر ، فستكون المنافسة

بين الصحف على هذه الصورة الكريمة سبيلا يتسامى بتحريرها وبقرائها ••

أما المادة الثانية ، فتعيد تنظيم الجريدة من جديد • تنظيما

ينفى عنها مظهر الاقطاع وسلوكه وصلفه وبهتانه ..

- كما نطلب من الذين ينشئون « جمعية » أو « هيئة » أن ينتخبوا المشرفين عليها ويلتزموا النهج القانونى الذى يردهم عن المحاولات غيرالمشروعة .. فكذلك يجب أن يكون الأمر بالنسبة للصحافة .. فالواقع أن كل صحيفة بموظفيها .. عبارة عن هيئة تمارس عملا مشتركا يقوم بتوجيه المجتمع .. فكيف نترك هذا العمل الجليل والخطير لفرد واحد ، هو صاحب الجريدة ؟؟ ..

ينبغى - اذن - أن يكون لكل صحيفة مجلس ادارة يشترك فى انتخابه جميع محررى الصحيفة وموظفيها ..

وهذا المجلس الذى نفترض أنه سيتكون من عشرة أعضاء ، يصير بمثابة « جمعيةعمومية » وينتخب بدوره « ثلاثة » يشرفون على التحرير ويكونون مسئولين عنه ..

اننا نعلم - سلفا - أن أصحاب الصحف سيخادعون القانون، ويصلون الى تكوين مجلس يوافق هواهم .. ولكن ذلك لن يضيرنا شيئا ، لأن كل تشريع جديد معرض للعبث الذى لايلبث أن يزول كلما تفاعل الناس مع واجباتهم ازاءه .. على أن قليلا من الضمانات نحوط بها المحررين والموظفين ، سيجعل كل محاولة للعبث هباء باطلا ..

ان مثل هذا التنظيم للصحافة هو - فى رأينا - السبيل الأوحد لتقويمها والانتفاع بها - فتوزيع المسئولية على جماعة ينتخبهم العاملون فى الجريدة سيحيى فيها وفيهم الشعور بالمسئولية .. ويرفع عنها وعنهم استبداد صاحب الجريدة .. ويحد من نشاطه الفردى الضار حين يعلم أنه لم يعد له من الامر شىء - وأن الجريدة لم تعد اقطاعا تسيطر عليه مصالحه .. وأن

سياستها لم تعد معلقة بكلمة تخرج من فمــه المملوء بالمطامع والأغراض .. بل صار ذلك كله فى أيدى المائة ، أو المائتين الذين يعملون معه ، ويحملون فوق كواهلهم المتعبة مشاق العمل وأوزاره ..

واذا سئلت ، ماذا أبقيت اذن لصاحب الجريدة ؟ ..

أجيب ، أبقيت له الربح الذى سيجنيه من جريدته .. بعد أن صار أو سيصير ربحا حلالا مشروعا .. وأيضـا أبقيت له نصيبه من الاشراف على سياسة الجريدة وتوجيهها مع الآخرين مادام سيظفر بتزكية الناخبين .

اننا نهيب بالمسئولين فى كافة بلادنا العربية أن يضعوا هذا الاقتراح موضع الاعتبار .. وسواء علينا أن يجىء هذا التنظيم فى صورة تشريع وزارى تضعه الحكومة ، أو نقابى ، تضعــه نقابة الصحفيين .. المهم أن يتم ذلك حثيثا ، ليقف ذلك الأثر السىء المندلع من تهالك الصحافة ، وتكالبها على الربح وعلى الانتشار ..

ان الصحافة فى بلادنا تكاد تنمى فى رأينا العام غريزة القطيع .. وتلاشى منه عقل الجماعة ، مما يســاعده عــلى ادمان الرذائل الاجتماعية من تعصب ونفــاق ، وجبن ، وكذب ، وجمود ، وانحطاط . وهكذا يتعطل انطلاق الجماعة الى أعلى . فلتبحث الصحافة عن طريق أهدى للحق ، وأصون للامانة التى تحملها ولنساعدها نحن على هذا بتنفيذ ما اقترحناه .. ويجب ألا ينسينا نقدنا هذا ، الاعتراف بما للصحافة من فضل عظيم ..

والآن .. وقد تعقبنا أهم مظاهر القوة والقهر العاملة الناصبة فى مجتمعنا . والمعطلة لذيوع الواجب الاخلاقى كباعث ومحرك .. فأننا نختتم هذا الفصل بالحديث عما نعنيه بالواجب ..

ماذا نعنى بالواجب ؟ ..

تتنشق الرئة المريضة الهواء النقى ، فتحوله الى سعال ..
وتهضم المعدة السقيمة الغذاء الشهى الغنى ، فتحوله الى مرض ..
ويتلقى العقل المخبول الكلمة المضيئة ، والحكمة المترعة ، فيحولهما الى هذيان ..

وللمجتمع قيم اذا نخرتها العلة أو أخذ مكانها نقيضها .. تتحول جهود الناس الى هباء ..
ولقد ذكرنا من قبل أننا نصوغ سلوكنا وفق القيم السائدة فى المجتمع .. فاذا كانت قيما ضالة جاء سلوكنا ضالا مثلها .. وان تكن قيما فاضلة ، يكن سلوكنا فاضلا ..

واذا رفع المجتمع لأبنائه قيما مريضة مسفة ، فيجب عليه ألا يلومهم على مايرتكبون ومايقترفون .. فسيكون للناس من العذر المشروع الصادق مثل ما لصاحب المعدة المريضة ، والرئة التالفة ، والعقل المخبول !! ..

ان كل جهد يبذل للتسامى بالسلوك سيتحول الى النقيض .. تماما كما تحول المعدة المروضة الغذاء الشافى الى مرض ، وربما الى موت ..

ففى ظل قيم منحرفة يتحول جهدك المبذول من أجل احراز الصدق ، لحساب الكذب ..

وجهدك للظفر بالشرف ، يتحول لحساب الخسة ..

وجهدك لكسب الشجاعة ، يتحول لحساب الخور والفزع ..

وجهدك لاستشراف الحقيقة ، يلتهمه منك رصيد الخرافة ..

وجهدك الصاعد نحو التفوق ، يتحول الى انتكاس مروع صوب الانحطاط !! ..

وهذا هو التفسير الصحيح للواجب الذى نعنيه .. فالناس عندما يجاهدون جهادا أخلاقيا فى ظل الواجب كقيمة .. فأنهم يجنون أشهى ثمرات جهادهم .. وحين يبذلون كل طاقتهم لبلوغ نفس الغاية فى ظل القوة كقيمة ، فأنهم لايكونون أسعد حالا من الذى يتحول التفاح الجيد فى معدته الى عصارة فاسدة !!

اننا فى ظل القوة نعمل الفضيلة مضطرين ومكرهين ، فأذا زالت ظروف اضطرارنا واستكراهنا ، لم يبق معنا من الفضيلة شيء ..

أما الواجب ، فهو كما يقول « جويو » ليس شعورا بضرورة ، ولا بضغط ، بل هو الشعور بقـــدرة .. ولذا فهو يدفع بكل حسنا الاخلاقى الى المعركة .. لأنه يوحى الشعور بالاحترام العميق لقوانا ومحاولاتنا ..

والتوسل بالقوة ينمى معنى الرق فى وجداناتنا .. بينما الواجب يرفعنا ، ويحلق بنا فى الفضـــاء الحر . ومعنا أخلاق الأحرار .. لا أخلاق العبيد ..

والقوة ارادة صناعية ، تأخذ مكان ارادتنا الطبيعية الذاتية .. وهكذا نعيش بارادة ليست منبعثة من صميمنا . وتحصرنا تلك الارادة الدخيلة داخل نفسها ، فتهتاج فينا التمرد عليها، والرغبة فى الانتقام منها ، وتنمى فينا من النزعات مايجعلنا أكثر توحشا ..

أما الواجب ، ذلك الذى ينبعث من اقتناع صميمى لنا وليس هناك قوة خارجية تزجيه سوى الضرورات العادلة المنبعثة من حياتنا الاجتماعية ، فهو وحده الذى يبدل خوفنا أمنا، وتوحشنا الغرزى ائتناسا وجدانيا وهو الذى يهبنا نور الشخصية بما يبعثه من ثقة بقدرتنا الداخليــة ، وبما يصـــنعه من تحرير لرقابنا ..

والقوة تعتمد على فرض أحكامها وأوهامها ، من غير أن تربطنا بواجبات مفهومة ، ومن غير أن تعطى الباعث الخلقى الاهتمامات اللازمة لبعثه وشحذه وتعليته ٠٠

أما الواجب ، فيخاطب الباعث رأسا ، ويروضه على ادراك واجب أخلاقى تزجيه وتحميه قوانا النامية ، وأفكارنا المقتنعة،

وعواطفنا المتطلعة لخير مافى الناس من مكارم ، والمزاملة لأسمى مايبذلون من محاولة ٠٠

وهكذا نجدالقوة حين تتحول الى قيمة علياتناط بها محاولاتنا او بتعبير أصح ، يناط بها اذعاننا الخلقى ـ نجدها أكثر نأيا بنا وابتعادا عن الفضيلة الراسخة ، والسلوك القويم ٠٠

يقول ماكولى : ـ « ان خير معيار لخلق الرجل ، هى الأشياء التى يفعلها فى خلوته حين يتأكد أنه لن يطلع على سره أحد »٠
ويقول هوايتهد : ـ « الدين هو ما يصنعه المرء فى خلوته »٠

أجل ، ان الوحدة لتنضو عن الانسان مايستر حقيقة نفسه٠ وهذا أجمل وأصدق تصوير للفضيلة ٠٠ فحين تكون وحدك

٠٠ لا سلطان لأحد عليك ، تبرز حقيقتك ، وتظهر كل خفاياك
٠٠ واذا كنت خبيث الطوية فأن مسرح الواقع يموج بمواهبك

الشريرة التى ستنطلق ساعية كحيات وأفاعى انطلقت من جراب حاو أو ساحر ٠٠ ويذهب عنك الانسان الذى يتصبب فضيلة،

ويزخر بالود للناس ، والغيرة على الحق ، ويتجلى شخصك الطبيعى الذى صنعته القوة ، وأنمت ضراوته !! ٠٠

ان هذا الذى نستطيع أن نتبينه فى أنفسنا حين نخلو بها ، وحين نفكر فى نفعية ، وغش وأنانية ٠٠ ليكشف عن خيبة

القوة واخفاقها فى خلق الفرد الصالح والمجتمع ٠٠ ذلك لأن القوة لا سلطان لها على ما فى داخلنا ، وعلى ما فى

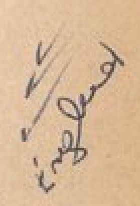
هذا الداخل من بواعث ورغبات ·· بخلاف الواجب الذى يدعم بنياننـــا من الداخل دعما قويا يحمى هيكلنا من أن يقوض ويسوى بالتراب ··

حولنا بلاد تكافح الجرائم ·· كمـا تكافح كبـــائر الخطايا بالقتل وغيره ، ومع هذا فللرذائل الخلقية هناك نشاط هائل لايكف عن الحركة ، ولا يفتر عن الارتكاب !! ··

وفى بلاد أخرى كسويسرا ، أو كالدانمارك ·· لاتبتر الايدى ، ولا تقسو على المذنب حتى يهـــلك ويموت ·· بل ولا تنظر للرذائل الا نظرتها الى مرض يعالج فى رفق وأناة ·· نجـــد الفضيلة مترعرعة ، يملأ الأفق عبيرها ، ويضيئه سناها ··

حدثنى أستاذ ثقة كان فى «لندن» بعد الحرب الماضية وغشيت البلاد أزمة فحم خانقة · وطلبت الحكومة من الناس أن يكفوا عن استعمال الفحم ثلاث ساعات كل يوم حددت ميقاتها ·· وفى هذا الوقت من كل يوم لم يكن بين سكان « لندن » جميعا من يخالف رغبة الحكومة ··

ولقد حاول صاحبنا أن يتأكد من هذا ، فكان يتعمد زيارة بعض معارفه من الانجليز خلال تلك الساعات ·· وحين كاشف أحد الانجليز بعمله هذا ، ضحك وقال له : لقد أتعبت نفسك · ان الشعب الانجليزى يحترم القانون لا لأنه قانون ·· بل لأنه كلمته ·· هو يقولها ، وهو ينفـــذها وحين يقولها لايقولها اعتسافا أو اعتباطا ، بل يستمدها من الضرورات العادلة لمجتمعه ·· فتأخذ صفة الواجب · وحين ينفذها يستبعد نهائيا كلمة « صعب » !! ··



وحدثنى نفس الأستاذ أنه يوم نزل « لنـــدن » لأول مرة طالبا فى احدى جامعاتها ، أعطى ملابسه للكواء ·· وفى اليوم

الثانى فوجىء حين عاد الى منزله بلفافة كبيرة موضوعة أمام باب المنزل على الطريق العام ٠٠ واقترب منها فوجد بداخلها ملابسه ٠٠ ومن ذلك اليوم علم أن مثل هذا العمل شىء عادى هناك وليس ثمت من تسول له نفسه خيانة مثل هذه الامانات مهما يطل مكثها أمام الباب !! ٠٠

ليس هناك مشانق للمذنبين ، ولا سجون تغص بأدوات التعذيب ٠٠ ولا قوانين يتجشأها فى اسراف مجتمع مبطون ٠

ولكن هناك أمة عشقت الحرية وتشبثت بها ، كما لم يتشبث بها أحد ٠٠ وولاؤها العريق للحرية ملأ روعها ووعيها بصوت

الواجب ٠٠ الواجب الذى تمليه ضرورات عادلة تتمثل فيها مصالح الأمة والجماعة ٠٠ ومن ثم يكون واجبا أخلاقيا نبيلا ٠

لا ذلك الذى تمليه مخاوف طغيان باغ أو تقاليد مجتمع متخلف ٠٠

فى كتاب « الأخلاق بلا الزام ولا جزاء » يحدثنا المؤلف عن طفلة فرنسية ، أعطتها أمها قرشا لتشترى شيئا للمنزل ٠ واذ هى تعبر الطريق دهمتها سيارة ألقت بها على الأرض وأصابتها

بجروح ٠٠ واحتوى الطفلة اغماء طويل بيد أنها ظلت قابضة على القرش فى حركة عصبية عنيدة ٠٠ ولما أفاقت ، وجراحها

تنزف ، وجدت أمها أمامها ، ففتحت يدها المقبوضة وبسطتها الى أمها تناولها « القرش » قائلة :

ـ قرشك يا أمى ٠٠ لم أضيعه !! ٠٠

يقول العلامة « جويو » معلقا على هذه الواقعة الرائعة « لقد كانت الحياة عند الطفلة أدنى قيمة من القرش الذى أؤتمنت عليه » ٠٠

ومنذ عام شهدت القاهرة واقعة مماثلة ٠٠

ضابط بوليس مصرى ذهب يحمل حقيبة بها ـ خمسة وثلاثون ألفا من الجنيهات ـ ليضبط بها عصابة تهريب ·· كان

الموعد بينه وبين العصابة فى منزل رئيسها · وذهب ومعه واحد من رجاله ·· ووقفت القوة بعيدا عن البيت ··

وداخل البيت ، قدم لهما « كوبان من الشاى » ما ان ذاق الضابط منه رشفتين حتى ذاق فيه طعم الغدر فقد مزجته العصابة بمخدر ··

وأدرك أنه أحيط به وبرجله الذى معه · والذى ألقاه المخدر كجثة هامدة بعد أن تجرع (فنجان الشاى) فى سرعة وهو يقول ـ ما أشهاه ؟! ··

وطلب الضابط من أفراد العصابة وكانوا أربعة أن يفتحوا باب الشقة وهنا أسفروا عن مكرهم وطلبوا اليه أن يسلم المال الذى معه فى هدوء أو فليكن الموت له ··

ونسى الفتى نفسه ، وذكر واجبه ورجع الى الوراء خطوتين حيث احتمى بمائدة الطعام التى فى البهو ·· وتبادل مع العصابة الرصاص ··

كان وحيدا بينهم ، والقوة هناك لاتسمع شيئا ولا تبصر ·· وتشبث بحقيبة النقود فى استبسال جنونى ·· وبدلا من أن يحمى صدره بها ، حماها بصدره !! ··

وهداه ذكاؤه فمزق زجاج النافذة برصاصة · نقل دويها نبأ المعركة للقوة المرابطة فى الخارج ··

وهاجمت القوة المكان وخرج الضابط يتهاوى ويترنح ··

وفوق السلم قابله رئيسه يسأله فى هلع ـ هل أصابك مكروه ؟ ··

بيد أن الفتى لم يكن هناك فى ذاكرته وعلى لسانه سوى عبارة واحدة هى :

ـ تفضل فلوسكم ·· لم يضع منها شىء !! ··

نفس الكلمات والحروف التى قالتها طفلة فرنسية منذ عشرين عاما فى موقف مماثل !! ··

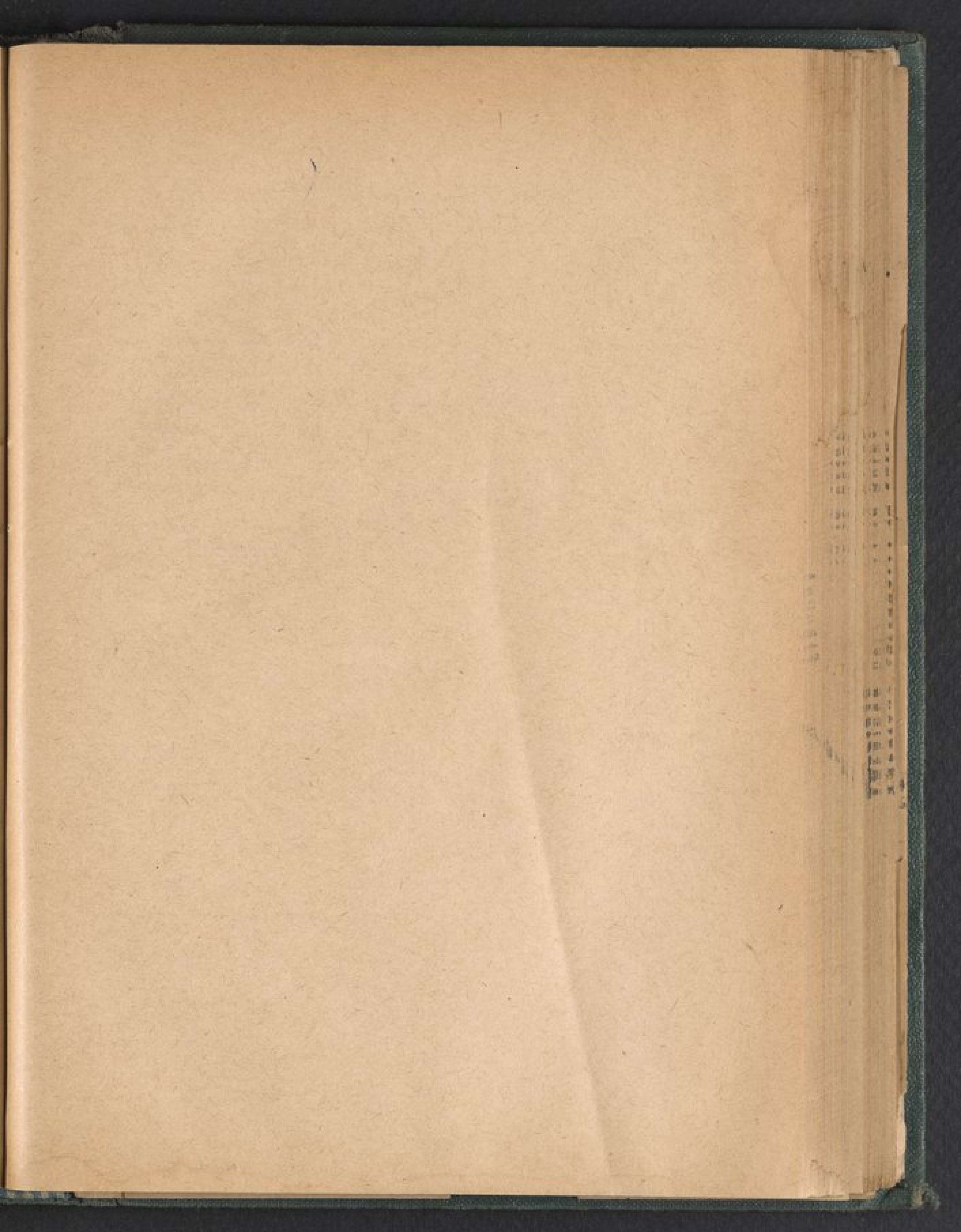
لماذا ؟ ··

لم تكن الطفلة هى التى صمدت وتكلمت ، ولم يكن الضابط هو الذى صمد وتكلم ·· بل كان شيئا آخر حل فيهما ·

ولو تعدد المشهد فى آلاف الرجال والنساء وكان هذا الشىء حالا فى ذواتهم ومقيما ·· لرأينا نفس الصورة ، ولسمعنا نفس الكلمات ··

أما ذلك الشىء فليس سوى ·· الواجب ··

ألا أن رحلتنا الى الكمال الانسانى لتبدأ من ايماننا بالواجب واعتمادنا عليه ، والتبشير به ، والتوسل لاقراره فى النفوس بكل سبيل مستطاع ··



معًا .. الدين والمدنية

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

« رسول الله »
« عليه السلام »

« اذا نحيت العقل لتفسح مكانا للوحى .. فقد أطفأت نورهما معا »

« فيلسوف غربى »

في هذا الفصل :

- قبل أن نبدأ ....
- الأخلاق التقليدية ليست دينا ..
- خصائص الأخلاق التقليدية ..
- الدين ، سياج الفضيلة ...
- المدنية ، رائد أمين .....

قبل أن نبدأ :

عندما أراد الدين أن يأخذ بيد الانسانية ويعاونها فى تنظيم حياتها وتأمين مستقبلها ، لم يكن يقصد بحال أن يضع جميع التفاصيل والوسائل ..

فهو أكثر من غيره علما باستحالة هذا وقلة جدواه ..

من أجل ذلك بشر بالقيم العليا فى كل شئون الانسان فى الحكم ، وفى الاجتماع ، وفى التشريع ، وفى الاقتصاد .. ودعا لاحترام هذه القيم ومراعاتها عندما يستحدث الناس فى مختلف العصور وسائل بلوغها ..

ففى الحكومة مثلا ، رسم الصورة الفاضلة لها مؤثرا نظام الشورى وحكم الجماعة ، فقال تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وترك للناس أمر تمرس التفاصيل وابتكارها .. كل أمة حسب ظروفها . وكل جيل حسب العصر الذى يعيش فيه ..

وفى التشريع سلك مسلكا مماثلا . فجعلها سياجا للحق والعدل . ورفض كل قانون ينهض على أنقاضهما .. وحتى لايحجر الاسلام على مستقبل الناس أعطاهم حق استحداث القوانين فى حدود قيمه وأهدافه ..

وهذا من الدين موقف جليل يهوى بأفئدة الناس وعقولهم اليه ، اذ لايشعرون معه بتأزم أمورهم ولا توقف نموهم ، ولا ضياع مصالحهم ..

ان الدين يريد بالتشريع صيانة الحق ، ورفع لواء العدل بين الجميع ، ورعاية مصالح الأمة . وهو أى التشريع لايكاد يبلغ هذا الا اذا كان متطورا ومتجددا بحيث يجىء دوما استجابة

سوية لمقتضيات العقل الانسانى ومنطقه .. وتلبية واعية لاحتياجات العصر ومشاكله ..

وليس أدل على هذا من أن الاسلام نفسه أبقى على بعض قوانين الجاهلية ، واستصحبها دون أن يغير منهـا أو يعرض عنها ..

وكأن الله سبحانه كان يلقى علينا درسا حين نسخ بعض أحكام التشريع المنزلة فى كتابه الكريم ، حتى لانحرم نحن على أنفسنا بعد ألف وأربعمائة عام تقريبا تطوير الوسائل التى تنظم حياتنـا وترفعها الى المستوى الذى يريده لهـا الخلاق العظيم ..

وشبيه بمسلك الدين حيال الحكم ، والتشريع مسلكه تجاه الأخلاق .. فهو يضعها موضع الاعتبار والاهتمام ، ويؤكد للناس أن الخير هو وصية الله الخالدة . وأن الشر طريق الهالكين .

ويرفع أمام أعينهم من القيم السامية ماهو جدير بتكريس الجهد البشرى فى سبيل بلوغه ـ بيد أنه لايمنع الناس من مشاركته

فى اختيار الوسائل المفضية لمكارم الأخلاق . ولا يزجر العلم عن القاء كلمته فى هذه الوسائل ..

فالفضيلة مرتبطة الي حد كبير بالتقدم . والعلم يقود قافلة التقدم فى فطنة باهرة . وفى عرفان كامل لجميل القوى الخيرة التى سبقته فى الطريق . وعلى رأسها الدين الذى لايزال

وسوف يظل يزجى للموكب الزاحف نفحات تشد عزمه ومناهج تهدى خطاه ..

لابد من الثقة بالدين والعقل معا فى مستواهما الرشيد

---

(١) راجع الفصل الثانى من كتاب الديموقراطية « أبدا » ..

الخالص من الشوائب ، ومادام الانسان هو المكلف بما يلقى اليه من تشريع وخلق ، فلابد من رؤيته جيدا وتقـدير وجوده النامى المتطور ٠٠ وبعبارة واحدة ٠ لابد من فهم هذا الانسان٠

أجل ، ان انسان هذا العصر انسان جديد ٠٠ خالق قيم ، ورائد حضارة ٠٠ وهو اذ يرفض أن يكون امتدادا أفقيا لسلفه، يريد أن يكون امتدادا رأسيا صاعدا ٠٠ ولم يعـــد هدفه فى الحياة أن يفلسفها ، بل أن يحياها ٠٠

وليس هناك عبث أكثر من عبث الذين يحاولون أن يسلكوه فى شكيمة ٠ ويفرضوا عليه قيما موروثة لم يمنحها عقله الحر جواز المرور ٠٠

كان عمر بن عبد العزيز من خير الذين حملتهم الأرض فوق ظهرها ، فهما ، وعدلا ، وزهدا ٠٠ ولقد كان له دعاء جـــدير بكل متدين صالح ورع أن يفقهه ويرتله ٠٠

كان الخليفة الصالح يدعو ربه ويقول :

ـ « يارب انفعنى بعقلى ٠٠ واجعل ما أنا صائر اليه ، أهم الى مما أنا مدبر عنه » !! ٠٠

أهناك حفاوة بالعقل ، وارتباط بالمستقبل أصدق من هذا ، سيما حين يجىء من رجل كعمر بن عبد العزيز الزاهد القانت الأواب ؟؟ ٠٠

ان الفلسفة اليوم تنأى عن وصف الانسان بأنه « كائن »٠ وتنعته بأنه « صائر » اشارة الى تطوره المتحرك أبدا ٠٠ فتأملوا فى ضوء هذه اللفتة الفلسفية ، كلمة عمر بن عبد العزيز وهو يقول اجعل ما أنا « صائر » اليه ، أحب الى مما أنا مدبر عنه ٠

لست أعرف لطمة توقظ الغافلين الصالحين الذين يرون فى « الصيرورة الى أفضل » جنوحا وكفرا ، مثل هذه التى تأتيهم من رجل يجل عن النظير فى طهره وصدقه وتقواه ٠٠

فلنسأل الله معه أن ينفعنا بعقولنا ، وأن يجعل اهتمامنا بالمستقبل أكثر من اهتمامنا بالماضى ..

بل لنستعمل نفس كلمته ، فقد قال « أحب » ولم يقل « أكثر » ..

والحق أن الذكاء المتألق فى كلمة « أحب الى » يزيد فتوننا بصفاء هذا الرجل العظيم .. فحاجتنا شديدة الى تحويل قلوبنا عن الماضى الى المستقبل ، وبذل الكثير من حبنا له ، اننا نحب الماضى .. نحب القديم .. كما يحب المريض علته ، مؤثرا اياها على مرارة الدواء ومشاق الشفاء ..

نؤثر الماضى على المستقبل ، فرارا من تبعات الانتقال التى تتطلب أول ماتتطلب تغييرا فى عالمنا العقلى ..

من أجل هذا تعظم حاجتنا الى تحويل مودتنا وحبنا للمستقبل الذى نحن صائرون اليه !! ..

ان وصل الأمة ـ أى أمة ـ بالتقدم الانسانى رهن بطبيعة الموقف الذى تقفه بين الماضى ، والمستقبل ..

ونحن كقوم نحاول أن نكون راشدين ، علينا ألا نهدم الماضى ، وفى نفس الوقت علينا ألا نرتبط به وحده بل نتخذه وسيلة وموردا لمستقبل متطور وحياة متقدمة نامية ..

أما الذين يريدون لنا أن نحكم من وراء القبور فجد خاطئين وانهم ليستطيعون أن يروا أنفسهم ، ويطالعوا عاقبة أمرهم والمصير . اذا هم شاهدوا أسطورة « السيد الكبير » فى قصة « طريق الأفيال » !! ..

لقد كان « السيد الكبير » يتحكم فى الحياة وفى الأحياء من قبره ، بنفس القوة التى كان يتحكم بها حيا ..
وكان أكثر الناس اذعانا لذكراه ، وانبهارا بالماضى وتعبدا له ذلك الذى يدعى « أبو هامى » ..

انه صورة حية لعبيد الماضى وسدنة التقاليد ٠٠ ويوم زحفت

الأفيال كمد المحيط على القصر الذى تحداها به « السيدالكبير» وقطع به طريق الماء ٠٠ جاء « أبو هامى » مستطار اللب ، مفزع الفؤاد اذ رآها تسحق قبر سيده سحقا ٠٠ وهم ليحمى رفاته ٠٠ فتقدم اليه فيل متواضع ، والتقطه بخرطومه ٠٠ ثم طوح به الى منيته كأنه بعوضة !! ٠٠

هكذا يفعل التقدم بكل من يقف زحفه ، ويتخذ من الماضى قبلته وامامه ٠٠

ان الحياة تجدد وصعود مستمران ٠٠ وكل حقيقى فيها يتحول الى النقيض حين يفقد ضرورته ٠٠ والماضى ، والحاضر ، والمستقبل تقسيم وضعى ونسبى ليس أكثر ٠٠

والزمان فى نظر الحياة ، ليس سوى شوط واحد لانهائى تريد أن تحقق به غرضها الأوحد ٠٠ ألا وهو التقدم ٠٠

فالتحيز للماضى عمل يرفضه الماضى نفسه ، لأنه يفقد وجوده وموضوعيته ، فى نفس اللحظة التى نعزله فيها عن حاضر الزمان ومستقبله ، كما أن جحود المستقبل ، والتبرم بفضائل العصر ومنهاجه ٠٠ يعتبران من فورهما ، جحودا للماضى وانكارا لفضائله وتعاليمه ٠٠ لأن ذلك الماضى نفسه ، كان يوما ما ، حاضرا ، ومستقبلا ، وكان الولاء لتعاليمه الجديدة مروقا ، والحادا ٠٠

وما أصدق الشاعر الذى قال :

قل لمن لايرى المعاصر شيئا ـ ويرى للأوائل التقديما
ان ذاك القديم كان جديدا ـ وسيضحى هذا الجديد قديما

واذا كان التعاون مع التطور ، والاتجاه صوب المستقبل لازمين لتحقيق أغراض الحياة كافة ، فهما أكثر حتمية ولزوما لتحقيق غرضها الأخلاقى ٠٠ لأن التطور والمستقبل ، يعنيان المدنية والتقدم :

والمدنية كما سنرى خلال الصفحات القادمة ضرورية للاخلاق لأنها تنمى كافة مصادر السلوك من عقل ، وشعور ، وارادة ، وتنقل الانسان بوسائلها الكثيرة المجدية من الفردية والعزلة اللتين ترعرعان الشهوات الضالة الى الغيرية التى تحول الرغبة الشخصية الى وجدان عام يتحرك داخل موكب خير ، يستهدف خيرا مشتركا ..

وانه لمن الخير أن ندرك حقيقة هامة ـ هى أن الدين فى كافة أزيائه .. اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام . انما انتصر ورسخ وتفتحت له القلوب ، لأنه كان حين أهل على الناس يمثل مدنية جديدة .. وان المرسلين عليهم السلام لم يتوج كفاحهم ضد خصومهم العتاة بالفوز ، الا لأنهم كانوا يمثلون طلائع المستقبل والغد .. بينما شد خصومهم الى الوراء بسلاسل وثيقة من حرص مشئوم على تقاليد عفنة ، وتعصب ذميم لجهالات راسخة ، وتطلع مسعور الى مغانم باطلة ..

أجل لقد كان موسى دعوة المستقبل والتقدم الى فرعون .. ألم يناد ببشريته بدل ألوهيته ؟؟ ..

ألم يلخص أمر ارساله موضوع رسالته التقدمية .. حين قال الله له « اذهب الى فرعون انه طغى » ؟ ..

ألم تكن مناضلة الرجعية السياسية المتمثلة فى فرعون ، والرجعية الاقتصادية المتمثلة فى قارون عملا من أعمال التقدم الانسانى ، والحضارة الزاحفة ؟؟ ..

أليست مدنية فاضلة ، هذه التى قالت فى ذلك اليوم البعيد جدا للطبقة الكادحة المعذبة جئت لأحرركم من الرق ، وأجعلكم أئمة ، وحكاما ، وأجعلكم الوارثين لملك فرعون . وأمكن لكم فى الأرض .. لينظر الله كيف تعلمون ؟ ..

والمسيح ؟ ..

لقد كان هو الآخر حين أهل يمثل مدنية فاضلة ..

استمعوا للحيثيات التى طالب رؤساء الكهنة « بيلاطس » بأعدام المسيح من أجلها :

ـ « اننا وجدنا هذا يفسد الأمة .. ويقول للناس لاتعطوا الجزية لقيصر .. فأنه عدو الله وعدوكم ..

« انه يهيج الشعب .. ويعلم فى كل مكان .. مبتدئا من الجليل الى هنا » ..

أليس الانسان الذى يحمل هذه المبادىء ، ويقدم رأسه وحياته ثمنا متواضعا لها ـ رسول حضارة خلقية جديدة فى أيامه تلك التى كاد الناس فيها ينسون ما هى الفضيلة ؟ ..

وانظروا .. ان الذين يلحون فى طلب صلبه واعدامه هم الكهنة .. رعاة مدنية آفلة أفسدها أصحابها وذووها .. هم رجال الدين يطالبون برأس من جاء يجدد للدين ضوءه الخابى، وشبابه الضامر .. فى تعاليم جديدة ..

احفظوا هذه العبرة ، وأذكروها ، كلما حرضكم على عداوة الفكر دجال ..

ان « بيلاطس » يقول للكهنة : « كيف أقتله ، وأنا لم أجد فيه علة واحدة » ؟ ..

فيتراكضون كخنازير تساق الى المذبح .. ويصرخون :

ـ « اصلبه .. اصلبه .. ان أطلقته ، فلست محبا لقيصر»!

باسم الدين دفع جسد المسيح الى العذاب وبكلمة من رجال الدين وكهنته ، تماما ، كما حدث لـ « جان دارك » وكما حدث لغيرها من قبل ومن بعد .. وكما يحدث الآن بصورة مخففة عندما يقف بعض المخلصين ليعزلوا الخرافة المتطفلة على ديانة

the Prophets bring civilization, preach against tyranny and priests are against them.

قائمة . وليرصفوا بتضحياتهم العذبة طريق التقدم البار ..
ونغادر المسيح لمحمد عليه الصلاة والسلام ..

ألم يكن أيضا رسول التقدم والمستقبل ؟ ذلك العظيم الفذ الذى أعلن ملء عزمه ويقينه ، الاله الواحد .. الذى ليس هو من خشب ، ولا من ذهب ، ولا من حجارة .. والذى ليس له قاعة عرش . وليس له فى الأرض كلها حامل أختام «!!» والذى ليس سوى ارادة واعية منبثة فى الكون ، ونور يغمر الوجود

اسمعوه وهو يسأل من أصحابه : يارسول الله كيف رأيت ربك ؟ ..

فيجيبهم : نور أنى أراه ! ..
أى تحرير للعقل ؟ .. أى افساح للمعرفة ؟ ..

ثم أى تقديس للمدنية والمستقبل ، حين يقول عليه الصلاة والسلام « سيساق منكم الى العذاب يوم القيـــامة أناس .. وأنهض لأشفع لهم .. فينهانى ربى ويقول لى : انك لاتدرى ما أحدثوا بعدك .. لقد كانوا يمشون القهقرى على أعقابهم .. فأقول : سحقا سحقا »..

لو أن الاسلام اختصر فى هذا الحديث وحده .. هذا الحديث ولا شىء معه .. لكفل له البقاء مادام هناك حياة .. فهذا هو دستور الحياة الخالد : لاتسيروا القهقرى ، فليس وراءكم سوى أرض منهوكة منزوفة . ولكن امضوا الى الامام .. والى الامام دوما حيث « اللانهائى » فى انتظاركم ..

الاخلاق التقليدية ليست دينا ..

سنبدأ حديثنا هذا ملاحظين أن البيئات التى بدأت فيهـــا وانطلقت منها ، اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام ـ كانت بيئات متخلفة تتمتع بحظ كبير واف من الجهل ، والجمود ، والعزلة ..

فلم يكن من الطبيعى ، والأمر كذلك أن يختص الدين بدعوته، العقيدة وحدها ٠٠ بل لابد من أن يعاون هؤلاء العزل من المعرفة، ومن العزم ، على ترقية أحوالهم ، وتهذيب سلوكهم ٠ ومن هنا

كان الدين يعنى بالعقيدة التى جاء يبثها ، وبمصالح الجماعة المعيشية ، ثم بأخلاقها وسلوكها ٠ ٠

ولنترك العقيدة جانبا ، لنرى ظاهرة قيمة ٠ هى أن كل دين من الأديان الثلاثة ، كان يعالج مصالح الجماعة التى ظهر فيها، وأخلاقها بأسلوب ملائم لظروف الجماعة وعرفها ٠٠

وقبل أن نستخلص من هذه الظاهرة نتيجة ما ، دعونا نضرب لها مثلا ٠٠

كان لنساء بنى اسرائيل فى الدهر الأول عادة شاذة يستعملنها فى العراك فكانت الواحدة منهن اذا رأت رجلا يشتجر مع أخيها ، أو زوجها ، أو ابنها ، تهب لنجدته ، فتهجم

على خصمها ، وتقبض بيدها فى ضغط على « خصيته » حتى يهلك ، أو يستسلم ؟ ٠٠

فكان لابد أن يهذب الدين هذا السلوك الشاذ الفاسد ، فكانت الآية الحادية عشرة من الاصحاح الخامس والعشرين فى سفر التثنية ٠٠ والتى تقول :

ـ « اذا تخاصم رجلان ٠ بعضهما بعضا ٠ رجل وأخوه ، وتقدمت امرأة أحدهما لكى تخلص رجلها من يد ضاربة ومدت يدها وأمسكت بعورته (؟) فاقطع يدها ولا تشفق عينك » ٠٠

وأيضا كانت ظروف اسرائيل ، ومغامراته الحربية « فى أرض سيحون ملك الأموريين ، وأرض عوج ملك باشان » كانت

ظروفهم فى تلك الأيام تدعوهم للتكاثر والانطواء على أنفسهم ٠ وخلق مجتمع عنصرى لاينفتح بابه لسواهم ٠٠ فجاءت تعاليم

موسى عليه السلام من المبالغة بحيث تصوغ سلوك الناس هناك وفق هذه الحاجة فقال فى الآيات الأولى من الأصحاح المذكور:

ـ « اذا سكن أخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن ٠٠ فلا تصر امرأة الميت الى خارج لرجل أجنبى ٠٠

« أخو زوجها يدخل عليها ، ويتخذها لنفسه زوجة ، ويقوم لها بواجب أخى الزوج ٠٠ والبكر الذى تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من اسرائيل ٠٠

« واذا لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه ، تصعد امرأة أخيه الى الباب ، الى الشيوخ ٠ وتقول : قد أبى أخو زوجى أن يقيم لأخيه اسما فى اسرائيل ٠٠ لم يشأ أن يقوم لى بواجب أخى الزوج ٠٠

« فيدعوه شيوخ مدينته ، ويتكلمون معه ٠ فان أصر ، وقال لا أرضى أن أتخذها ، تتقدم امرأة أخيه اليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق فى وجهه ، وتصرخ وتقول : هكذا يفعل بالرجل الذى لايبنى بيت أخيه ، فيدعى اسمه فى اسرائيل بيت مخلوع النعل » ! ٠٠

أرأيتم ؟؟ أيكم يود أن يكون مخلوع النعل ؟ ٠٠

ان عيسى لم يفعل هذا ، ولم يأمر به ٠٠ ومحمد أيضا ٠٠ فلماذا ؟ ٠٠ لأن ظروف البيئة التى ظهرا فيها لم تكن بحاجة اليه ٠٠

ومثل آخر ، قد يكون أكثر ايضاحا ٠٠ فالتوراة ترسم أخلاق الحرب فى قسوة ، وعنف ٠٠

فانظر ماذا كانت تقول لليهود وهم يحاربون الحثيين ، والأموريين ، والكنعانيين :

each religion comes with principles
following his times

ـ « .. تهدمون مذابحهم ، وتكسرون أنصابهم ، وتقطعون شواربهم ، وتحرقون تماثيلهم بالنار ..
« لاتقطع لهم عهدا ، ولا تشفق عليهم ..

وتأمرهم أن يدمروا فى « أريحا » كل شىء ، ويقتلوا جميع مافيها ، ومن فيها ..

فهل من الخير ، أن ننادى اليوم بأخلاق الحرب هذه ، لأنها كانت يوما ما أخلاقا دينية ، ووصايا رسول، وكتاب مقدس ؟..

فاذا أردنا مثلا من تعاليم المسيح وجدنا شيئا مغايرا .. ان الظروف التى كانت تجعل سلفه موسى يؤجج كل شىء حتى الكلمات نارا وسعيرا ، لا وجود لها ، وطبيعة الداعى هنا وهو المسيح ، مختلفة عن طبيعة الداعى هناك ، وهو موسى ..
والتكييف الأخلاقى للسلوك كان فى أيام موسى مشبعا بروح الحقد المقدس والمغالاة ، أما هنا « فباركوا لاعنيكم وأحبوا مبغضيكم » ..

من أجل هذا نلتقى داخل اهاب يسوع بأنسان عذب رقراق، أقصى ماتبلغه انفعالاته من عنف وحدة ، لايتمثل فى غير قوله « يا أولاد الأفاعى » ! ..

نلتقى بالمسيح وهو يفتح ملكوت الله « للخطائين والزوانى».
هل تتصورون هذا ؟ .. نعم ، ففى موعظته لحجاج الهيكل وقف يقول :

ـ الحق أقول لكم ، ان الخطائين والزوانى يسبقونكم الى ملكوت الله ، لأن يحيى جاءكم بالحق ، فلم تؤمنوا له » ..
ومع هذا فلانستطيع أن نحقق السلوك الذى سار عليه المسيح

انه يرى النظر الى وجه المرأة والفتاة ، التى هى اليوم زميلتك فى الجامعة ، أو فى العمل ، أو الطريق .. يرى النظرة المشتهية اليها زنا .. « فأن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها » ! ..

« وان كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها »! ..

وعثرة العين النظر ، وعثرة اليد فى هذا المقام اللمس ونخشى أن تكون المصافحة ..

ولا تتزوج امرأة مطلقة ، ولو أعجبتك ، لأن « من يتزوج مطلقة فأنه يزنى » ! ..

« ومن لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضا .. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا » !

والحياة عبث ، ومباهجها لغو ، والمال شر والانسان لايقدر أن يخدم الله والمال . .

« لذلك أقول لكم لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون » ..

والمستقبل فناء وعدم.. فاطلبوا «ملكوت الله وبره » ، ولاتهتموا للغد .. لأن الغد يهتم بما لنفسه . ويكفى اليوم شره » ! ..

وأنعم الحياة ، وتيسيرات الحضارة ترف يعتاق أصحابه عن الجنة وعن ملكوت السماء فمن كان يريد الفردوس «فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير » ! ..

أجل ، هكذا يقول المسيح ، وهكذا يريد .. فهل تسمح ظروفنا الماثلة ، أن نلتزم هذا النهج المثالى الصارم ؟ ..

ان الاقتصاد والادخار من يوم نجد فيه ، ليوم قد لانجد فيه .. يقف على رأس فضائل عصرنا . بل ضروراته .. فهل نأخذ بهذه الفضيلة أم نطرحها ونحمل فضيلة « العراء » التى يدعونا اليها المسيح فيقول :

— « لاتقتنوا ذهبا ، ولا فضة ، ولا نحاسا فى مناطقكم ، ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ، ولا أحذية ، ولا عصا » ؟! ..

ان المسيح وحده بما أودعه الله فيه من شموخ الروح، وصلابة

الارادة ، وربانية الرغبة .. هو وحده يستطيع أن يصوغ سلوكه وفق هذه التعاليم .. أما بقية الناس فهيهات ..

ونغادر المسيح الى محمد عليه السلام لنأخذ أيضا منه مثلا .

والحق أن الرسول أكثر واقعية .. والحق أيضا أنه كما وصفه ربه « على خلق عظيم » شأن اخوانه المرسلين جميعا الذين اصطفاهم الله واختارهم ، بيد أن هذا لا ينفى أن بين تعاليمه أشياء كانت تلائم روح العصر الذى ذهب .. أكثر مما تلائم عصرنا هذا ..

ونحن نبادر ، فنحذر الذين قد ينكرون علينا وضع تباين العصور موضع الاعتبار ، نعم نحذرهم ، لأنهم بأنكارهم هذا يزفون أنفسهم الى موقف ذميم لايطيقون تبعاته .

ذلك أننا سنسألهم : اذا لم يكن لاختلاف الأزمنة ، وتباين العصور شأن ، فلماذا أرسل الله موسى ، ولم يكتف بالذين سبقوه من الانبياء والمرسلين ؟ .. ولماذا جاء المسيح بعد موسى مكملا ناموسه ومنهاجه ؟ ..

ثم لماذا لم يكتف الله بهذا ، فأرسل محمدا ؟ ..

أليس ذلك احتراما من الله ذاته للشىء الذى تنكرون علينا احترامه .. وهو تباين الزمان والعصر .. وبكلمة واحدة — التطور ؟ ..

ولقد تسألون بدوركم : لماذا لم يرسل الله بعد محمد أحدا ؟ ..

وعلى الرغم من أن هذا السؤال لايفيدكم فيما نحن بصدده، نجيبكم قائلين : لسبب بسيط جدا . هو أن العقل الانسانى ، والحضارة البشرية بلغا منا لسموق والتفوق مايجعلهما جديرين بالسير ، مكتفيين من التجربة الدينية بما حققه موسى وعيسى ومحمد ، واخوانهم الذين سبقوهم بأيمان ..

ماذا نريد بهذا الحديث الذى سقناه ، والشواهد التى أزجيناها ؟ ..

نريد أن نقول : ان هناك نوعا من السلوك يمكن أن نسميه السلوك التقليدى .. أى الذى تمليه ظروف البيئة .. وهذا السلوك . أو هذه الأخلاق التقليدية منها مايزكيه الدين ، وينادى الناس اليه ، لأنه فى ميقات معين معلوم يمثل حاجة من حاجات النمو الاجتماعى للناس . أو يعالج وضعا من الاوضاع القائمة حينذاك .

ومنها مالم يدع الدين له ، ولم يعبأ به .. بيد أنه اختلس لنفسه قداسة دينية .. وانتحل ثقة الدين زورا وكذبا ..

وسوف نعرض لهذا النوع الثانى فيما بعد .. أما الآن فنحن مع النوع الأول من الأخلاق التقليدية وهو الذى زكاه الدين ودعا اليه ..

اننا نعتبر هذا النوع من الأخلاق « تقليديا » لأنه جاء استجابة لروح التقاليد القائمة فى الجماعة أو كان رد فعل لها ..

وهو بهذا المعنى ليس له حق البقاء والاستمرار الذى نجده لقضايا الدين الصميمية التى ترتبط بحقيقته ولبابه ، كالصلاة مثلا ..

فاليهودى المتدين مثلا ، يستطيع اليوم أن يتخلى عن أخلاق الحرب كما رسمتها التوراة من عهد بعيد دون أن يكون خارجا على دينه ، لأن السلوك العنيف الذى دعت التوراة لالتزامه فى الحروب .. ربما كان له يومذاك مايبرره . أما اليوم فقد وجب أن يتخلى عن مكانه لسلوك آخر أقل عنفا وأكثر تسامحا ..

والمسيحى المتدين أيضا ، يستطيع أن يقتنى « ذهبا ، وفضة ،

ونحاسا ، ومزودا للطريق ، وثوبين » بل عشرين ثوبا دون أن يكون قد تخلى عن فضائل دينه ..

والمسلم المتدين ، يستطيع ـ مثلا ـ أن يحلف بغير الله . ثم لايتهم بسوء الخلق ، مع أن الرسول عليه السلام يقول : « من حلف بغير الله ، فقد أشرك » ..

وذلك لأن هذا الحديث قيل فى ظروف خاصة يوم كانت الدعوة فى بدايتها . وكان الاسلام فى سبيل الأجهاز على الوثنية ، شديد الحرص على تخصيص الله وحده بكل مظاهر الاجلال والتعظيم ..

ولما كان الناس لايحلفون الا بعظيم . فقد لزم أن يكون حلفهم بالله وحده ..

وما ان زال هذا السبب . ورسخ الايمان والتوحيدفي قلوب المسلمين حتى زال الحكم معه .. فسمعنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ـ فيما روى عنه ـ يحلف فيقول « أفلح وأبيه ان صدق » ..

هكذا نرى أن من حقنا تكييف الأخلاق التقليدية التي زكاها الدين بحيث تحقق الغرض الفاضل الذي توخاه الدين ولا يزال ..

ونود أن نلفت النظر الى أن المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم ، كانوا فى الجانب الآخر من الموضوع يقفون موقفامثاليا فذا . قد لانستطيع نحن ادراكه . ولكنه مع ذلك يبقى محتفظا بقيمته وعظمته ..

فالمسيح مثلا ، عندما يعتبر النظرة المشتهية زنا .. وعندما يقول : ان كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها .. وحين يقول : من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضا ..

والرسول عليه السلام ، عندما يقول : تخلقوا بأخلاق الله ..
انما يضعان بهذا تصميم أخلاقية مثالية يحاول الانسـان الصعود اليها . وسوف يصل يوما ما ..

وكون هذا الجانب من الدعوة الأخلاقية للرسولين الكريمين مثاليا ، لايلغى مسئوليتنا تجاه محاولة بلوغه .. وأيضا لايعنى

أن دعوتهما الأخلاقية ، مثالية كلها بحيث يكلف الناس من اجل بلوغها مالا يطيقون ..

فالدين يدعو لفضائل طوع طاقتنا .. كالصدق ، والعفة ، والجود ، والشجاعة ، والمحبة ، والايثار ..

وتحقيق هذه الفضائل وغيرها ، لايحتاج لجهد معجز . بل الى حظ عادى من التربية الحسنة ، والظروف المواتية ، والارادة المدربة ولا تنسوا توفيق الله .

نعود الى النوع الثانى من الأخلاق التقليدية ، هذا الذى لم يكد يظفر بتزكية الدين الا لماما . والذى لاتسمح له طبيعتـه بمسايرة المدنية حتى فى خيرها ونهاها ..

عند ماغزا الأتراك مصر حرموا على المرأة كشف وجهها ..
ومضت أيامهم بيننا كالحة مغبرة تدعم هذا التحريم حتى صار

خلقا وفضيلة . وأمست العفة تعنى فى بلادنا اخفاء وجه المرأة تحت حجاب كثيف لايكاد يبين .. وصار كشف المرأة وجهها

دليلا على سوء خلقها ، وفساد تربيتها وسلوكها . مع أن الاسلام يأذن للمرأة بكشف وجهها . ولا يحظر عليها ذلك ..

هذا مثل نضربه للطريقة التى تكونت بها الأخلاق التقليدية عبر الزمان . تقاليد تحولت الى أخلاق ويراد لها أن تظل متربعة

على عرشها كأن الزمن لايتحرك ولا يسير .. وكأن الأيام لا تتطلب جديدا من الفهم وجديدا من النهج وجديدا من السلوك ! ..

ان الأخلاق التقليدية هذه ، كانت تستلهم فى معظم حالاتها احتياجات البيئة ، وظروفها ، واستعدادها . فكيف نطوق بها أعناقنا اليوم وقد تغيرت مبرراتها ؟ .. وكيف نحظر على أنفسنا ما أبيح بالأمس لغيرنا ؟ ..

ألا ان الحقيقة لتخبرنا أننا لانستطيع أن نكون أخلاقيين حتى نعيش فى زماننا ..

واذا كانت التقاليد القديمة التى صارت أخلاقا تختلس من الدين ماعساه يزكيها ، فعلينا أن نعرف ماذا يريد الدين منا .
ان الدين يريد أن يعيش الناس عيشة صالحة . وأن يرتفعوا بأنفسهم ، وبفضائلهم الى الكمال الميسور .. وهو بعد هذا أفقه وأذكى من أن يلزمهم فى مثل هذا الشأن بوسائل متحجرة ، ومناهج ثابتة ، وأحكام نهائية ..

وهكذا يقف الدين نصيرا للتقدم الهادف ، وللمدنية الفاضلة الرشيدة . بينما تناصبهما الأخلاق التقليدية العداوة والبغضاء

واذن فأخلاق المدنية أقرب الى أخلاق الدين الصحيحه .

ولأخلاق المدنية سمة تميزها ، هي أن الوسيلة فيها متجددة دائما بحيث يحقق الناس بها الفضيلة دون أن يفقدوا ببلوغها فضيلة أخرى . الأمر الذى تتورط فيه الأخلاق التقليدية .

وأخلاق المدنية تلتقى دوما وباستمرار لقاء وثيقا مع الدين فى الغايات الأخلاقية ، وان اختلفت معه فى بعض الوسـائل المفضية لهذه الغايات ..

ان الدين ينشد رعاية شاملة للخير ، وعزوفا دائبا عن الشر . ولقد وضعت المسيحية ذلك المبدأ حين قالت :

« لايغلبنك الشر . بل اغلب الشر بالخير » .
ووقف الاسلام الحنيف ذات الموقف حين قال : « خالق الناس

بخلق حسن . أكمل المؤمنين ايمانا ، أحسنهم خلقا » .
ثم على الناس بعد هذا أن يستمدوا من ظروف تطورهم ، الوسائل التى يغالبون بها الشر . ويخالقون الناس بأحسن الأخلاق ..

فاذا أراد الدين عفة .. وحددت الأخلاق التقليدية طريقها بالفرار من المرأة ، والزامها قعر دارها .. فأن موقفنا يتمثل فى أننا ننفذ مشيئة الدين ، فنؤثر العفة .. ثم نختار الوسيلة الناجعة ، والملائمة لسنى تطورنا وتقدمنا وتجاربنا . وهنانجد أنفسنا معرضين عن الأخلاق التقليدية باسم الواجب ، وباسم الفضيلة ، بل وباسم الدين ذاته .. وسائرين فى زمالةالاخلاق الحضارية التى امتحنت الأشياء وقلبت وجوه النظر ، ثم جاءتنا تعلن فى ثقة أن الانفصال التام بين الجنسين أقرب الطرق لكافة الرذائل الجنسية التى عرفها الانسان من عهد الغابة حتى اليوم .. وأن الاختلاط القويم المهذب سبيل قويم لفضائل الجنس ، وفضائل النفس (١)

وهنا يتقدم الينا سؤال آخر يقول :

ـ اذا أخذنا بوجهة نظرك التى سلفت ، فماذا يكون موقفنا من الوحى الذى حدد الوسائل واختار البواعث ؟؟ ..
وبعبارة أخرى : ان الدين هو الذى اختار الانفصال بين الجنسين كوسيلة للعفة والبعد عن مواطن الزلل والرذيلة .. فاذا آثرنا اليوم وسيلة مغايرة ومضادة لتلك التى اختارها الدين ونزل بها الوحى . ألا نكون مهرطقين وضلالا ؟؟ ..
ونجيب ، بأن الأخلاق التقليدية تستمد غذاءها من مصادر ثلاثة ..

---

(١) يراجع ماكتبناه بافاضة واسهاب عن المجتمع الانفصالى والمجتمع الاختلاطى وعن الاختلاط والتربية والجنسية فى كتابنا « هذا .. أو الطوفان » ..

ـ أولها ـ الدين الصحيح . أى التعاليم الصادقة التى نادى بها الرسول ، ولم تنلها يد التحريف والتزييف ..

ـ ثانيها ـ التعاليم المدخولة المدسوسة على الدين وليست منه .. وكلنا نعرف أن هناك عشرات الآلاف من الاحاديث المكذوبة الموضوعة . نسبت الى رسول الله عليه السلام زورا وبهتانا ..

ـ ثالثها ـ التقاليد التى اختلطت بالحركة الدينية خلال تطورها وفتوحاتها ، ودخول الأمم والجماعات فيها ، سواء فى المسيحية أو فى الاسلام ..

فأما مصدرها الأول ، فهو وحده الجدير باحترامنا . وموقفنا منه ينبغى أن ينطوى على مايستحقه من اصغاء وتوقير .

كيف ؟ .. وما السبيل ؟ ..

قلنا من قبل ، ان مايريده الدين بأصرار وحسم ، هو مزاملة الخير ، ومقاطعة الشر .. وقلنا ان فى الدين جانبا لايتغير . وكل تبديل فيه يعتبر تسريحا للدين وانهاء له .. ذلك هو جانب العقيدة وما يلتحم بها من فرائض العبادات . وفى الدين جانب آخر يخضع للتعديل والتطوير ، هو جانب الفقه الذى ينظم للناس معيشتهم ، وسلوكهم ..

ولقد حدث كما ذكرنا من قبل ، أن الله ذاته غير فى القسم الثانى وبدل ، وهو العليم الخبير الذى يعلم ماكان وما سيكون .. والذى ليس بحاجة الى أن يضع علمه موضع التجربة والاختبار ..

أليس ذلك أذان منه ـ سبحانه ـ الى الناس كى يحسنوا تكييف الشريعة وفق ظروفهم ، ومصالحهم ، واستعدادهم ؟ .

أجل الأمر كذلك حقا ٠ ولقد رأينا من كبار علماء الاسلام وأكثرهم ورعا وتقوى من يقول : اذا تعارض النص مى قرآن وسنة ، مع المصلحة ، قدمت المصلحة على النص ٠٠ لأن النصوص انما جاءت لرعاية المصالح لا لتعطيلها » !! ٠٠

اذن ، فموقفنا من الأخلاق التقليدية التى ترتكز على نص دينى صحيح هو تفسير النص وتكييف وجهته بحيث يتواءم مع ضروراتنا التى يكشف العلم والتطور عن حتميتها ٠٠

أما الأخرى التى تستمد وجودها من المصدرين الآخرين ـ الخرافة ، والتقاليد ٠٠ فمن البداهة أن ندرك مدى ما نسديه للدين ، وللفضيلة من صنيع حين نهملها ٠

مرة أخرى أقول لكم : ان الدين يهتم بالموضوع لا بالشكل وبالمبدأ لا بالتفاصيل ، خاصة حين يكون الأمر متصلا بشئون المجتمع والحياة ٠٠

هذا هو المسيح يسأله رجل وهو يلقى موعظته :
ـ ياسيد ، قل لأخى يقاسمنى الميراث ٠٠ فيجيبه يسوع :

ـ يا أنسان ، من أقامنى عليكما قاضيا ، وقاسما ؟؟ ٠٠
وهذا هو رسول الله محمد ، يقول لأمته :

ـ « اذا حدثتكم عن الله ٠ فأنى لا أكذب على ربى ٠ واذا حدثتكم بشىء من شئون الدنيا، فأنتم أعلم بشئون دنياكم » ٠

والآن ، وقد نزعنا عن « الاخلاق التقليدية » قداستها نريد أن نعرف من خصائصها ما يجعلها جديرة بأن تترك مكانها ـ مشكورة ـ لأخلاق أخرى جديدة ، أخلاق الدين ، والمدنية :

خصائص الأخلاق التقليدية ٠٠

(ا) فهى أولا من الأمور المطلقة ٠٠
والأمور المطلقة ، ليست مالا يناقش فحسب ٠٠ بل هى

أيضا التى تبرم فى غيبة أصحاب المصلحة الأولى فى وضعها ٠

فالدولة الفاشـية ، أمر مطلق : بمعنى أن أوامرها فوق النقاش وابداء الرأى ٠٠ وبمعنى أن الذين يصطنعون هـذه الأوامر ويبرمونها ، ليسوا أصحاب الحق فى ابرامها ، وهم أفراد الشعب وممثلوه فى برلمان حر مريد ٠٠

والأخلاق التقليدية ، كالفاشية ، أمر مطلق لايناقش ٠ وأيضا لم يستشر فيه صاحب الحق الأول والمصلحة الأولى ، وهو هنا الطبيعة الانسانية ٠

فللطبيعة الانسانية حقوقها التى لاينبغى أن تغفل أبدا عندما يراد انتهاج خطة لسلوك أصحابها ٠٠

غير أن الأخلاق التقليدية لم تعبأ بالانسان ، ولا بطبيعته ٠

وأكاد أسمع همهمة قوم يقولون : أليس الله خالق الانسان ومصور طبيعته ، وهو أعلم بها وباحتياجاتها وبمصالحها ؟ ٠٠

وأقول لهم : نعم ، ولكن لاتنسوا ماقلناه منذ قريب ، من أن الأخلاق التقليدية بالمفهوم الذى ذكرنا ، ليست من عند الله ٠٠ ولكنها ظاهرة اجتماعية تكونت خلال الأزمان من عناصر شتى ، وحين نناقشها ، فنحن لا نناقش الله سبحانه وتعالى

ونعود ، فنقول : انها أمر مطلق ، تعتمد على الالزام الناجز ٠ وأخلاق هذا شأنها لاتكون عونا على الفضيلة والخير ٠٠ لماذا ؟ لأن الالزام والاكراه ، ينالان من الارادة الانسانية حتى يوهناها ٠٠ ونحن نعلم ، أو ينبغى أن نعلم أن نصيبنا من الفضيلة ، مساو لنصيبنا من الشعور بقوة ارادتنا ، وكما يقول العلامة « جويو » ـ « اننا حين نقوم بواجب خلقى ، لانفعل أكثر من الكشف عن حدود ارادتنا ، وقوتنا » ٠٠

اذن ، فكل تعويق للارادة ، اساءة للفضيلة ذاتها ، والالزام القاهر تعويق ، أى تعويق !! ٠٠

ولقد يسألنا سائل : ألم تدع للواجب كباعث وقيمة ؟ .. وأليس الواجب الزاما ؟ ..

ونجيب بأن الواجب الذى دعونا اليه ، هو الواجب الاخلاقى . فالزامه سيكون أخلاقيا مثله . لأنه منطلق من الارادة ،

لا متسلط عليها .. ثم ان الواجب الأخلاقى ليس أمرا مطلقا مقدسا . بل هو فضيلة متطورة منبعثة من مدركات العصر ..

ومثل هذا ، يقال عن الالزام الطبيعى الذى ينطلق من طبيعتنا ، ويدفعنا للواجب .. انه هو الآخر مختلف عن الالزام الهابط

علينا من الاخلاق التقليدية . لأنه ، وهو جزء من طبيعتنا ، لن يكون مسيطرا عليها . بل معينا لها ..

ولكى يستبين الفارق أضرب لكم مثلا ..

عندما تغزونا دولة أجنبية ، فأننا نعتبر كل أوامرها والزاماتها تسلطا يستحق التمرد ..

فاذا قالت هذه الدولة ، لماذا لاتطيعون أوامرى كما تطيعون أوامر دولتكم ؟ .. يكون جوابنا : أن أوامر دولتنا ، أوامرنا نحن . لأنها منا ، والينا .. أما أنت ، فقوة دخيلة متسلطة بغير حق ..

كذلك الالزام المنبعث من طبيعتنا ، هو جزء منها ، جزء من دولة هى نحن ، ونحن هى .. فلا يكون وطأة ثقيلة على الارادة .

بل منبها لها بخلاف ذلك القادم من خارج ، فانه يعطلها ، ويذلها ..

فاذا سئلنا : أليست أخلاق المدنية الزاما بسلوك معين ؟ .. أحلنا السائل على نفس الاجابة السالفة ، وزدناه بيانا قائلين :

أن أخلاق المدنية ، ليست أمرا مطلقا . وليست لها قداسة تاريخية تصد الناس عن مناقشتها ، وتطويرها .. بل هى

وليدة العصر ، وثمرة التجربة والعقل ..

وليس يشفع للأخلاق التقليدية ما قد نحسبه احتراماللعقل تبذله وتبديه .. فالدعوة الى تحكيم العقل ، والى التفكير الحر، غير مجدية شيئا اذا كانت تنطوى على حرماننا من وسائل تحقيقها ..

وهى بوصفها « أخلاقا تقليدية » تنبعث من التقاليد التى أوغلت فى البلى والقدم ، تربطنا دائما بالماضى وتدعونا للاذعان له فى اخبات وتقديس . حتى لو كان ذلك الماضى مما لم ينزل الله به سلطانا ..

والآن نسأل سؤالا :

ـ هل نرى أنفسنا قوما مارقين ، اذا لم نأكل فى الجفان التى كان آباؤنا الأقدمون يأكلون فيها ؟ ..

ان كثيرا من تقاليدهم التى تحولت الى أخلاق تشبه هذه الجفان التى ولى زمانها وذهب ..

وهنا يبرز سؤال آخر :

ـ هل يعنى حديثنا هذا ، هدم العادات والتقاليد هدما تاما ؟ ..

ونجيب : كلا .. فليس من المستطاع ، ولا من الصالح أن تتخلى أمة عن تقاليدها مرة واحدة . . بل ان التقاليد ضرورة من ضرورات التقدم والمدنية . اذ هى تقوم بوظيفة « مانعة الاصطدام » ..

أجل هى « الفرامل » التى تأخذ قافلة المدنية عن الاندفاع والتهور ..

بيد أنها تنقلب الى « مانعة تقدم » حين تجاوز حدها .. وهى لاتجاوز حدها بذاتها . بل بأسرافنا نحن فى الولاء لها وتقديسها ..

منذ عام ، وتحت عنوان « ماتت الخرافة . تحيا الحقيقة » كتبت أتساءل : كيف تاهت جماهيرنا فى زحمة الحياة ، وكيف زاغ نهاها ؟ ..

كيف وقف نموها دهرا طويلا ، وتعطلت ملكاتها حتى كادت تبيد ؟ ..

كيف كانت تتقبل مساوىء حياتها ، وحكامها ، كأنهـــا الصالحات الباقيات ؟ ..

كيف ألقت عصاها ، وأناخت كبرياءها حتى سامها كل مفلس ، وحتى تسنمت ظهورها الغربان ؟ ..

ما الذى أسلس قيادها ، وأحنى ظهرها للهوان والخذلان ؟

ماذا جعلها تجفل ، والعالم يتواثب .. وتحاذر ، والدنيا تخاطر ؟؟ ..

ولماذا جعلت شعارها : حسبى .. وجميع ماحولها ، ومن حولها يطلبون المزيد ؟ ..

وقلت ان هناك كلمة واحدة يتلخص فيهـــا الجواب هى : التزييف ..

تزييف الحقائق ، تزييف القيم ، تزييف الحياة ! ..

وهذا حق ، فوراء كثير من الهزائم الماحقة التى شيعت الى الفناء دولا ، وحضارات . كان التزييف يقود المعركة فى عنوان وخبث ولم يبق من تلكم الحضارات سوى التى قامت على احترام الحياة ، واستشراف حقائقها المضيئة ..

وأيضا لم يبق من الدول والجمــاعات ماهــو حى ونابض فى التاريخ سوى تلك التى حصرت اهتمامها فى نشدان الحقيقة ، وربطت وعيها وسلوكها بكل ماحسبته فاضلا وحقا ..

أما بقية الحضارات ، والفلسفات ، والجماعات فقد ذهبت فى

سياق النسيان والانقراض ٠ مخلفة العبرة للذين تسول لهم أهواؤهم أن يسكنوا مثل ديارها ، ويركبوا مثل عثارها ٠

ترى هل تسطع الحقيقة فى سماء ملبدة بغيوم التقاليد ، والبلى ، والتعفن ؟ ٠٠

أبدا ٠٠ ومن ثم ، يسطع ضوء آخر صناعى خداع ٠٠ هو ضوء التزييف الذى يزجيه حرصنا على التقاليد ، وولاؤنا المطلق لها ولسدنتها النفعيين ٠٠

وانا لن نستطيع الخلاص من الأخلاق التقليدية الا بالخلاص من وطأة التقاليد وضراوتها ٠ هـذه الضراوة التى تسلب ضحاياها ٠ نور العقل وجسارة العزم ، وذكاء الفؤاد ٠٠

ان التقاليد وثن يقوم على حراسة الخرافة والباطل ٠٠ وتعوق تحولنا المحتوم الى سلوك المدنية وأخلاقها ٠ وهى تستعين على استبقاء سلطانها ونفوذها بمضى المدة أولا ٠٠ وبأيهامنا أنهـا مشيئة الله وقدره المكتوب ثانيا ٠ ٠

وفى هذه المسألة كما فى غيرها يظهر لنا فارق جلى بين الدين والأخلاق التقليدية ٠٠ فهى تتخذ من التقاليد القديمة قاعـدة تستقر فوقها ، ومن ثم فهى حريصة على بقائها ملقية فى روع الناس دائما أنها مقدسة وأزلية ٠ بينما الدين يدمدم على التقاليد بسخريته القاتلة ٠٠ فكم تحدث القرآن عن الذين « قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة ٠ وانا على آثارهم مقتدن » ٠٠ « انا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » ٠٠

(٢) ـ وتحاول « الأخلاق التقليدية » النابعة من تقاليدنا القديمة أن تجرع ضحاياها نوعا من الاستسلام يكاد يلاشى من أنفسهم كل شعور بالمسئولية الأخلاقية ٠٠ وذلك عن طريق دفعهم الى ايمان غامض بالقدر الأخلاقى ٠٠

ولست أريد فى هذا البحث أن أناقش موضوع القدر . فليس هنا مجاله .

وحسبنا أن نجيب اجابة عابرة عن هذا السؤال :

هل هناك قدر يسوقنا دون أن يكون لنا ارادة واختيار ؟ ..

ان القدر مشكلة لعبت ، ولا تزال تلعب فى حياة الناس دورا كبيرا .. وكل امرىء منا تصادفه تلك الحالة التى نحس فيها كأن قوة غريبة عنا ، تدخلت بيننا وبين محاولات لنا تهيأت أسباب نجاحها ، فتخفق . أو أسباب اخفاقها فتنجح .. وعلى أية حال ، فلا يزال هناك قوانين كثيرة لم تكتشف بعد . فاذا كان للقدر ، قانون يزجيه ، فسيظهر يوما ما .. وحتى يظهر فأن واجبنا أن نمضى فى الحياة مستعينين بالله ربنا ، وواثقين بأنفسنا ..

لقد سئل رسول الله عليه السلام من أصحابه الذين قالوا له : يارسول الله . أرأيت أشياء نتداوى بها . هل ترد من قدر الله شيئا ؟ ..

فأجابهم : هى من قدر الله ..

وهذا الحديث لفتة بليغة تشير الى أن الأسباب المفضية الى عللها ، والمقدمات السائرة نحو نتائجها هى نفسها ـ من قدر الله وليس القدر عبثا يلغو ، ولا لغوا يعبث ..

على أن الذى يعنينا هنا ، هو القدر الأخلاقى ..

فنحن نعتقد أن ثمت الزاما قاهرا الهيا يحكم علينا بالردى

وسوء المصير . ويدفعنا الى الرذيلة مكرهين . وهو اعتقاد باطل لايتواءم مع أبسط مبادىء التفكير ..

صحيح أن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ..

أليست هذه هى الآية التى نستمد منها عقيدتنا فى القدر الأخلاقى ؟ ..

حسن ٠٠ ولماذا نهمل آية أخرى تقول :
« فلما زاغوا ٠٠ أزاغ الله قلوبهم » ؟؟

أى أن الناس هم الذين يخلقون الزيغ ويبدأون به مختارين ٠٠
فيسلمهم الله لزيغهم الذى صنعوه ٠٠
ان الدين يكاد ينفى القدر الأخلاقى نفيا قاطعا ٠٠
هذا هو الكتاب المقدس يقول :

ـ « وضعت أمامك طريقين ٠ طريق الحياة وطريق الموت ٠٠
اختر الحياة لكى تحيا » ! ٠٠

« ها أنذا ، قد وضعت أمامكم البركة واللعنة ٠٠ فاختاروا
البركة لتعيشوا مباركين ٠ وان اخترتم اللعنة تكونوا ملعونين»!
والقرآن الكريم يقول :

« ولكن اختلفوا ٠ فمنهم من آمن ٠ ومنهم من كفر » ٠ «وما ربك
بظلام للعبيد » ٠٠

« هذا صراط ربك مستقيما ٠ قد فصلنا الآيات لقوم
يذكرون » ٠٠

« ان الله لايظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون» ٠
« ولا يرضى لعباده الكفر » ٠٠

« ويزيد الله الذين اهتدوا ٠ هدى » ٠٠
أما الآيات الأخرى مثل :
ـ « ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ، ولو جاءتهم
كل آية حتى يروا العذاب الأليم » ٠

« ومن يضلل الله فما له من هاد » ٠٠
« فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة » ٠٠

لعل هذه الآيات ذات مفهوم مجازى لايعنيه الله وإنما يرمز
به الى استغنائه عن أولئك الذين يعصون تعاليمه ويخرجون

عليها والا فكيف نتصور انسانا عاقلا وعادلا فضلا عن اله عظيم كامل ، يربط يديك ورجليك بالسلاسل والحبال ثم يلقيك فى اليم الصاخب ويقول لك ، اسبح ياعبدى ! ..

ان الأخلاق التقليدية ـ لا الدين ـ هي التي تحاول اقناعنا بأن مصيرنا الأخلاقى مختزن فينا بطريقة الهية صارمة ..

اذن ، فيم دعوة الرسل والمصلحين ؟ .. وكيف أمضى للخير . والله ـ بهذا الزعم ـ قد كتب على الرذيلة والشر ؟ ..

ان الله قد كلفنا بفعل الفضيلة والخير ، والتكليف يقتضى قدرة على العمل ..

هذه أبجديات لا مراء فيها .. فهل أكون قادرا على العمل . اذا كان الله ذاته سيرغمنى على سلوك معين .. ؟ هل أكون

قادرا على الفضيلة اذا كان الله بكل قوته ومشيئته ونفوذه سيرغمنى على الرذيلة . وهل أكون مسئولا أدنى مسئولية

عن الرذيلة اذا كان كل دورى فيها أننى أنفذ مشيئة الله وقدرته ؟ ..

اننا نعمل بقدرة من الله فقط ، وليس بأكراه منه ، أى أن الله وهبنا الامكانيات التى نستطيع أن ننشىء بها لأنفسنا وحدها ، وبأنفسنا وحدها . فضائل الحق ، والخير ، والجمال .

لقد وهبنا الله عقلا نميز به ، ونعرف الطيب والخبيث .. قدرة حرة نأتى بها أعمالنا ، فى الخير وفى الشر على حد سواء .

والذين روجوا لفكرة الأخلاق التقليدية عن القدر ، هم أولئك الطغاة الذين مروا بأرضنا وتوسلوا بها على مدى القرون لتخديرنا وبث روح الاستسلام فى عزمنا !! ..

أما الله فبرىء من هذا .. انه يمكن جميع الكائنات من السير فى نطاق قوانينها الطبيعية .. وهو يساعد ارادتنا بتركها

حرة ، وليس بتكبيلها ·

ولعل من الخير أن نستشهد هنا بكلمة لرجل فاضل جمع الى غزارة علمه ، رحابة ايمانه بالله القدير · ذلك هو « هادفيلد » يقول :

ـ « نحن لا نزال نتحدث عن الغواية على اعتبار أنها آتية من الخارج ، فى حين أنه لايمكن أن يكون لأية غواية أقل أثر مالم تنجذب اليها رغبة من رغباتنا الداخلية التى نقمعها فى العادة ·

« اننا لانستغوى عن طريق مافى العـالم الخارجى من متع وملذات ومغريات الأبالسة والشياطين ، وانما نستغوى عن طريق أنفسنا ··

« وقديما لام آدم حواء ، ولامت حواء الشيطان ، ولكن الله لم ينخدع بهذا · بل أخرجهما من الجنة ·· (؟)

« انهما لم يحيطا علما بالمبـدأ النفسى الداخلى ، فليست المسألة فى علاج المصاب بانحراف خلقى مسألة ازالة غوايته ، بل ازالة رغبته » ··

(٣) ـ وثالثة خصائص الأخلاق التقليدية أنها بطبيعة تكوينها وفلسفتها لاتستطيع الا أن تكون متعصبة · لأنهـا مرتبطة بالماضى ، وكل ارتباط بالماضى واهمال ماعداه من مصدر وسبب · أمر يفضى قطعا الى التعصب · وأخلاق متعصـبة ، لايمكن أن تكون فاضلة ، ولا طريقا للفضيلة ··

فالتعصب كذب ، وظلم ـ كذب ، لأنك بتعصبك تزعم أن وجهة نظرك ، هى وحدها الحق الذى يجب أن يذعن الناس له ·

وظلم ، لأنك بتعصبك تتحكم فى تفكير الآخرين ، وفى مصايرهم ، وتعطى نفسك حقا لم يعطه الله سبحانه لنفسه ·

حق حبس المستقبل ، ومنع الغد من الانبثاق ، والحجر على الحقيقة الوافدة المقبلة ! ..

ان التعصب يسلب ضحاياه أجل الفضائل الانسانية ، وأزكاها ..

فهو يسلبهم فضيلة الصدق .. لأنهم يمعنون فى الكذب والزور . اذ يزعمون بتعصبهم ، أنهم وحدهم الذين يعرفون .

ويسلبهم فضيلة الثقة بالنفس ، لأن الذى لايثق بغيره ، عاجز عن أن يثق بنفسه .. ولأن التعصب فى الواقع دثار يغطى به المتعصب عريه العقلى ، والأخلاقى . ويستر به ضعفه المستقر فى أعماقه ..

وهو يسلب ضحاياه أيضا فضيلة الأمانة ، لأن الأمانة هى قدرتك على صيانة حق الغير .. وحين تتعصب لرأيك وحده ، ومصلحتك وحدها ، فانك بتعصبك هذا ، تعفى نفسك نهائيا من تبعات الرعاية المطلوبة منك لحقوق الآخرين .. حقوقهم فى اختيار الفكرة ، والرأى ، والمنهج ..

وهو يسلبهم كذلك فضيلتى التسامح والحب . لأن الحب والتسامح ، يقتضيان فهما ، والتعصب جهل .. يقتضيان مشاركة ، والتعصب انطواء .. يقتضيان سلاما ، والتعصب حقد واضطراب !! ..

وهو يسلبهم فضيلة العدل .. لأن العدل هو أن تضع نفسك مكان الغير ، ثم تكون حكمك . والمتعصب لايغادر نفسه ، ولا يبصر سواها .. ومن ثم ، فهو عاجز عن الحس الصادق ، والنظر الثاقب ، والحكم العادل ..

وهو يسلبهم فضيلة الرحمة .. لأنه ـ أى التعصب ـ يمثل فى حقيقته أقصى مظاهر القسوة على النفس ! ..

أجل ، ان المتعصب قاس على نفسه ، ممعن فى القسوة والتشفى ٠٠ وحين نتعمق المتعصبين ، نجد كلا منهم يتعصب للرأى ، أو للوضع الذى يستر نقصا فيه ، ويوازى سوأة له ٠ وهو فى « لاشعوره » مبغض لعاهات نفسه ، ناقم عليها نظير اقترافها النقص ، هنا يختار عقلاه الكامن والواعى نقطة التقاء يعبران خلالها عن تناقضهما ٠٠ فيكون التعصب معبرا عن احتقار « اللاشعور » لنفس المتعصب وذاته ٠ ويكون فى نفس الوقت تعبيرا عن رغبة الشعور فى ستر العاهة النفسية ، وموارة النقص ٠٠

فكيف يستطيع قاس على نفسه مذل لها ، أن يهب الآخرين الرحمة والرفق ؟ ٠٠

والتعصب كذلك ، يسلب ضحاياه فضيلة الشجاعة ٠ لأنه يمثل جزع العقل الباطن من الرأى المغاير وجبنه حياله،وعجزه عن ملاقاته ومواجهته ٠٠

ولعلنا بقليل من الفطنة نستطيع أن نرى أكثر المناضلين جبنا وهلعا ، هم أولئك المتعصبين ٠٠ الذين لاينبعثون عن ايمان فيه ضوء المعرفة ٠٠ بل عن تعصب فيه ظلام الجهالة ٠

ولقد صدق « فون بابن » حين قال فى مذكراته التى نشرها بعد الحرب الأخيرة ان الالمان لم تهزمهم القوات المسلحة التى لقيتهم فى ميادين الحرب ٠٠ بقدر ما هزمتهم قوى الظلام التى هاجمتهم من داخل أنفسهم ، والتى هى ٠٠ التعصب الذى راضتهم عليه النازية فى غير شفقة وفى غير فهم !! ٠٠

فهل يستطيع أحد أن يخبرنا ، كيف تستطيع الأخلاق التقليدية التى تتعصب للقديم وللخرافة ، أن تهدينا الى فضيلة وخلق ؟ ٠٠

عندما كان « برنارد شو » يكتب ويقول : « ان أبانا الذى فى السموات يعطينا خبزنا ، ولكنه لايجرى على طريقة الخبازين فى أوقات التوزيع » ؟! ..

أو يقول « خير للانسان أن يخطىء مع روح القدس ، من أن يخطىء مع المال » ..

عدما كان يقول هذا ، لم يكن أحد يتميز من الغيظ سوى دعاة الأخلاق التقليدية وهو لم يكن يكتب مثل ذلك الا ليجهز نهائيا على ضراوة التعصب الدينى .. وليضع الفهم المرح للأشياء ، مكان التزمت الكئيب ..

من أجل هذا ، كان أثره فى أخلاق أمته . أمرا غير منكور . ونحن لانريد أن نستفز الأخلاق التقليدية فى بلادنا بمثل كلمات « شو » وأسلوبه ، وحسبنا فقط أن نناقشها بمنطق الدين نفسه ، الدين الذى تظلمه ، وتشوهه وتفسد مابينه وبين الناس ..

الدين سياج الفضية ..

ان حملتنا على السلوك الذى يرتوى بالتقاليد الآسنة التى لم تعد ، أو لم يعد بعضها يصلح لهذا الزمان ، حملة يباركها الدين ذاته . لأنه ـ كما أسلفنا ـ جاء يشن هجماته المتوالية على التقاليد التى كانت قائمة ، والتى وقفت فى طريقه تتحداه وتعتاق سيره ..

والدين فى مستواه الرفيع . وفى حقيقته الخالصة من الشوائب ، وروحه الهادفة الى انقاذ الانسان من مأساته . يمثل سياجا عظيما للفضيلة ، والخلق .. كما يمثل هداية لا غنى عنها ..

يظهر هذا واضحا فى التعاليم التى بثها ، والفضائل التى هتف بها ، سواء فى المسيحية ، أو فى الاسلام ٠٠ كما يظهر جليا فى الطريقة التى اتبعها لخلق ارادة شامخة ، والارادة كما نعلم هى مناط التوازن الخلقى فى الانسان ٠٠

أما تعاليمه ووصاياه ٠ فما أكثرها وما أروعها ٠٠
هاهى ذى المسيحية توصى أبناءها ٠٠

« لاتغر من الأشرار ، ولا عمال الاثم ٠٠ فانهم مثل الحشيش ، سريعا يقطعون ٠٠ ومثل العشب الأخضر يذبلون » ٠٠

« اسكن الأرض ، وارع الأمانة ، ومنفعة الأرض للجميع »
« اطرحوا عنكم الكذب ، وتكلموا بالصدق » ٠٠

« أغضبوا ولا تخطئوا ، لا تغرب الشمس على غيظكم ٠٠ وكونوا لطفاء بعضكم نحو بعض ، شفوقين متسامحين » ٠٠
« كونوا رجالا ، تقووا فتصر كل أموركم فى محبة » ٠٠

« المحبة تتأنى وترفق ، المحبة لاتتفاخر ، ولاتنتفخ، ولاتقبح، ولا تظن السوء ، ولا تفرح بالاثم ٠ بل تفرح بالحق » ٠

والاسلام الحنيف يهتف بالحق وبالخير وبالسمو الخلقى فى هدايته ووصاياه ٠٠

« يا أيا الذين آمنوا اذا تناجيتم ، فلا تتناجوا بالاثم والعدوان » ٠٠

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولاتعاونوا على الاثم والعدوان، وقولوا للناس حسنا ٠٠ »

« ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » ٠٠

« ٠٠ وبالوالدين احسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين

والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ، ان الله لايحب من كان مختالا فخورا » ..

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنماقتل الناس جميعا . ومن أحياها ، فكأنما أحيا الناس جميعا » ..

« .. ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا . ان الله لايحب من كان مختالا فخورا »

« واذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى » ..

« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا النـــاس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » ..

« ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفســدون فى الأرض ولا يصلحون » ..

« اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم ،ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضا » ..

« لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها الى الحكام ، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » ..

« ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصــنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » ..

« وكلوا .. واشربوا .. ولا تسرفوا ، انه لايحب المسرفين»

بهذه الأنفاس الحارة ، والالحاحات الدائبة مضى الدين يبشر بالفضيلة ، ويدعو اليها

واذ علم الله أن الانسان بغير ارادة مسيطرة لايستطيع أن يكون شيئا مذكورا ، فقد شرع للناس من التكاليف والعبادات مايكون مجالا لتدريب عزمهم ، وتكوين ارادتهم . فضــلا عن وصل قلوبهم به ، ولفت أرواحهم نحوه ، فالصــلاة والصوم ـ مثلا ـ يتعرضان لكثير من نقدنا وتبرمنا ..

فهل نحن فى هذا على شىء من حق ؟ ..

قرأت كتابا ، لكاتبة من الغرب ، عنوانه « استيقظ واستمتع بالحياة » ..

وعلى صفحاته تحدثت الـكاتبة عن تجربتها .. ثم مضت ترسم منهاجا صالحا للاستمتاع المهذب القويم بالحياة ..

وهى فى كتابها هذا ، ترى أن السيطرة على النفس هى النبع العظيم لسعادة باقية وحياة بهيجة ..

من أجل ذلك ، عنيت باكتشاف بعض الوسائل التى تهب الانسان ارادة قوية ، وتمكنه من التفوق على نفسه والسيطرة عليها .. فدعت الى ممارسة بعض الاعمال التى رفعتها الى مقام الشعائر .. فهى مثلا تقول : املأ بضع جذاذات من الورق بواجبات مختلفة مثل :

ـ الذهاب الى مدينة « بنها » ماشيا ..

ـ الاستيقاظ قبل الفجر بساعتين ، والعكوف على قراءة كتاب ينتظم أربعمائة صفحة حتى ينتهى ..

ـ التبرع بنصف مرتب هذا الشهر ..

ثم تأمرك أن تضع هذه البطاقات المكتوبة فى مظروف ٠ وتمد يدك لتخرج احداها ، ثم تنفذ الذى فيها مهما يكلفك من صعوبة ومشقة ..

وتكرر ذلك لفترة من الزمن ..

كما تدعو القارىء لأن يخصص فى الأسبوع يوما يقضيه فى صمت تام ٠ لايحرك شفتيه الا باجابة ضرورية ومقتضبة .. ويخصص يوما آخر كل أسبوعين مثلا ، لاينطق فيه كلمة « أنا » ٠ وهكذا تمضى الكاتبة على هذا النمط الطريف ...

وهذا الكتاب من الكتب الناجحة التى أقبل عليها الناس وبصفة خاصة فى أمريكا اقبالا هائلا ٠ ولم يصر موضع التندر والفكاهة من المثقفين وغيرهم ..

أفئن جاءنا الدين بتكاليف أكثر جدا ووقارا ٠ وأوفر فائدة ونفعا .. نقول فى استخفاف : أى جدوى لهذا ؟ !! ..

أم أن مجرد وجود المشقة كفيل بصرفنا عنها ؟ ..

وهل ثمة تكليف بلا مشقة ؟ ..

أليست أعمال حياتنا وواجباتها تتطلب منا كدا ونصبا ؟ ..

الحق أن رفض واجب دينى لمجرد أنه يتطلب منا جهدا لايطيب لأنفسنا بذله ، عمل غير سليم ٠

ان الدين بما يفرضه من واجبات عبادية ٠ يمنح أنفسنا

فرصة التأمل والاستشراف • ويصل ارادتنا الوهنانة بأسباب القوة والتفوق •
كما أنه حين يضعنا تحت أضواء عين الله التى لاتنام،ورقابته التى لاتغفل ، يساعدنا كثيراعلى توقى الشرور ، شريطة ألانسىء نحن استثمار توجيهه هذا ، فنسرف فى تخويف الناس بالله اسرافا يفضى الى النقيض ••
وما دام الدين كما تنطق آيات القرآن الكريم يصرف قلوبنا عن التشبث بالماضى الذى فقد اعتباره وموضوعه • فهو اذن لايضيق بالمدنية الرشيدة التى تستطيع أن تلعب دورا نافعا فى مشاكلنا السلوكية ••

المدنية ، رائد أمين ••

المدنية هى الحياة فى أحدث أنماطها وأكثرها قدرة على كفالة الانسان ••
وخوفنا منها لايكشف عن سوءة فيها • بل عن سوءة فينا وضعف وسوء تقدير ••
وهى بطبيعتها ، وامكانياتهاتستطيعأن تقودعاداتناوسلوكنا الى أعلى ••
ان المسألة الأخلاقية فى بلادنا محفوفة بالمصاعب • والمدنية بتفكيرها الجرىء ، وتجربتها الرشيدة ، واستشرافها الواعى ، تستطيع أن تعاوننا وتمهد لنا الطريق • •

ذلك أنها فى كل نقلة من نقلها ، تمثل الحقيقة الجديدة التى تبرزالى النور ، داعية الناس ، أن يعيدوا النظر فى قواعد حياتهم وتقاليدهم ، وعرفهم ، ليرتفعواالىمستوىالدورةالتالية، من دورات تطورهم « الحلزونى » الصاعد ••
ولقد يبدو لبعضنا أن يسأل : أين أخلاق المدنية التىتدعونا اليها ؟ ••
ان المدنية اليوم تصطلى بنارها ، والفضيلة فيها قد تحولت

الى عنوان ضخم ، أو اهاب فضفاض لرذائل شتى ، وموبقات كثيرة ..

لقد رفعت المدنية للناس وثنا خبيثا ، اسمه النجاح .. وانا لنرى طقوس العبادة والتقرب لهذا الاله المارق .. فهى الخداع ، والنفاق ، والدجل ، والاحتيال ، والكذب ، والغش ، والصلف ، والطغيان ..

والى هنا .. أتفق اتفاقا تاما مع الذين سيزجون هـذا الاعتراض ثم أخالفهم فى أن تكون هذه هى المدنية ..

ان المدنية توصينا بالنجاح حقا ولكنها لم تنصبه وثنا ولا الها .. بل نحن الذين جعلناه كذلك ..

اننا نحمل فى أعماقنا رواسب تدفعنا كارهين الى البحث عن وثن أو قيصر .. والدهر الطويل الذى قضيناه نحن بنى الانسان فى حمى الأوثان الكثيرة التى شهدها تاريخنا ، لاتزال بصماته على وعينا ، وهذه البصمات الدامغة هى المسئولة عن الأوثان المنصوبة فى عصرنا هذا سواء كانت النجاح ، أو شيئا آخر معـه ..

وعلى أية حال ، فمن الخير أن نبدأ بالاتفاق على مفهوم المدنية .

فما هى .. وما مفهومها ؟ ..

انها ، حركة التاريخ .

ـ هى خط التقدم المتجه فى وعى نحو مصير أفضـل دائما

ـ للانسان ، وللمادة ، وللحياة ..

وحركة التاريخ تقتضى فى كل مرحلة من مراحلها ، انشاء أوضاع تتفق وحاجات العصر . ومن ثم ، فعملها المستمر تطوير المائل الى المقبل وتسريح الماضي الذى فقد حقه فى الوجود ، كي يأخذ حقيقى جديد مكانه ويبدأ دورة صاعدة نحو الغرض البعيد للتقدم ، وللتاريخ ..

فالمدنية اذن تطور واع الى أفضل .. وقد تنطوى على نقيض غايتها .. ولكنه انطواء وقتى .. ولا تلبث حتى تطرد هـذا النقيض خارج ذاتها .. واحساسنا بهذه النقائص التى تشوه

بهاء مدنيتنا ، برهان على صدقها وقوتها ٠٠ ودليل على عميق أثرها فينا ٠٠

فنحن نبصر أخطاءها مجسمة ضخمة ٠ لأنها تعلمنا ، أن فى الامكان أبدع مما كان ٠٠ ومن ثم ، فأن ماتزجيه فينا من تطلع زاخر الى هذا الأبدع ، والأكمل ٠٠ يجعلنا نتخذ من ابراز العيوب والأخطاء حافزا ملهبا يسوقنا الى هذا الذى هو أبدع مما كان ، وأبدع مما هو كائن ٠٠

اننا نبصر فى جزع ، تلك الدوامات الهائلة من حوادث عصرنا ، فنخال أن المدنية أخفقت ، وأنها زادت الهوة الفاغرة اتساعا ٠٠ والخلاف المشبوب استعارا !! ٠٠ ولكن لا ٠٠ فأيغالنا في السير الصاعد ، وتحليقنا الجرىء فى الفضاء الحر ٠٠ والغاية التى تتبدى لنا ، فننطلق صوبها فى شوق لاهب ـ كل ذلك يحتم وجود بعض المساوىء والأخطاء ، تماما كما يفعل فرس الرهان عندمايشارف الهدف ، فتنتفض عضلاته، ويتصبب عرقه ، وتعصف حوافره بالأرض التى تكاد تميد تحت وثبه ، فيملأ الأفق رمادا ٠٠

انه رماد الخطوات التى تهم لتعانق النصر ٠٠ وليس تراب الهزيمة والانكسار ؟! ٠٠

ان المدنية ، تهيب بالانسان الى الصمود لا الى الفناء والتداعى ٠٠ وحسبها أنها تبدأ أعمالها باحترامها الكامل لطبيعتنا الانسانية ، احتراما يمكنها من استثمار كل مواهبنا وامكانياتنا، وبعثها جميعا للعمل فى سبيل التفوق والاكتمال ٠٠

انها ـ مثلا ـ لاتغرق طبيعتنا فى بصاقها ، كما تفعل الأخلاق التقليدية ، بل تعلن ولها رنين كرنين الصدق ، أنه ليس السعى الفاهم للفضيلة أن تطمس طبيعتك ٠ بل أن تضيئها ٠٠ أجل تضيئها ! ٠٠

فاذا شبهنا الانسان بمصباح ، فطبيعته هى الزيت ٠٠ واذا أنت أهرقت زيت المصباح على الأرض ذهب بددا ٠٠ وان

احتبسته داخل المصـــباح ، استطعت أن تحوله الى ضـياء ونور ..

والاحتباس لايعنى عند المدنية الكبت . بل الشوق ..

وأخلاق المدنية تبدأ بنظرة صادقة واعية للانسان ولطبيعته .. وهذه النظرة طردت بعيدا عنها كل ماتميزت به الأخلاق التقليدية من خصائص ذكرناها .. ان اعترافها بطبيعةالانسان وفر عليها القتال اليائس ضد هذه الطبيعة .. ولقد وضعت طبيعة الانسان بين ظواهر الطبيعة الكبرى وسألت نفسها :

ـ هل أستطيع أن أقف حركة الشمس ودوران الأرض ، وانبثاق النبات ، بالمواعظ ، أو بالارهاب ؟ .. أبدا .. واذن فخير ما أصنعه أن أتفاهم مع هـذه القوى وأســتثمرها قدر المستطاع .. وكذلك طبيعة الانسان تماما .. لابد من التفاهم معها ، واستثمار طاقاتها الحية العارمة .. وهكذا تقرر مبــدأ الحرية فى أخلاق المدنيـــة ، يقابله فى الأخلاق التقليـــدية الاستبداد ..

وأخلاق المدنية لم تبدأ باحترام طبيعة الانسان وحدها .. بل وباحترام الحياة كلها . وانها لتجعل من أسمى قوانين الاخلاق وأعمق قوانين الحياة شيئا واحدا .. حتى انهـــا لتكاد تحصر الانسان الاخلاقى فى الانسان الحى ، واذا نحن رجعنا البصر الى نشوء الفضيلة والرذيلة لم يسعنا الا ازجاء التهنئة لأخلاق المدنية على صدق نظرتها .

فالانسان الأول لم يكن يعرف الفضيلة . بل كان يعرف الضرورة .. كانت التضحية ، والصبر ، والمخاطرة ، ضرورات لازمة لحفظ حياته ، فمارسها ليبقى .. ولما بدأ أناس ينجحون فى ممارسة هذه الضرورات ، وأناس يخفقون .. بدأ مفهوم الضرورة يتغير . فصار الفوز بها فضـــيلة ، والاخفاق فيهـــا رذيلة ..

فمن قوانين الحياة نشأت قوانين الأخلاق . وقوانين الحياة لاتهبط من اللاحياة .. بل تنبعث انبعاثا تلقائيا من الحيـــاة نفسها ..

وعندما تستمد أخلاق المدنية نهجها من قوانين الحياة ، تضع عنا شر آصارنا ـ الاضطراب العقلى •• ذلك أنها لا تتحكم فى العقل ، ولا ترهقه •• بل تضع الزمام فى يده هو ، فيتألق ويسير العقل الحر ، مع الشعور الحر ، مع الارادة الحرة ، فى موكب ثابت الخطى نحو الفضيلة والكمال ••

وأخلاق المدنية تطالبنا برفع مستوى وجودنا وحياتنا فهى تقول : لكى تظفروا بفضائلى ، لابد أن تعيشوا داخل نطاقى •

وأنى لأرى كل يوم ظاهرة قد تكون ضئيلة لكنها تذكرنى بهذا المعنى وتزكيه فى نفسى •• وتستطيع أنت أن تراها ••

هذه « الترامات » التى تملأ شوارع القاهرة ، ولا يخلو سلم أحدها من عمال ، وشبان يتسلقونها تسلقا هروبيا •• كى لايدفعوا بضع مليمات ••

حاولت كثيرا أن أجد بين المتسلقين المتهربين من أتفه تبعات الامانة عاملا واحدا ، أو شابا واحدا ، من الأجانب المقيمين بمصر ، أو المولدين فيها ، فلم أجد أبدا ••

وانى لأرجع هذا الى شىء واحد ، هو المستوى الحضارى التقدمى الذى يعيش فى نطاقه هؤلاء الناس •• فى بيوتهم ، وفى أنفسهم ، وفى بيئتهم ••

وأنا أكتفى بهذا المثال العادى ، مفضلا أن تضع أنت بجواره مئات الشواهد والأمثلة التى تريك أن كل ارتقاء فى معيشتنا وتفكيرنا ، يزامله ارتقاء فى سلوكنا وأخلاقنا ••

ولقد ازددت اقتناعا بهذا ، عندما حاولت الوصول الى موازنة خلقية بين المشتغلين بحرف شتى تنتظم أدنى هذه الحرف وأعلاها ••

ولو افترضنا وجود امرأتين ، حرمتا نعمة الأنجاب •• احداهما بدائية متبربرة • والثانية معها من مدنية العقل والحياة نصيب •• فكيف تتصرفان ؟؟ ••

ستنطوى الأولى على ألم ممض قاتل • وقد تسول لها نفسها خطف رضيع والحاقه بنفسها ، كما يحدث فعلا ••

وأما الثانية ، فأن أخلاق المدنية تهب لنجدتها ، وتشبع فيها

غريزة الأمومة بتوجيهها الى أبناء المجتمع اللقطاء والتعساء ..
تحنو عليهم فى مؤسسة اجتماعية ، أو ثقافية ، حتى لاتحس قط بجزع ولا حرمان ..

أجل ، ان المدنية لتسارع فتتمم كل نقص يعتور غرائزنا الطبيعية فى حنكة وبراعة ..

وبعد :

فلن تصاب أمة برذيلة تنهش روحها ، وتجرف مصيرها مثل رذيلة الانفصال عن التاريخ ..

فاحذروا أن تفعلوها ..

واعلموا أن بربرية الجسد ، والفكر ، والروح ، ضريبة التخلف .. والنكوص عن التقدم ..

ومهما تبذلوا من محاولات التفوق والنهوض ، فلن تستقيموا على الطريق كسفينة أحسن الربان قيادتها حتى تولوا وجهكم شطر المستقبل ..

الدين فى ايمانكم ، والمدنية فى شمائلكم ..

ولا تحسبوا هذا عملا هين التبعات ، فأنه ليهيب بكل منا أن يبذل من ذات نفسه أعظم مايطيق ..

وفى بلاد كبلادنا حيث يمجد الناس الألم ، والكذب ، والعجز .. وحيث تغشاهم غواشى الوصولية ، وتحيط بهم مكايد الطامعين ، يجب أن نزداد ارتباطا بالقافلة ، حتى لا تتخطفنا ذئاب الطريق ..

ان كل تخلف ، انتحار وانقراض . والمدنية لن تحس بخسارة اذا آثرتم أن تنقرضوا ..

وأيضا ، لن تقدروا ، ولو كنتم ملء الأرض ، أن تطمسوا مشعلها المغروس فى عزيمة الزمان ..

ألا وأن المدنية اليوم لتتهيأ لتثب وثبة قديرة نحوه تطور أخلاقى أفضل فلنساعد أنفسنا لنظفر بمساعدتها وعونها .

هيا .. ضعوا أيمانكم فى يمينها ، واعلموا أنكم اذ تمضون معها .. انما تمضون مع عقل التاريخ وارادته ..


10000124818

